

آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر

لقد فعّال الظلال

الشرائعية

الشيخ الفريداني

الأمثلة النحوية

الدراسة النحوية

العامة

الضمان المنقذ

وظائف اللغة

آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر

الدكتور

محمود أحمد نحلة

أستاذ العلوم اللغوية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر

مكتبة الأراب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ٥٠٨٦٨٠٠٢٩

قبره الإلكتروني e.mail: ndaboo@hotmail.com



الناشر

مكتبة الآداب
علي حسن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٢٢ هـ - ٢٠١١ م

بمطابقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

مخلة ، عمود أحمد.

أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر /

عمود أحمد مخلة -

ط ١ - القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠١١.

ص ٢٤١ سم.

تدمك ٧ ٢٩٢ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - اللغة العربية - طرق البحث

١ - العنوان

٤١٠,٧٨

مكتبة الآداب
علي حسن

١٢ ميدان التحرير - القاهرة

هاتف ٤٦٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

e-mail: ndabook@hotmail.com

عنوان الكتاب: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر

تأليف: عمود أحمد مخلة

رقم الإيداع: ١٧٣٦ لسنة ٢٠١١م

الترقيم الدولي: 7 - 292 - 468 - 977 - 978 - I.S.B.N.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحمدك اللهم وأسئتكحك وأسئتهديك، وأصلى وأسلم على نبيك ورسولك
سيدنا محمد وعلى آل وصحبه أجمعين. وبعد

فهذه أبحاث حاولت بها أن أستشرف أفقاً جديدة في البحث اللغوي
المعاصر تتجاوز الأنماط الشائعة منه مجالاً ومنهجاً، بالبعد عما تفرق فيه من
الجزئيات التي أصبحت تُسدّ علينا كل منافذ للرؤية الشاملة، والبحث عن أفق
من للتظير أوسع وأرحب، وأكثر قدرة على التجديد والتطوير، ومولجة
العصر الذي نعيش فيه، وذلك هو الجامع بينها على اختلاف الموضوعات
التي تناولتها.

وهذه الأبحاث ليست منبئة الصلة عن التراث اللغوي العربي، بل
تقف منه على أرض ثابتة، مفضلة أن نقرأه قراءة معاصرة تقيّد من اتجاهات
الدرس الحديث، ومناهجه، وطرائقه في رصد الظواهر اللغوية، ومعالجتها
على نحو مضبوط، يمكنها من الكشف عن ملامح نظريات عربية الوجه
واللسان موازية لنظريات غربية معاصرة، أو عن ظواهر لم يعرض لها
علماء العربية القدماء ومن صدر عن منهجهم من المحدثين، أو عرضوا لها
ولكن لم يوفوها حقها من البحث الكاشف لها والمحيط بها؛ تجديداً للنظر في
هذا التراث اللغوي القديم، وكشفاً عن كنوزه المخبوءة، وبياناً لعناصر القوة
فيه، وإصلاحاً لما قد يكون فيه من جوانب النقص والتقصير.

وهي لا تقتصر على التراث النحوي، بل تقيّد من التراث اللغوي
العربي كله الموزع بين كتب النحو، واللغة، والبلاغة، والفقه، وأصول الفقه،
والقرائات، والتفسير، والمعجمات، بما هو تراث لغوي واحد.

ومن هذه الأبحاث ما يعرض لجوانب من الدرس لم يعن بها
الدارسون العرب العناية الواجبة كالتصنيف للنوعى للغات ومكان العربية فيه،
والعالميات وما فى اللغة العربية منها، ووظائف اللغة.

فإذا استطاعت هذه الأبحاث أن تحفز الباحثين إلى ارتياد أفق جديدة
من البحث اللغوى المعاصر، أو أن تلقى بحجر فى ماء البحث اللغوى الرائد
فتلك غاية المنى، ومنتهى المأمول. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

محمود نحلة

**الاتجاه التداولي
في البحث اللغوي المعاصر**

يعود مصطلح التداولية pragmatics بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charles Morris الذي استخدمه سنة ١٩٣٨ دالاً على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات أو السيميائية semiotics (بؤثر موريس استخدام semiotic). هذه الفروع هي:

١- علم التركيب syntactics أو syntax: وهو يعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.

٢- علم الدلالة semantics: وهو يدرس علاقة العلامات بالاشياء التي تدل عليها، أو تحيل إليها.

٣- التداولية: وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفريها^(١).

على أن للتداولية لم تصح مجالاً يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد هم أوستن J.L. Austin، وسيرل J.R. Searle وجرانس H.P. Grice، (مع أن سيرل وجرانس أنما تعليمهما في كاليفورنيا). وقد كان هؤلاء الثلاثة من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية natural language أو العادية ordinary في مقابل مدرسة اللغة الشكلية أو للصورية formal language التي يمثلها كارناب Carnap، وكانوا جميعاً مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ

(١) Levinson, S. C. (1983): *Pragmatics*. Cambridge University Press. P.1

- McArthur, T. (1996): *The Oxford Companion to the English Language*. Oxford University Press. P. 718

- Horn, L.R. (1993): *Pragmatics theory*, in: *Linguistics: The Cambridge Survey. I Linguistic Theory: Foundations*, edited by F.J. Newmeyer. Cambridge University Press. P. 116.

مرسل رسالة إلى مستقبل بصرها، وكان هذا من صميم عملهم، وهو من صميم التداولية أيضاً. ومن الغريب أن أحداً منهم لم يستعمل مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاث^(١).

ولا تنتمي التداولية إلى أي من مستويات الدرس اللغوي صوتياً كان أم صرفياً لم نحويًا أم دلاليًا فالأخطاء التداولية لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفونولوجية أو النحوية أو الدلالية، وهي ليست مستوى يضاف إلى هذه المستويات؛ لأن كلا منها يختص بجانب محدد ومتمسك من جوانب اللغة، وله أنماطه التجريدية ووحداته التحليلية، ولا كذلك التداولية، فهي لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة، بل من الممكن أن تستوعبها جميعاً، وليس لها أنماط تجريدية ولا وحدات تحليل^(٢).

وهي كذلك لا تنضوي تحت علم من العلوم التي لها علاقة باللغة بالرغم من أنها تتداخل معها في بعض جوانب الدرس. ومن هذه العلوم^(٣):

- علم الدلالة semantics: وهو يشارك التداولية في دراسة المعنى على خلاف في العناية ببعض مستوياته. ونتيجة لتنامي الاهتمام بالتفاعل بين المعنى والاستعمال ظهرت اتجاهات حديثة تحاول أن تؤلف بينهما.

Leech, G. & Thomas, J.: Language, Meaning and context: Pragmatics, (١)
in: Collinge, N.E (ed.) 1990: An Encyclopedia of Language. Routledge
London and New York. P. 173 f.

Verschueren, J. (1999): Understanding Pragmatics. Arnold, London etc (٢)
P.2.

- Crystal, D. (1989): The Cambridge Encyclopedia of Language.
Cambridge University Press. P. 120.

Verschueren, J. (1999). P. 7. (٣)

- Crystal, D. (1989) P. 121.

- علم اللغة الاجتماعي sociolinguistics: وهو يشارك التداولية في تبين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث، والموضوع الذى يدور حوله للكلام، ومرتبة كل من المتكلم والمستمع وجنسه، وأثر السياق غير اللغوي في اختيار السمات اللغوية وتنوعاتها.

- علم اللغة النفسى psycholinguistics: وهو يشترك مع التداولية فى الاهتمام بقدرات المشاركين التى لها أثر كبير فى أدائهم مثل الانتباه، والذاكرة، والشخصية.

- تحليل الخطاب discourse analysis: وهو يشترك مع التداولية فى الاهتمام أساساً بتحليل الحوار، ويقسمان عددًا من المفاهيم القسفية واللغوية كالطريقة التى توزع بها المعلومات فى جمل أو نصوص، والعناصر الإشلية deictics والمبادئ الحوارية conversational maxims.

وكان من نتيجة هذا التداخل، واتساع مجالات التداولية وتنوعها أن أصبح من العسير وضع تعريف لها جامع مانع، وقد استطاع عدد من الباحثين أن يقدموا تعريفات كثيرة للتداولية ليس منها تعريف سلم من المأخذ عليه، وقد يناقض بعضها بعضاً. ومن هذه التعريفات:

- التداولية: هى دراسة الأسس التى نستطيع بها أن نعرف لم تكون مجموعة من الجمل شاذة anomalous تداوليًا أو تعدّ فى الكلام المحال كأن يقال مثلاً: أرسطو يونانى لكنى لا أعتقد ذلك! أو يقال: أمرك بأن تخالف أمرى أو يقال: الشمس لو سمحت تدور حول الأرض.

وعلى الرغم من أن إيضاح الشذوذ فى هذه الجمل قد يكون سبباً جيداً

للوصول إلى نوع من الأسس التي تقوم عليها التداولية فهو لا يعد تعريفاً شاملاً لكل مجالاتها^(١).

- التداولية هي دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفة *functional perspective*، وهو نوع من التعريف يحاول أن يوضح جوانب التركيب اللغوي بالإحالة إلى أسباب غير لغوية، لكن مثل هذا التعريف يقصر عن تمييز التداولية اللغوية عن كثير من فروع علم اللغة المهمة بالاتجاهات الوظيفية في اللغة ومنها علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي^(٢).

- التداولية هي دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية، فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق *truth conditions* فإن التداولية تعني بما وراء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط، وقصر علم الدلالة على هذا النوع من الأقوال غير مسلم به في النظريات الدلالية التي ظهرت منذ العقد الثامن من القرن العشرين، فضلاً عن أن ما وراء ذلك لا يستطاع حصره^(٣).

- التداولية هي دراسة جوانب السياق *aspects of context* التي تشفر شكلياً في تركيب اللغة وهي عندئذ جزء من مقدرة المستعمل *user pragmatics* في *competence*^(٤).

Levenson, S. C. (1983). P. 6 f. (١)

Ibid, P. 7. (٢)

Ibid, P. 12. (٣)

Crystal, D. (1994) A Dictionary of linguistics and Phonetics. Blackwell, Great Britain. P. 271. (٤)

- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998): An Introduction to Language. Harcourt Brace Collage Publishers. USA. P. 190.

- Horn, L. R. (1993) P. 116.

- التداولية فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم speaker intentions أو هو دراسة معنى المتكلم speaker meaning فقول القائل أنا عطشان مثلاً قد يعنى أحضر لى كوباً من الماء، وليس من اللازم أن يكون إخباراً بأنه عطشان، فالمتكلم كثيراً ما يعنى أكثر مما تقوله كلماته، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يمكن للناس أن يفهم بعضهم بعضاً؟

على أن مصطلح معنى المتكلم مفضل عند الذين يدرسون اللغة من الوجهة الاجتماعية بالرغم من أنه لا يلتفت إلى أن تفسير ما نسمع يحتاج إلى التحرك بين مستويات عديدة من المعنى. ومصطلح تفسير الكلام utterance interpretation المفضل عند الذين يمثلون الاتجاه المعرفى cognitive يتجنب هذا الخطأ لكنه يصرف جل اهتمامه إلى متلقى الرسالة، وفي هذا تجاهل للضوابط والقيود الاجتماعية التي تحكم إنتاج الكلام^(١).

من هنا رأى بعض الباحثين أن للمعنى مستويات ثلاثة: المعنى اللغوى وهو المعنى المأخوذ مباشرة من دلالة الكلمات والضمائر والجمل، ومعنى الكلام وهو المعنى السياقي، ثم المعنى الكامن أو الموجود بالقوة force وهو معنى المتكلم^(٢) ولإيضاح ذلك نسوق المثال الآتي: إذا قال لك شخص فى سياق محدد: أهذه سيارتك؟ فالسياق الذى ألقى فيه السؤال لا يدع مجالاً للشك فى أن هذه تشير إلى شئ محدد هو السيارة، وأن للضمير "الكاف"

(١) Thomas, J. (1996): Meaning in Interaction. An Introduction to Pragmatics. Longman London and New York. P. 2.

- Yule, G.: (1987): The Study of Language. Cambridge University Press. P. 97

Thomas, J. (1996), P. 3.

(٢)

يشير إليك، وعلى الرغم من أنه ليس هناك مشكلة في فهم معنى الكلام (وهو المستوى الأول من معنى المتكلم) فيك حتى هذه اللحظة قد لا تكون وصلت إلى معنى المتكلم أو فهم القوة force التي تكمن خلف هذا السؤال: هل المتكلم يريد إجابة عن سؤاله بنعم أو لا أو أنه يخرج عن هذا المعنى الحقيقي إلى مقصود آخر هو التعبير عن اللوم لأن سيارتك سدت طريق المرور على السيارات الأخرى؟ وهذا هو معنى المتكلم^(١).

من هنا كان أوجز تعريف للتداولية وأقربه إلى القبول هو: دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متأسلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول negotiation اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادى، واجتماعى، ولغوى) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما^(٢).

وقد حدد بعض الباحثين ما تتميز به التداولية عن غيرها من اتجاهات البحث اللغوى بما يأتي^(٣).

١- التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوى أو هى لسانيات الاستعمال اللغوى. وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوى فى الاستعمال القلى من حيث هو صيغة مركبة من الملوك الذى

Ibid, P. 18 f. (١)

Ibid, P. 22. (٢)

- Crystal, D. (1994) P. 120.

- Malmkjær, K. (1991): Pragmatics, in: Malmkjær, K. (ed.): The Linguistics Encyclopedia. Routledge. London and New York P. 354.

Verschueren, J. (1999) P. 10 f. (٣)

بولد المعنى.

٢- ليس للتداولية وحدات تحليل units of analysis خاصة بها، ولا موضوعات مترابطة correlational topics.

٣- التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية علمة (معرفية cognitive) واجتماعية social، وثقافية cultural).

٤- تعد التداولية نقطة التقاء point of convergence مجالات العلوم ذات الصلة باللغة بوصفها وصلة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية Linguistics of language resources.

ولما كان مجال البحث في التداولية شديد الاتساع فقد أخذت تظهر لها فروع^(١) يتميز كل منها عن الآخر، فهناك التداولية الاجتماعية sociopragmatics التي تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستتبطة من السياق الاجتماعي. وهناك التداولية اللغوية linguistic pragmatics التي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية structural، وهى بذلك تنطلق من اتجاه مقابل للتداولية الاجتماعية، فإذا كانت هذه تنطلق من السياق الاجتماعي إلى التركيب اللغوي فإن تلك تنطلق من التركيب اللغوي إلى السياق الاجتماعي الذى تستخدم فيه. وهناك أيضاً التداولية التطبيقية applied pragmatics، وهى تعنى بمشكلات التواصل فى المواقف المختلفة وبخاصة حين يكون للاتصال فى موقف بعينه نتائج خطيرة كالاستشارة الطبية، وجلسات المحاكمة، ثم للتداولية العامة general pragmatics، وهى التى تعنى بدراسة الأسس التى يقوم عليها استعمال اللغة استعمالاً تصالياً.

Crystal (1994), P. 271.

(١)

ويكاد الباحثون يتفقون على أن البحث التداولي يقوم على دراسة أربعة جوانب هي: الإشارة *deixis*، والافتراض السابق *presupposition*، والاستلزام الحوارى *conversational implicature*، والأفعال الكلامية *speech acts*. وسوف نفضل الحديث الآن فى كل جانب منها:

أولاً: الإشارات *deixis*:

فى كل اللغات كلمات وتعبيرات تعتمد اعتماداً تاماً على السياق الذى تستخدم فيه ولا يستطيع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه، فإذا قرأت جملة مقتطعة من سياقها مثل:

سوف يقومون بهذا العمل غداً، لأنهم ليسوا هنا الآن

وجنتها شديدة الغموض لأنها تحتوى على عدد كبير من العناصر الإشارية التى يعتمد تفسيرها اعتماداً تاماً على السياق المادى الذى قيلت فيه، ومعرفة المرجع *reference* الذى تحيل إليه، وهذه العناصر هي: ولو الجماعة وضمير جمع الغائبين هم واسم الإشارة هذا، وظرفاً الزمان غداً، والآن، وظرف المكان هنا، ولا يتضح معنى هذه الجملة إلا إذا عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر. ومثل ذلك أن تجد إعلاناً غير مؤرخ يقول البيع بالمزاد العطنى يوم الخميس فلا تعرف عندئذ أى يوم من أيام الخميس يكون، وهل انقضى وقته أو لم يزل، ولكي يكون معناه مفهومًا فلا بد من معرفة ما يشير إليه بتحديد زمانه بالقياس إلى زمان المتكلم. ومثل هذه العناصر تسمى العناصر الإشارية *deictics* أو الإشارات اختصاراً⁽¹⁾، ويؤثر فلاسفة اللغة أن يستخدموا للدلالة

Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 199.

- Yule, G. (1987) P. 99.

- Crystal, D. (1989) P. 106.

(1)

عليها المصطلح indexical expressions أو indexicals اختصاراً^(١)، وكان بيرس Peirce أول واضع له^(٢).

وبلغت لفضولهم إلى أن التعبيرات الإشارية تذكر دائماً للباحثين النظريين في علم اللغة بأن اللغات الطبيعية وضعت أساساً للتواصل المباشر بين الناس وجهاً لوجه وتظهر أهميتها البالغة حين يغيب عنا ما تشير إليه فيسود الغموض ويستغلغ الفهم^(٣). من هنا كانت النظريات الدلالية الشكلية عاجزة عن معالجة هذه الإشارات^(٤).

وقد أفضى هذا إلى ظهور ما يسمى علم الدلالة المقامى situational semantics على النحو الذي وجدناه عند بلروايز وبيري Barwise & Perry (سنة ١٩٨٣) حيث بذلت محاولات جادة لإدخال الجوانب السياقية في التفسير الدلالي^(٥). فأصبحت الإشارات مجالاً مشتركاً بين علم الدلالة والتداولية^(٦)، وإن كان بعض الباحثين لا يزال يراها أنخل في التداولية منها في علم الدلالة^(٧).

وأغلب الباحثين على أن الإشارات خمسة أنواع: إشارات شخصية، وإشارات زمانية، وإشارات مكانية، وإشارات اجتماعية، وإشارات خطابية

Thomas, J. (1996) P. 9. (١)

Levinson, S.C. (1983). P. 57. (٢)

Ibid, P. 54. (٣)

Levinson, S.C.: (1992) Deixis, in: Bright, W (ed.) 1992. International Encyclopedia of Linguistics. Oxford University Press. P. 344. (٤)

Ibid, P. 344. (٥)

Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 201. (٦)

Levinson, S.C.: (1983) P.55. (٧)

أو نصية، واقتصر بعضهم على الثلاثة الأول^(١)، وبعضهم على الأربعة
الأخر^(٢) وسوف نوجز القول في أنواعها الخمسة:

١- الإشارات الشخصية Personal deictics:

أوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص person هي ضمائر
الحاضر، والمقصود بها الضمائر للشخصية الدالة على المتكلم وحده مثل أنا
أو المتكلم ومعه غيره مثل نحن، والضمائر الدالة على المخاطب مفردًا أو
مثنى أو جمعًا، منكرًا أو مؤنثًا. وضمائر الحاضر هي دائماً عناصر إشارية،
لأن مرجعها يعتمد اعتمادًا تامًا على السياق الذي تستخدم فيه^(٣)، وليس من
شك في أن الضمير أنا وأنت ونحوهما له دلالة في ذاته على المتكلم أو
المخاطب، لكن السياق لازم لمعرفة من المتكلم أو المخاطب الذي يحيل إليه
الضمير أنا وأنت. أما ضمير الغائب فيدخل في الإشارات إذا كان حرًا أي لا
يعرف مرجعه من السياق اللغوي، فإذا عرف مرجعه من السياق اللغوي
خرج من الإشارات. ولا يدخل في الإشارات الضمير غير الشخصي في
نحو It rains في الإنجليزية، فهو ليس ضميرًا حقيقيًا true pronoun يشير إلى
بعض الموجودات بل هو في الحقيقة مورفيم نحوي شاغل لموقع تتطلبه
قواعد التركيب الإنجليزي^(٤).

ويضيف فلاسفة اللغة بعدًا آخر يتمثل في شرط الصدق truth

Crystal, D. (1989) P. 106. (١)

Verschueren, J. (1999) P. 18. (٢)

Levinson, S.C. (1983) P. 69. (٣)

- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 199.

Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 200. (٤)

condition فإذا قالت امرأة مثلاً: أنا لم ناهليون فليس بكاتب أن يكون مرجع الضمير هو تلك المرأة بل لابد من التحقق من مطابقة المرجع للواقع، بأن تكون هذه المرأة هي لم ناهليون فعلاً وأن تكون الجملة قيلت في الظروف التاريخية المناسبة فإن لم يتحقق شرط الصق كانت الجملة كاذبة^(١). وقد نبه بيرس إلى أن الإشارات ينبغي أن تكون محددة المرجع يتحقق العلاقة الوجودية existential relation بين العلامة sign وما تدل عليه^(٢).

على أنه قد ينشأ نوع من اللبس في استخدام الضمائر إذا تعددت مراجعها أو تبادل كل من المتكلم والمخاطب أدوار الكلام فأصبح المتكلم مخاطباً والمخاطب متكلماً، أو نقل متكلم كلاماً لمتكلم آخر، كأن يقول رجل: قال زيد أنا قادم الليلة/ هو قادم الليلة، وقد جعل ذلك بعض اللغويين يفرق بين المتكلم والمصدر source الذي ينقل كلاماً كلف بنقله إلى آخر^(٣). وقد يكون لضعف القرينة التي تعين على تحديد المرجع أثر في غموض الكلام أو وقوع اللبس.

ويدخل في الإشارة إلى الشخص person deixis النداء vocative، وهو ضميمة اسمية تشير إلى مخاطب لتثبيته أو توجيهه أو استدعائه، وهي ليست ممنجة فيما يتلوها من كلام، بل تتفصل عنه بتنغميم يميزها^(٤). وظاهر أن النداء لا يفهم إلا إذا اتضح المرجع الذي يشير إليه.

Levinson, S.C. (1983) P. 55 f.

(١)

Ibid, P.57.

(٢)

Ibid, P. 68 f.

(٣)

Ibid, P. 71.

(٤)

٢ - الإشارات الزمانية temporal deictics :

الإشارات الزمانية كلمات تدل على زمن يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم فزمان التكلم هو مركز الإشارة deictic center الزمانية في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية التبع الأمر على السامع أو القارئ فتوكل مثلاً بعد أسبوع يختلف مرجعها إذا قلتها اليوم أو قلتها بعد شهر أو بعد سنة وكذلك إذا قلت نلتقي الساعة العاشرة فزمان التكلم وسياقه هما اللذان يحددان المقصود بالساعة العاشرة صباحاً أو مساءً من هذا اليوم أو من يوم يليه^(١). وزمن الفعل نلتقي ينفي أن يكون اللقاء قد حدث فعلاً، بل يصرف زمن اللقاء إلى زمن لم يمض بعد^(٢)، ومثل ذلك كلمات مثل: لأمس، وغداً، والآن والأسبوع الماضي ويوم الجمعة، والسنة المقبلة ومنذ شهر... الخ، فهي كلها لا يتضح معناها إلا بالإشارة إلى زمان يعينه بالقياس إلى زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية.

ومن أجل ذلك قد يواجه القارئ مشكلة إذا لم يعرف مرجع الزمان في كتاب يقرؤه فكثير من روايات أجاثا كريستي مثلاً تذكر الحرب دون إحالة إلى زمان يعينه فيضطرب القارئ في فهم المراد، ويتساءل أي حرب هذه؟ وهو مضطر أن يتبع السياق التاريخي وتاريخ نشر الكتاب حتى يفهم المراد بها. ومثل ذلك أن يذكر في حديث أو كتاب وزير المالية المصري، أو أميرة موناكو أو نحو ذلك دون إحالة إلى زمان يعينه^(٣).

Verschuereen, J. (1999) P. 18 f. (١)

- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 200.

Verschuereen, J. (1999) P. 19. (٢)

- Levinson, S.C. (1983) P. 73 f.

Thomas, J. (1996) P. 10. (٣)

على أن الإحالة إلى الزمان قد تستغرق المدة الزمانية كلها كأن يقال اليوم الأربعاء وقد تستغرق مدة محددة من الزمان كأن يقال ضرب زيد عمراً يوم الخميس، فضرب زيد عمراً لا يستغرق يوم الخميس بل يقع فى جزء منه^(١) وقد يتسع مدى بعض العناصر الإشارية إلى الزمان فيتجاوز الزمان المحدد له عرفاً إلى زمان أوسع فكلمة اليوم فى قولنا بلغت اليوم مثلاً تشمل العصر الذى نعيش فيه، ولا تتحدد بيوم مدته أربع وعشرون ساعة، وكل ذلك موكول إلى السياق الذى تستخدم فيه هذه العناصر الإشارية إلى الزمان^(٢).

ومما ينبغى الالتفات إليه أن العناصر الإشارية قد تكون دالة على الزمان الكونى الذى يفترض سلفاً تقسيمه إلى فصول، وسنوات وأشهر وأيام وساعات... الخ وقد تكون دالة على الزمن النحوى tense، وقد يتطابقان فى سياق الكلام، وقد يختلف الزمن النحوى عن الزمان الكونى فتستخدم صيغة الحال للدلالة على الماضى، وصيغة المضى للدلالة على الاستقبال فينشأ بينهما صراع لا يحله إلا المعرفة بسياق الكلام ومرجع الإشارة. فالزمن النحوى لا يطابق الزمان الكونى فى كثير من أنواع الاستعمال^(٣).

ويلاحظ بعض الباحثين أن بعض استعمالات اللغة لا ينفك عن الإشارة الزمانية كبعض أنواع التحيات مثل صباح الخير فهى لا تقال إلا فى الصباح^(٤). وتقع المفارقة irony إذا قالها واحد من الناس فى المساء مثلاً، وليس هذا مما تضبطه قواعد اللغة، بل أعراف الاستعمال^(٥).

Levinson, S.C. (1983) P. 74.

Ibid, P. 74.

Ibid, P. 73 f.

Ibid, P. 75.

Crystal, D. (1989) P. 120.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

٣- الإشاريات المكانية spatial deixis:

وهي عناصر إشارية إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت المتكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان لثمة في اختيار العناصر التي تشير إليه قريباً أو بعداً أو وجهة^(١). ويستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفهموا كلمات مثل هذا وذاك، وهنا وهناك ونحوها إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر immediate physical context الذي قيلت فيه^(٢). ومثل هذه التعبيرات أمثلة واضحة على أن أجزاء من اللغة لا يمكن أن تفهم إلا في إطار المعنى الذي يقصده المتكلم speaker intended meaning، فإذا قال شخص أحسب أن أصعل هنا، فهل هو يعني: في هذا المكتب، أو في هذه المؤسسة، أو في هذا المبنى، أو في هذا الجزء من المدينة، أو في هذه الدولة أو في غير هذه جميعاً. فكلما هنا تعبير إشاري لا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه^(٣).

وأكثر الإشاريات المكانية وضوحاً هي كلمات الإشارة نحو هذا وذاك للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية وهو المتكلم، وكذلك هنا وهناك وهما من ظروف المكان التي تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم، وسائر ظروف المكان مثل فوق وتحت، وأمام وخلف... الخ كلها عناصر يشار بها إلى مكان لا يتحدد إلا بمعرفة موقع المتكلم

(١) O'Grady, W. Dobrovolsky, M. Katamba, F. (1996). Contemporary Linguistics. An Introduction. Longman. P. 297.

(٢) Yule, G. (1987) P. 99.

(٣) Ibid, P. 99.

واتجاهه^(١). وفلاسفة اللغة يميلون إلى تمييز كلمات الإشارة إلى المكان عن ظروف المكان، واعتبراها نوعين من أنواع الإشارة أما للغويون فيميلون إلى تجميعها معاً، وجعلها صنفاً واحداً يشار به إلى مكان^(٢).

ويرى بعض الباحثين أن ال التي للتعريف تدخل في العناصر الإشارية لأنها تقوم بالوظيفة التي يقوم بها اسم الإشارة، والفرق بينهما أن اسم الإشارة يزيد عليها بالدلالة على القرب أو البعد (+ قرب) أو (+ بعد)، فهو موسوم marked بالقرب أو البعد أما ال التي للتعريف فهي غير موسومة unmarked بقرب ولا بعد، ويرى هؤلاء أن التعريف في أصله مفهوم إشاري^(٣).

ولفت بعض الباحثين إلى أن عناصر الإشارة إلى المكان قد تنقل للإشارة إلى ما يسمونه المسافة العاطفية emotional distance وتسمى عندئذ الإشارة الوجدانية empathic deixis^(٤)، وهو قريب مما أسماه علماء المعاني عندنا: التحقير بالقرب^(٥) نحو قوله تعالى ﴿أَمَدًا الَّذِي يَذْكُرُ آهَتَكُمْ﴾ والتعظيم بالبعد كقوله جل وعز: ﴿إِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾.

وقد يكون لما يسمى للتقابل الإشاري أثر حاسم في فهم بعض الأفعال الشائعة الاستعمال مثل يأتي ويذهب، فالفعل يأتي يتضمن حركة نحو المتكلم،

(١) Levinson, S.C. (1983) P. 81.

- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 200.

(٢) Levinson, S.C. (1992) P. 343.

(٣) Levinson, S.C. (1983) P. 83.

(٤) Ibid, P. 81.

(٥) انظر: القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة. ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب اللبناني. د. ت ص ٦٢.

والفعل يذهب يتضمن حركة من المتكلم إلى غيره^(١).. والياباني مثلاً لا يستطيع أن يقول لزميله ما يقابل: هل أستطيع أن آتي إليك لأن الفعل *kuru* في اليابانية لا يستخدم إلا للدلالة على اتجاه الحركة إلى مكان المتكلم، بل لابد أن يستخدم الفعل *iku* يذهب الذي يدل على اتجاه الحركة من مكان المتكلم إلى غيره^(٢) وكذلك أمثال هذين الفعلين ونحوهما من نحو *خذ وهات*، ويعطى ويأخذ... إلخ فيها جانب إشاري يتحدد به معناها^(٣).

٤ - إشارات الخطاب *discourse deictics*:

قد تلتبس إشارات الخطاب بالإحالة إلى سابق *anaphora* أو لاحق *cataphora*، ولذلك أسقطها بعض الباحثين من الإشارات. ولكن منهم من ميز بين النوعين فرأى أن الإحالة يتحدد فيها المرجع بين ضمير الإحالة وما يحيل إليه مثل زيد كريم وهو ابن كرام أيضاً؛ فالمرجع الذي يعود إليه زيد وهو واحد، أما إشارات الخطاب فهي لا تحيل إلى ذات المرجع، بل تخلق المرجع فإذا كنت تروي قصة ثم ذكرك بقصة أخرى فقد تشير إليها، ثم تتوقف قليلاً؛ لكن تلك قصة أخرى، فالإشارة هنا إلى مرجع جديد^(٤)، على أن هذا التمييز بين إشارات النص والإحالة إلى عنصر فيه ليس حاسماً، ذلك بأن الإحالة في قصارها ضرب من إشارات النص، أو هي أسس فيها^(٥).

وقد يبدو طبيعياً أن تستعمل إشارات الزمان وإشارات المكان

O'Grady, W. et al (1996) P. 297. (١)

Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 200 f. (٢)

Crystal, D. (1989) P. 106. (٣)

- Levinson, S.C. (1983) P. 84.

Levinson, S.C. (1983) P. 85. (٤)

Ibid, P. 87. (٥)

لتمتخدم إشارات للخطاب فكما يقال: الأسبوع الماضي يمكن أن يقال: الفصل الماضي من الكتاب، أو الرأي السابق، وقد يقال: هذا النص للإشارة إلى نص قريب، أو تلك القصة إشارة إلى قصة بعد بها القول^(١).

لكن هناك إشارات للخطاب تعدّ من خواص الخطاب وتتمثل في العبارات التي تذكر في النص مشيرة إلى موقف خالص بالمتكلم فقد يتحير في ترجيح رأى على رأى أو الوصول إلى مقطع اليقين في مناقشة أمر فيقول: ومهما يكن من أمر، وقد يحتاج إلى أن يستدرك على كلام سابق أو يضرب عنه فيستخدم لكن أو بل، وقد يعن له أن يضيف إلى ما قال شيئاً آخر فيقول فضلاً عن ذلك، وقد يعمد إلى تضعيف رأى فيذكره بصيغة التمريض قيل، وقد يريد أن يرتب أمراً على آخر فيقول من ثم... الخ وهذه كلها إشارات خطابية خالصة لا تزال في حاجة إلى دراسة تجلج جوانبها واستخداماتها إشارات للخطاب^(٢).

٥- الإشارات الاجتماعية social deictics:

وهي ألفاظ وتركيب تشير إلى علاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية formal أو علاقة لغة ومودة intimacy^(٣).
والعلاقة الرسمية يدخل فيها صيغ التمجيل honorifics^(٤) في مخاطبة من هم أكبر سناً ومقاماً من المتكلم، كاستخدام vous في الفرنسية للمفرد

Ibid, P. 85. (١)

Ibid, P. 87. (٢)

Verschueren, J. (1999) P. 20. (٣)

- Crystal, D. (1989) P. 120.

Levinson, S.C. (1983) P. 9. (٤)

المخاطب تَبجِلاً له، أو مراعاة للمسافة الاجتماعية بينهما، أو حفظاً للحوار في إطار رسمي، وكذلك الحال في استخدام *She* في الألمانية وأنتم في اللغة العربية للمفرد المخاطب ونحن للمفرد المعظم لنفسه. وهي تشمل أيضاً الألقاب^(١) مثل فخامة الرئيس، الإمام الأكبر، جلالة الملك، سمو الأمير، فضيلة الشيخ، كما تشمل أيضاً السيد، السيدة، الأئمة. ويدخل فيها أيضاً: حضرتك، وسيدتك، وسعادتك، وجنابك، وقد يقتصر استعمال بعضها على الرجال مثل معالي الباشا، وقد يقتصر بعضها على النساء مثل الهانم، وفي الإنجليزية لا يجوز أن تشير إلى سيدة أكبر منك سناً أو مقاماً في حضورها بقولك she^(٢).

أما الاستعمال غير الرسمي فهو منفك من هذه القيود جميعاً، وينعكس هذا في استعمال بعض الضمائر للدلالة على المفرد المخاطب مثل *tu* في الفرنسية و *du* في الألمانية، وفي النداء بالاسم المجرد، أو اسم التلليل أو نحو ذلك، فضلاً عن التحيات^(٣) التي تخرج من الرسمية إلى الحميمية مثل: صباح الخير، صباح اللؤلؤ، صباح العسل... الخ.

وربما وجدنا ظلالاً للإشريات الاجتماعية في دلالة استخدام بعض الألفاظ على طبقة اجتماعية بعينها مثل استخدام *looking glass* الذي يعدّ في بريطانيا إشارة إلى الطبقة الاجتماعية العليا في مقابل *mirror*، ومثلها *lady* و *woman*^(٤). ومن ذلك في اللغة العربية استعمال حامل وجلسي، وكنيف

Ibid, P. 89. (١)

Crystal, D. (1989) P. 120. (٢)

Ibid, P. 120. (٣)

- Verschuieren, J. (1999) P. 21.

(٤) أحد مختار صر: علم للدلالة (الكويت ١٩٨٢) ص ٧١.

ومرحاض ودورة مياه وحمام وتواليت، ومنها استخدام عقيلته وفريقته وحرمة وزوجته وامراته^(١).

وظاهر أن الإشارات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي.

ثانياً: الافتراض السابق presupposition:

يوجه المتكلم حديثه إلى السامع على أساس مما يفترض سلفاً أنه معلوم له^(٢)، فإذا قال رجل لآخر: أظقي للنافذة، فالفترض سلفاً أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مبرراً يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة، وأن المتكلم في منزلة الأمر، وكل ذلك موصول بمساق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب. من أجل ذلك كانت دراسة الافتراض السابق مثار اهتمام الباحثين منذ أوائل العقد السابع من القرن العشرين^(٣) لما سببه من مشكلات حقيقية لكل النظريات التحويية، فضلاً عن أنها شغلت جانباً أساسياً من اهتمام علماء الدلالة، ثم برزت إلى موقع الصدارة من اهتمام الباحثين في أوائل العقد الثامن حين أصبحت الوجهة التداولية في دراسة المعنى بديلاً لا غنى عنه للوجهة الدلالية في هذا الجانب^(٤).

(١) السابق ص ٢٢٨.

(٢) Yule, G. (1987) P. 100.

(٣) تعود المحاولات الأولى لدراسة الافتراض السابق إلى فيلسوف آخر من أكسفورد هو سترونسون strawson (١٩٥٢) الذي أعاد إنتاج مفهوم كان قد ظهر فعلاً على يد الرياضي الألماني فريجه frege (١٨٩٢) بوصفه مشكلة من مشكلات علم الدلالة المنطقي المؤسس على الصدق Truth-based logical semantics انظر:

Leech & Thomas (1990) P. 189.

Levinson, S.C. (1983) P. 167. (٤)

- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 189.

وينبغي لمن يخوض في دراسة الافتراض السابق أن يكون على حذر من أمرين^(١).

أولهما: كثرة الأبحاث التي تناولت هذا الموضوع في إطار نظريات مختلفة ووجهات نظر متباينة، على نحو لم يتح لأي جانب من جوانب الدرس التداولي، باستثناء الأفعال الكلامية *speech acts*. وبعض هذه الأبحاث قديم مطروح *obsolete* وبعضها عقيم *sterile* لا خير يرجى من ورائه. فليس بمستغرب أن يجد الباحث في هذا الموضوع الرأي ونقيضه، فضلاً عما يكتنف بعض هذه الآراء من غموض والتباس.

والثاني: التمييز الواجب بين الاستعمال العام للفظ الافتراض السابق في لغة الحياة اليومية، والاستعمال الاصطلاحي في الدرس التداولي الذي هو أضيق مدى من الاستعمال العام. فمن الاستعمال العام أن يقال: كتب زيد رسالة إلى عمرو فيفترض السامع سلفاً أن عمراً يقرأ أو يقال: إما أن يكافأ زيد أو تكافأ زوجته فيفترض السامع سلفاً أن لزيد زوجة، ولما الاستعمال الاصطلاحي فهو مقيد باستدلالات تداولية *pragmatic inferences* يعينها تحملها تعبيرات لغوية معينة، ويمكن الوصول إليه ببعض الاختبارات اللغوية^(٢)، كما سيأتي.

ويستمر كثير من وكلاء النيابة والمحامين هذه الخاصية في استجواب المتهمين والشهود، فإذا سأل وكيل النيابة المتهم: وأين كنت تبسح الكوكابين؟ فأجاب المتهم بذكر مكان ما، ثبتت عليه التهمة، لأن تحديد مكان

Levinson, S.C. (1983) P. 167.

(١)

Levinson, S.C. (1983) P. 168.

(٢)

لبيعه يتضمن افتراضاً سابقاً بالمتاجرة به^(١) وفي المحاكم الأوروبية والأمريكية يمنع أن يسأل سؤال من نحو: هل توقفت عن ضرب زوجتك؟ لأنه يتضمن افتراضاً سابقاً بأن المحكمة تبيح ضرب الزوجة^(٢).

وقد ميز بعض الباحثين منذ وقت مبكر من العقد السابع من القرن العشرين بين نوعين من الافتراض السابق: المنطقي أو الدلالي، والتداولي، فالأول مشروط بالصدق بين قضيتين، فإذا كانت (أ) صالحة كان من اللازم أن تكون (ب) صالحة فإذا قلنا مثلاً: إن المرأة التي تزوجها زيد كانت أرملة، وكان هذا القول صادقاً أي مطابقاً للواقع لزم أن يكون القول: زيد تزوج أرملة صادقاً أيضاً، إذ إنه مفترض سلفاً. وأما الافتراض التداولي السابق فلا دخل له بالصدق والكذب، فالتقضية الأساسية يمكن أن تتفى دون أن يؤثر ذلك في الافتراض السابق، فإذا قلت مثلاً سيرتى جديدة ثم قلت سيرتى ليست جديدة فعلى الرغم من التناقض في القولين فإن الافتراض السابق وهو أن لك سيارة لا يزال قائماً في الحالين^(٣).

على أن من الباحثين من أراد أن يجعل من الافتراض التداولي السابق بديلاً للافتراض الدلالي السابق^(٤)، ومنهم من رفض قصره على جانب واحد، لأن بعض ظواهر الاستعمال اللغوي تحتاج في إيضاحها إلى افتراض دلالي سابق، وبعضها يحتاج إلى افتراض تداولي سابق، فليس من الممكن الاستغناء

Yule, G. (1987) P. 100. (١)

Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 199. (٢)

Newmeyer, F. J. (1986): Linguistic Theory of America. Academic Press. Inc. Orland and London. P. 177. (٣)

Levinson, S.C. (1983), P. 204. (٤)

بأحدهما عن الآخر^(١)، وكثير من الباحثين خلطوا بينهما. وقد جعل هذا بعض الباحثين يرى أن الافتراض السابق مفهوم خلافي controversial notion^(٢).

وقد ميز بعض الباحثين أيضاً بين الافتراض الدلالي السابق والافتضاء entailment. والافتضاء علاقة بين جملتين أو قضيتين يقتضى صدق الأولى منها صدق الثانية فإذا كانت الجملة: أرى حصاناً صادقاً لزم أن تكون الجملة: أرى حيواناً صادقاً أيضاً، فأنت لا تستطيع أن تقبل الأولى وترفض الثانية^(٣)، وقد أصبح الافتضاء فى الدراسة للدالية المتأخرة مقابلاً للافتراض الدلالي السابق على أسس من أن كذب إحدى الجملتين يؤدي إلى نتيجة مختلفة، فإذا كان قولك أرى حصاناً كاذباً فإن مفهوم الافتضاء يوجب أن يكون قولك أرى حيواناً إما صادقاً وإما كاذباً، لكن مفهوم الافتراض الدلالي السابق يقتضى أنه إذا كانت الجملة الأولى كاذبة فإن الثانية يجب أن تكون صادقاً فقولك مثلاً: توقف زيد عن ضرب عمرو يفترض سلفاً أن زيداً كان يضرب عمراً، وتظل هذه الجملة صادقاً إن كذبت الأولى^(٤). وظاهر أن الالتباس بين المفهومين لا يكون إلا فى الجمل الخبرية assertive المثبتة، فالافتضاء مقيد بها، فى حين أن الافتراض السابق لا يتقيد بذلك فضلاً عن أنه قد يكون إنشاءً أمراً أو استفهاماً، أو تعجباً أو غير ذلك^(٥).

Leech, G. & Thomas, J. (1990) P. 191. (١)

Atkinson, M.- Kilby, D. Roca, (1988): Foundations of general (٢)
Linguistics. Unwin Hyman. London. P. 199.

Leech, G. (1978): Semantics. Penguin Books. P. 291. (٣)

- Crystal, D. (1994) P. 122.

Crystal, D. (1994) P. 122. (٤)

Newmeyer, F. G. (1986) P. 178. (٥)

- Leech, G. (1978). P. 293.

وقد لاحظ بعض الباحثين أن الافتراض السابق قد يرتبط بالفاظ وتراكيب مثل عليه، وفتوا إلى أن هذا الأمر لم يدل ما يستحق من عناية الدارسين، فلم يظهر بعد دراسة شاملة، ومما أوردوه من ذلك^(١) مما له نظير في العربية الأزواج الآتية من الجمل التي يكون الافتراض السابق فيها مرتبطاً ببعض العناصر اللغوية دون بعض.

١- أ - زيد اغتيل سنة ١٨٦٨.

ب - زيد قتل سنة ١٨٦٨.

فاستخدم الفعل اغتال في الجملة (أ) يتضمن افتراضاً سابقاً بأن زيداً كان شخصية سياسية بارزة، لكن هذا الافتراض غير متحقق في الفعل قتل في الجملة (ب).

٢- أ - هل توقفت عن التدرب على المصارعة ؟

ب - هل حاولت أن تتدرب على المصارعة ؟

فاستخدم الفعل توقف عن* في الجملة (أ) يتضمن افتراضاً سابقاً بأن المخاطب كان يتدرب على المصارعة، وهو غير متحقق في الفعل حاول في الجملة (ب).

٣- أ - لم يتمكن أحد من حمل الصخرة حتى زيد.

ب - لم يتمكن عمرو ولا زيد من حمل الصخرة.

O'Grady, W. et al (1996). P. 296.

- Verschuere, J. (1999) P. 28 f.

- Horn, L. (1992). P. 263.

(١)

فاستخدام حرف العطف حتى في الجملة (أ) يتضمن افتراضاً مسبقاً بأن زيذا أقوى من غيره ممن حاولوا حمل الصخرة وأشد، أو أنه متميز دونهم بقدرته على رفع الأثقال، وهذا غير متحقق في استعمال حرف العطف الواو.

٤- أ - لو كان العام عام سلام ما أُرِقت هذه النماء.

ب - إذا كان العام عام سلام فلن تراق نماء.

فاستخدام لو في الجملة (أ) يتضمن افتراضاً مسبقاً بامتناع أن يكون العام المراد عام سلام، وهو غير متضمن في إذا.

٥- أ - أرجوك أن تتجاوز عن الخطأ الذي وقع مني لئس.

ب - أرجوك أن تتجاوز عن أي خطأ يقع مني.

فاستعمال أداة التعريف في الخطأ في الجملة (أ) يتضمن افتراضاً سابقاً أن هناك خطأ محنداً وقع، وهذا غير متضمن في أي.

٦- أ - أنهت زينب بحثها بعد أن عانت من أوروبا.

ب - أنهت زينب بحثها بعد أن ماتت.

فاستخدام الظرف بعد مع الفعل مات في (ب) جعل الجملة غير مقبولة لأنه يفترض سلفاً أن من المستحيل أن ينجز المرء عملاً بعد الموت، ولا كذلك الفعل عاد.

هذه أسئلة لارتباط افتراض سابق بعينه باستعمال ألفاظ لغوية بعينها سقناها على سبيل التمثيل آمين أن يفرغ أحد الباحثين لدراسة هذه الظاهرة.

ثالثاً: الاستلزام الحوارى conversational implicature:

بعد الاستلزام الحوارى واحداً من أهم الجوانب فى الدرس لتداولي؛ فهو أصغها بطبيعة البحث فيه، وأبعدها عن الانتباس بمجالات الدرس الدلالي، وعلى الرغم من ذلك فليس له - خلافاً لكثير من موضوعات البحث التداولي - تاريخ ممتد^(١)؛ إذ ترجع نشأة البحث فيه إلى المحاضرات التى دعى جريس H.P. Grice - وهو من فلاسفة لكسفورد المتخصصين فى دراسة اللغة الطبيعية natural language - إلى إلقائها فى جامعة هارفرد سنة ١٩٦٧م، فقدم فيها بليجاز تصوره لهذا الجانب من الدرس، والأسس المنهجية التى يقوم عليها^(٢). وقد طبعت أجزاء مختصرة من هذه المحاضرات سنة ١٩٧٥ فى بحث له يحمل عنوان: المنطق والحوار Logic and Conversation، ثم وسع فى بحثين له نشر سنة ١٩٧٨، وسنة ١٩٨١ ما قدمه فى عمله المبكر، لكن الرجل لم يطور أفكاره تطويراً كاملاً، ولم يحكم عرضها فجاء عمله قليل التماسك كثير الفجوات، مشكلاً فى بعض جوانبه، وغير مفهوم أصلاً فى بعض آخر، ومن عجب أن يصبح عمل كهذا واحداً من أهم النظريات فى البحث التداولي، وأكثرها تأثيراً فى تطوره^(٣).

لقد كانت نقطة البدء عند جريس هى أن الناس فى حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما

(١) Levinson, S.C. (1983), P. 97, 100

- Brown, G. & Yule, G. (1998): Discourse analysis. Cambridge University Press. P. 33.

(٢) Thomas, J. (1996). P. 56.

(٣) Ibid, P. 56.

Levinson, S.C. (1983), P.100

يقولون، فجعل كل همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال what is said وما يقصد what is meant، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمتها اللفظية face values وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر اعتماداً على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، فلماذا أن يقيم معبراً بين ما يحمله القول من معنى صريح explicit meaning وما يحمله من معنى متضمن inexplicit meaning فنشأت عنده فكرة الاستلزام implicature^(١).

وقد نظر جريس فرأى أن الاستلزام نوعان: استلزام عرفي conventional implicature واستلزام حوارى conversational implicature، فلما الاستلزام العرفي قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تتفك عنها مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب. ومن ذلك مثلاً في الإنجليزية but ونظيرتها في اللغة العربية لكن فهي هنا وهناك تستلزم دائماً أن يكون ما بعدها مخالفاً لما يتوقعه السامع مثل: My friend is poor, but honest، ومثل زيد غني لكنّه بخيل. وأما الاستلزام الحوارى فهو متغير دائماً بتغير السياقات التي يرد فيها^(٢).

لقد كان ما يشغل جريس هو كيف يكون ممكناً أن يقول المتكلم شيئاً ويعنى شيئاً آخر؟ ثم كيف يكون ممكناً أيضاً أن يسمع المخاطب شيئاً ويفهم شيئاً آخر؟ وقد وجد حلاً لهذا الإشكال فيما أسماه مبدأ التعاون co-operative

Thomas, J. (1996) P. 55 f. (١)

- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 179.

Ibid, P. 183 (٢)

- Brown, G. & Yule, G. (1998). P. 31.

- Thomas, J. (1996). P. 57.

principle بين المتكلم والمخاطب وهو مبدأ حوارى عام يشتمل على أربعة مبادئ maxims فرعية هي^(١):

١ - مبدأ الكَم Quantity:

اجعل إسهامك فى الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه.

٢ - مبدأ الكيف Quality:

لا نقل ما نعتقد أنه غير صحيح، ولا نقل ما ليس عندك دليل عليه.

٣ - مبدأ المناسبة relevance:

اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

٤ - مبدأ الطريقة manner:

كن واضحاً ومحدداً؛ فتجنب الغموض obscurity، وتجنب اللبس ambiguity، وأوجز، ورتب كلامك.

هذه هي المبادئ التى يتحقق بها التعاون بين المتكلم والمخاطب وصولاً إلى حوار مثمر. وينبغى هنا التفت إلى أمرين:

(١) Lyons, J. (1996): Linguistic Semantics. An Introduction. Cambridge University Press. P. 277 ff.

- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P 180 ff.

وانظر أيضاً:

روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء. ترجمة تمام حسان. عالم الكتب

١٩٩٨ ص ٤٩٥ فما بعدها.

أحدهما: أن بعض الباحثين رأى في مبدأ التعاون تعبيراً عن فردوس الفلاسفة philosophers' paradise الذي لا يمت إلى الواقع بصلة فهو يرى الناس جميعاً متعاونين، صانقين، مخلصين، واضحين، وليس من الممكن ولا المشاهد أن يتحدث الناس على هذا النحو كل حين، بل إن أغلب أنواع الحوار الذي يدور بين البشر يخالف هذا المبدأ. ولحق أن الرجل لم يقصد بمبدأ التعاون الحوارى ما عجل هؤلاء إلى فهمه، بل كان يقصد أن الحوار بين البشر يجرى على ضوابط وتحكمه قواعد يدركها كل من المخاطب والمتكلم^(١)، ولكي نوضح ذلك نسوق الحوار الآتى بين زوج (أ) وزوجة (ب):

أ - أين مفاتيح السيارة ؟

ب - على المائدة.

وظاهر أن مبدأ التعاون والمبادئ الحوارية التي يتفرع إليها متحققة كلها في هذه المحاوراة القصيرة، لقد أجابت الزوجة إجابة واضحة (الطريقة)، وكانت صادقة (الكيف) واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون تزيُّد (لكم) وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها (المناسبة)، ولذلك لم يتولد عن قولها أى استلزام، لأنها قالت ما تقصد^(٢).

الثانى: أن الرجل لم يرغب عنه أى هذه المبادئ التي يجرى عليها الحوار كثيراً ما تنتهك بل إن النظرية كلها قائمة على ذلك، فانتهاك مبادئ الحوار flouting of maxims هو الذى يؤد الاستلزام، مع ملحظ شديد الأهمية

Levinson, S.C. (1983), P. 102.

(١)

- Thomas, J. (1996). P. 62.

Thomas, J. (1996). P. 64.

(٢)

هو الإخلاص لمبدأ التعاون بمعنى أن يكون المتكلم حريصاً على إبلاغ المخاطب معنى بعينه، وأن يبذل المخاطب الجهد الواجب للوصول إلى المعنى الذي يريده المتكلم، وألا يريد أحدهما خداع الآخر أو تضليله^(١).

وعلى ذلك إذا انتهك المتكلم مبدأ من مبادئ الحوار أترك المخاطب اليقظ ذلك وسعى إلى الوصول إلى هدف المتكلم من هذا الانتهاك. ولنضرب الآن أمثلة توضح ذلك:

١- في حوار يجرى بين أم (أ) وولدها (ب).

أ - هل اغتسلت ووضعت ثيابك في الغسالة ؟

ب - اغتسلت.

في هذا الحوار خرق أو انتهك لمبدأ لكم لأن الأم سألته عن أمرين فأجاب عن واحد وسكت عن الثاني، أى أن إجابته أقل من المطلوب. ويستلزم هذا أن تفهم الأم أنه لم يضع ثيابه في الغسالة، وأنه لم يرد أن يجيب بنعم حتى لا تشمل الإجابة شيئاً لم يقم به، ولم يرد أن يوجهها بتقاعسه عن وضع ثيابه في الغسالة^(٢).

٢- في حوار بين تلميذ (أ) وأستاذ (ب)، وكلاهما إنجليزي:

أ - طهران في تركيا، أليس هذا صحيحاً يا أستاذ ؟

ب - طبعاً، ولندن في أمريكا !

في هذا الحوار انتهك الأستاذ مبدأ الكيف الذي يقتضى ألا يقول إلا ما

Brown, G. & Yule, G. (1998). P. 32.

(١)

Lyons, J. (1996). P. 278.

(٢)

يعتقد صوابه، وألا يقول ما لا دليل عليه^(١). وقد انتهكه الأستاذ عمداً ليظهر للتميذ أن إجابته غير صحيحة، ويؤنبه على جهله بشئ كهذا، والتميذ قاصر على الوصول إلى مراد الأستاذ؛ لأنه يعلم أن لندن ليست في أمريكا، وذلك يستلزم أن الأستاذ يقصد بقوله شيئاً غير ما نقوله كلماته، وهو أن قول التلميذ غير صحيح.

٣- في حوار بين رجلين:

أ - أين زيد ؟

ب - ثمة سيارة صفراء تقف أمام منزل عمرو.

وما قاله (ب) بمعناه الحرفي ليس إجابة عن السؤال، فهو ينتهك مبدأ المناسبة، ولكن السامع في ضوء المبادئ الأخرى للتعاون يسأل نفسه ما هي العلاقة الممكنة بين وقوف سيارة صفراء أمام منزل عمرو وسؤاله عن مكان زيد، ثم يصل إلى أن المراد بهذا القول إبلاغه رسالة مؤداها أنه إذا كانت لزيد سيارة صفراء فلعله عند عمرو^(٢).

٤- في حوار بين رجلين:

أ - ماذا تريد ؟

ب - قم، واتجه إلى الباب، وضع المفتاح في القفل، ثم أدره ناحية اليسار ثلاث مرات، ثم انزع الباب برفق.

وواضح أن فيما قاله (ب) انتهكاً لمبدأ من مبادئ الطريقة manner

Levinson, S.C. (1983). P. 110.

(١)

Ibid, P. 102.

(٢)

وهو "أوجز" إذ كان يكفى أن يقال: افتح الباب^(١)، وإذا نظرنا إلى هذا القول في ضوء تحقق مبادئ الحوار الأخرى كان لابد أن المتكلم يحاول به وجهها غير ما يظهر، قد يكون مؤاخنته على ما يتميز به بين بده وتكامل.

على أن انتهاك مبادئ الحوار لا يقتصر على التعبير الحقيقي كما قدمنا، بل يشمل المجازي أيضاً^(٢)، وهو متحقق أيضاً في كل مفارقة irony يراد بها عكس ما يقال، أو غير ما يتوقع^(٣).

وللاستزمام الحواري عند جرایس خواص تميزه عن غيره من أنواع الاستزمام الأخرى، وقد استطاع أن يضع يده على الخواص الأكتية:

١- الاستزمام ممكن إغاذه defeasible، ويكون ذلك عادة بإضافة قول يسدّ الطريق أمام الاستزمام أو يحول دونه فإذا قالت قارئة لكاتب مثلاً: لم أقرأ كل كتابك، فقد يستلزم ذلك عنده أنها قرأت بعضها، فإذا أعقبت كلامها بقولها، الحق أنني لم أقرأ أى كتاب منها، فقد ألغت الاستزمام. وإمكان الإلغاء هذا هو أهم اختلاف بين المعنى الصريح والمعنى الضمني، وهو الذى يمكن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه^(٤).

٢- الاستزمام لا يقبل الانفصال non-detachable عن المحتوى للدلالي،

Ibid, P. 108. (١)

Lyons, J. (1996). P. 383 ff. (٢)

- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 182.

Atkinson, M. et al (1989). P. 217. (٣)

- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 182.

- Levinson, S. C. (1983). P. 109.

Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 184. (٤)

- Lyons, J. (1996). P. 286.

- Thomas, J. (1996). P. 82.

ويقصد جريش بذلك أن الاستلزام الحواري متصل بالمعنى الدلالي لما يقال لا بالصيغة اللغوية التي قيل بها، فلا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات بأخرى ترافقها. ولعل هذه الخاصية هي التي تميز الاستلزام الحواري عن غيره من أنواع الاستدلال التداولي مثل الافتراض السابق presupposition ولعل ما أُرِدُ بتوضيح من الحوار الآتي بين أختين:

أ - لا أريدك أن تتسلى إلى غرفتي على هذا النحو.

ب - أنا لا أتصل، ولكن أمشي على أطراف أصابعي خشية أن أحدث ضوضاء.

فعلی الرغم من تغير الصياغة في قول (ب) فإن ما يستلزمه القول من عدم الرضا عن هذا السلوك لا يزال قائماً^(١).

٣- الاستلزام متغير، والمقصود بالتغير أو التعبير الواحد يمكن أن يؤدي إلى استلزمات مختلفة في سياقات مختلفة، فإذا سألت طفلاً يحتفل بيوم ميلاده مثلاً: كم عمرك، فهو طلب للعلم، وإذا سألت السؤال نفسه لصبي عمره خمسة عشر عاماً فقد يستلزم السؤال مؤخذة له على نوع من السلوك لا ترضاه له، وإذا سألت السؤال نفسه لفتى يمنع من اتخاذ قرار لا يخرج عن تعاليم الدين ومواضعات الأخلاق والأعراف فقد يعني ذلك أنه من اللطيف بحيث يستطيع أن يتخذ قراره ويتحمل عواقبه.

ومثل ذلك أن يقول رجل سرق متاعه يوم العيد: تلك أفضل هدية، ومن الممكن أن يقول هذه العبارة نفسها رجل تلقى رسالة من صديق قديم

Lyons, J. (1996). P. 289.

- Levinson, S.C. (1983). P. 116.

(١)

يوم العيد أو طالب بشر بنجاحه... الخ^(١).

٤ - الاستزام يمكن تقديره calculability والمراد به أن المخاطب يقوم بخطوات محسوبة يتجه بها خطوة خطوة إلى الوصول إلى ما يستلزمه الكلام^(٢) فإذا قيل مثلا: الملكة فكتوريا صنعت من حديد، فإن القرينة تبعد السامع عن قبول المعنى اللفظي، فيبحث عما وراء الكلام من معنى فيقول لنفسه: المتكلم يريد أن يلقي إلى خيرا بذليل أنه نكر لى جملة خبرية، والمفروض في هذا المتكلم أنه ملتزم بمبدأ التعاون أى أنه لا يريد بى خداعا ولا تضليلا، فماذا يريد أن يقول ؟ لابد أنه يريد أن يخلع على الملكة بعض صفات الحديد كالصلابة، والمتانة وقوة التحمل، وهو يعرف أننى أستطيع أن أفهم المعنى غير الحرفى non-literal؛ فلجأ إلى هذا التعبير الاستعارى^(٣).

هذا هو الاستزام الحوارى عند جرابس الذى يمثل نظرية متكاملة حاول الباحثون إيضاحها بأسئلة كثيرة مما قدمت، كما حاولوا تطويرها واستكمال جوانب للنقص والتصوير فيها، وهى قريبة جدا مما ورد فى التراث اللغوى العربى عند البلاغيين وعلماء أصول الفقه، وقد استطاع أحمد المتوكل أن يقدم دراسة حاول بها أن يستكشف المعالم الرئيسية للوصف العربى القديم لهذه الظاهرة معتمدا على ما قدمه السكاكى فى مفتاحه لأنه وجد تناوله يتجاوز الملاحظة المجردة إلى التحليل الملائم للظاهرة، الذى يضبط علاقة

Thomas, J. (1996). P. 80 f. (١)

- Levinson, S.C. (1983) P. 117 f.

Thomas, J. (1996). P. 82. (٢)

Levinson, S.C. (1983). P. 110. (٣)

المعنى الصريح بالمعنى المستلزم مقامياً، ويصف آلية الانتقال من الأول إلى الثاني بوضع قواعد استدلالية واضحة^(١).

رابعاً: الأفعال الكلامية *speech acts*:

تستلزم نظرية الأفعال الكلامية باهتمام الباحثين في جوانب النظرية العلمية لاستعمال اللغة، فعلماء النفس يرون اكتسابها شرطاً أساسياً لاكتساب اللغة كلها، ونقاد الأدب يرون فيها إضاعة لما تحمله النصوص من فروق دقيقة في استعمال اللغة وما تحثه من تأثير في المتلقي، والأنثروبولوجيون يأملون أن يجدوا فيها تفسيراً للطقوس والرقى الساحرية، والفلاسفة يرون فيها مجالاً خصياً لدراسة علاقة اللغة بالعالم، واللغويون يجدون فيها حلوياً لكثير من مشكلات الدلالة والتركييب، وتعليم اللغة للثانية، أما في الدرس التداولي فإن الأفعال الكلامية تظل واحداً من أهم المجالات فيه، إن لم يكن أهمها جميعاً^(٢)، بل إن التداولية في نشأتها الأولى كانت مرافقة للأفعال الكلامية^(٣)، فليس بغريب إذن أن يعدّ جون أومتن J. Austin أباً للتداولية^(٤).

ولم يكن أومتن لغوياً، بل كان فيلسوفاً من فلاسفة اللغة العالمة ordinary language في أصفورد في العقدين الرابع والخامس من القرن

(١) عنوان البحث هو: "افتراحت من الفكر اللغوي العربي القديم لوصف ظاهرة الاستلزام الحواري". وقد نشر أولاً في: البحث اللساني والسميائي. منشورات كلية الآداب - الرباط سنة ١٩٨٤ ثم أعيد نشره في كتاب له بعنوان: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي. دار الثقافة - الدار البيضاء (١٩٨٦) ص ٩٣ - ١٠٣.

(٢) Levinson, S.C. (1983). P. 226.

(٣) Bussmann, H. (1996). Dictionary of Language and Linguistics. Translated and edited by Trauth G.P. and Kazzazi, K. Routledge. London & New York. P. 374.

(٤) Thomas, J. (1996) P. 28.

العشرين^(١)، وكان بعض الفلاسفة في كمبردج ومن أهمهم رسل وفتجنشتاين يسعون لإيجاد لغة مثالية تتجنب كل عيوب اللغة العادية، فتكون أكثر ملاءمة للفكر الفلسفي^(٢)، لكن رسل وفتجنشتاين كليهما عدلا بعد نحو عشرين سنة عن ذلك، واتجه فتجنشتاين إلى دراسة اللغة العادية^(٣).

وكان من أهم ما رآه فتجنشتاين أن وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، لكن اللغة وظائف عديدة كالأمر والاستفهام والتمنّى والشكر، والتهنئة واللعن والقسم والتحذير... الخ. وليست اللغة عنده حسانًا منطقيًا نقيًا، لكل كلمة فيها معنى محدد، ولكل جملة معنى ثابت بحيث لا تنتقل من جملة إلى ما يلزم عنها من جمل مراعيًا قواعد الاستدلال المنطقي بل للكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخدامنا لها في الحياة اليومية، وتتعدد معاني الجمل بحسب السياقات التي ترد فيها^(٤)، فالمعنى عنده هو الاستعمال^(٥) meaning is use.

وقد كان ما ذكره فتجنشتاين بالغ الأثر في أوستن فتصدى للرد على فلاسفة الوضعية المنطقية logical positivism في محاضراته التي ألقاها في أكسفورد ما بين سنتي ١٩٥٢ و١٩٥٤، وفي محاضرات دعى لإلقائها في هارفرد سنة ١٩٥٥، وقد جمع إرمسون J.O.Urmson محاضرات أوستن التي ألقاها في هارفرد وعدتها اثنتا عشرة في كتاب نشر بعد وفاة أوستن

-
- (١) Ibid, P. 28.
(٢) محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٥ ص ٢٩
فما بعدها.
(٣) السابق ص ٤٦.
(٤) السابق نفسه ص ٥٦ فما بعدها.
(٥) Levinson, S.C. (1983) P. 227.

How to do Things with Words

وكان فلاسفة الوضعية المنطقية يرون اللغة وسيلة لوصف الواقع الموجودة في العالم الخارجى بعبارة إخبارية ثم يكون الحكم بعد ذلك على هذه العبارات بالصدق إن طبقت الواقع وبالكذب إن لم تطبقه، فإذا لم تطابق العبارة واقعاً فليس من الممكن الحكم عليها بصدق أو كذب، وهى من ثم لا معنى لها، ومثال ذلك أن يقال الآن: "ملك فرنسا أصلح" فهذه العبارة لا تطابق الواقع، ولا يمكن الحكم عليها بصدق أو كذب، فلا معنى لها. وهم بذلك يخرجون من اللغة معظم أنواع الخطب الأدبى والدينى والأخلاقى فهى بمعيارهم لا معنى لها^(٢).

لقد فكر أوستن أن تقتصر وظيفة اللغة على وصف وقائع العالم state of affairs وصفاً يكون إما صائفاً وإما كاذباً وأطلق عليه المغالطة الوصفية descriptive fallacy، ورأى أن هناك نوعاً آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية فى تركيبها لكنه لا يصف وقائع العالم ولا يوصف بصدق ولا كذب، كأن يقول رجل مسلم لامرأته: أنت طالق، أو يقول: أوصى بنصف مالى لمرضى السرطان أو يقول وقد بشر بمولود: سميتة يحيى، فهذه العبارات وأمثالها لا تصف شيئاً من وقائع العالم الخارجى، ولا توصف بصدق أو كذب، بل إنك إذا نطقت بواحدة منها أو مثلها لا تنشئ قولاً (to make statement) بل تؤدى فعلاً (perform action) فهى أفعال كلام،

Ibid, P. 227.

Thomas, J. (1996) P. 29 f.

- Levinson, S.C. (1983) P. 227.

(١)

(٢)

لو هي أفعال كلامية^(١).

ولعل أوجز الآن ما قدمه أوستن لنظرية الأفعال الكلامية فيما يأتي:

لأولاً: ميز أوستن بين نوعين من الأفعال^(٢):

أ - أفعال إخبارية *constative*، وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.

ب - أفعال أدائية *performative*، تتجز بها في ظروف ملائمة لفعال أو تؤدي، ولا توصف بصديق ولا كذّاب، بل تكون موفقة *happy* كما أطلق عليها أو غير موفقة *unhappy*، ويدخل فيها التسمية، والوصية، والاعتذار والرهن، والنصح، والوعد.

ولا تكون الأفعال الأدائية موفقة عنده إلا إذا تحققت لها شروط الملاءمة *felicity conditions*، فإذا لم تتحقق كان ذلك إيذاناً بإخفاق *misfire* الأداء، وشروط قياسية *regulative*، وهي ليست لازمة لأداء الفعل؛ بل لأدائه أداءً موفقاً غير معيب، فإذا لم تتحقق كان في ذلك إساءة *abuse* أداء للفعل^(٣).

(١) Thomas, J. (1996) P. 31.

- محمود أحمد نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية في: مجلة الدراسات اللغوية. الرياض م ١ ع ١ أبريل - يونيو ١٩٩٩ ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.175.

- Verschueren, J. (1999) P.22.

(٣) Geis, M.L. (1997): *Speech act and Conversational Interaction*. Cambridge University Press. P.4.

- Levinson, S.C. (1983) P.230.

- صلاح إسماعيل عبد الحق: لتحليل اللغوي عند مدرسة أكمفورد. دار التصوير، بيروت ١٩٩٢ ص ١٤٢.

فلما الشروط التكوينية فهي^(١):

- ١- وجود إجراء عرفي conventional procedure مقبول، وله أثر عرفي معين كالزواج مثلاً أو الطلاق.
 - ٢- أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة ينطق بها أناس معينون في ظروف معينة.
 - ٣- أن يكون للناس مؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء.
 - ٤- أن يكون التنفيذ صحيحاً.
 - ٥- أن يكون التنفيذ كاملاً.
- وأما الشروط القياسية فهي:

- ١- أن يكون المشارك في الإجراء صادقاً في أفكاره.
- ٢- أن يكون المشارك في الإجراء صادقاً في مشاعره.
- ٣- أن يكون المشارك صادقاً في نواياه.
- ٤- أن يلتزم بما يلزم نفسه به.

ثانياً: حين تبين لأوستن أن تمييزه بين الأفعال الإخبارية والأدائية غير حاسم وأن كثيراً مما تنطبق عليه شروط الأفعال الأدائية ليس منها، وأن كثيراً من الأفعال الإخبارية تقوم بوظيفة الأدائية رجع عوداً على بدءه إلى السؤال: كيف ننجز فعلاً حين ننطق قولاً؟^(٢).

وفي سعيه للإجابة عن هذا السؤال مرة أخرى رأى أن الفعل الكلامي

(١) صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ١٤٢ - ١٤٣.
- Levinson, S.C. (1983). P.229.

(٢) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٦٧.

مركب من ثلاثة أفعال، تعدّ جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل أحدهما عن الآخر إلا لغرض التدريس وهي^(١):

١- الفعل اللفظي locutionary act:

وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

٢- الفعل الإنجازي illocutionary act:

وهو ما يؤديه للفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي.

٣- الفعل التائيري perlocutionary act:

ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع.

وقد فطن أوستن إلى أن الفعل اللفظي لا ينعقد الكلام إلا به، والفعل التائيري لا يلزم الأفعال جميعاً فمنها ما لا تأثير له في السامع، فوجه اهتمامه إلى الفعل الإنجازي حتى عدا لباً هذه النظرية فأصبحت تعرف به أيضاً، فتسمى أحياناً النظرية الإنجازية^(٢).

ثالثاً: قدم أوستن تصنيفاً للأفعال الكلامية على أساس من قوتها الإنجازية illocutionary force ويشتمل على خمسة أصناف، ولم يتكرر في

Thomas, J. (1996) P.49.

(١)

- Helbig, G. Entwicklung der Sprachwissenschaft Seit 1970: Opladen 1990. S. 186.

- Levinson, S.C. (1983). P.236.

(٢) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٦٧.

القول بأنه غير راضٍ عن هذا التصنيف^(١):

- ١- أفعال الأحكام verdictives: وهي التي تتمثل في حكم يصدره قاضي أو حكم.
- ٢- أفعال القرارات exercitive: وتتمثل في اتخاذ قرار بعينه كالإذن أو الطرد، أو الحرمان، أو التعيين.
- ٣- أفعال التعهد commissive: وتتمثل في تعهد المتكلم بفعل شيء، مثل الوعد، أو الضمان، أو التعاهد أو القسم.
- ٤- أفعال السلوك behabitives: وهي التي تكون رد فعل لحدث ما كالاعتذار، أو الشكر، أو المواساة، أو التحدى.
- ٥- أفعال الإيضاح expositives: وتستخدم لإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأي مثل الاعتراض، أو التشكيك، أو الإنكار، أو الموافقة، أو التصويب، أو التخطئة.

على أن ما قدمه أوستن لم يكن كافيًا لوضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، لكنه كان كافيًا ليكون نقطة انطلاق إليها بتحديد عدد من المفاهيم الأساسية فيها، وبخاصة مفهوم الفعل الإنجازي الذي أصبح مفهومًا محوريًا في هذه النظرية، حتى جاء جون سيرل فأحكم وضع الأسس المنهجية التي تقوم عليها، وكان ما قدمه عن الفعل الإنجازي illocutionary act والقوة الإنجازية illocutionary force كافيًا لجعل الباحثين يتحدثون عن نظرية سيرل في الأفعال الكلامية^(٢) بوصفها مرحلة أساسية تالية لمرحلة الانطلاق

(١) صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ٢٢٢ فما بعدها.

عند لوستن^(١).

ويمكننا أن نوجز القول في أهم ما جاء به سيرل على النحو الآتي:

١- نص سيرل على أن الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى minimal unit للاتصال اللغوي، وأن للقوة الإنجازية دليلاً يسمى دليل القوة الإنجازية illocutionary force indicator يبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بنطقه للجملة، ويتمثل في اللغة الإنجليزية في نظام الجملة word-order والذير stress، والتنغيم intonation، وعلامات الترقيم punctuations في اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل mood، وما يسمى الأفعال الأدائية performatives^(٢).

٢- الفعل الكلامي عنده أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط أيضاً بالعرف اللغوي والاجتماعي، ولخص ذلك في عبارة مأثورة هي^(٣):

Meaning is more than a matter of intention, it is also a matter of convention.

٣- طور سيرل شروط الملاممة عند لوستن فجعلها أربعة، وطبقها تطبيقاً محكماً على كثير من الأفعال الإنجازية، وهذه الشروط هي^(٤):

١- شرط المحتوى القضوي propositional content: وهو يتحقق بأن يكون للكلام معنى قضوي (نسبة إلى القضية proposition التي

Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.177. (١)

محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٧١ وما بعدها. (٢)

Verschueren, J. (1999). P.23. (٣)

- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.177.

Verschueren, J. (1999). P.23. (٤)

- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.177.

تقوم على متحدث عنه أو مرجع reference، ومتحدث به أو خبير predication والمحتوى القضوي هو المعنى الأصلي للقضية، ويتحقق شرط المحتوى القضوي في فعل الوعد مثلاً إذا كان دالاً على حدث في المستقبل يلزم به المتكلم نفسه.

٢- الشرط التمهيدي preparatory: ويتحقق إذا كان المتكلم قادراً على إنجاز الفعل، لكن لا يكون من الواضح عند كل من المتكلم والمخاطب أن الفعل المطلوب سينجز في المجرى المعتاد للأحداث أو لن ينجز.

٣- شرط الإخلاص sincerity: ويتحقق حين يكون المتكلم مخلصاً في أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع.

٤- الشرط الأساسي essential: ويتحقق حين يحاول المتكلم التأثير في السامع لينجز الفعل.

وقد قم سيرل اللليل على أن من الممكن بهذه الشروط الأربعة التمييز الميسور بين الأفعال الكلامية المختلفة، خذ مثلاً تطبيق هذه الشروط على فعل الالتماس^(١):

١- المحتوى القضوي: فعل مستقبلي موجه إلى سامع.

٢- الشرط التمهيدي:

أ - المستمع قادر على أن يؤدي الفعل.

Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.178.

(١)

ب - ليس من الواضح لكل من المتكلم والسامع أن الفعل سوف ينجز في ظروف طبيعية أو أن ينجز.

٣- شرط الإخلاص: المتكلم يريد حقاً أن يؤدي السامع الفعل.

٤- الشرط الأساسي: ثمة محاولة لحث السامع على أداء الفعل.

رابعاً: قدم سيرل تصنيفاً بديلاً لما قدمه أوستن من تصنيف للأفعال

الكلامية يقوم على ثلاثة أسس منهجية هي:

١- الغرض الإنجازي illocutionary point.

٢- اتجاه المطابقة direction of fit.

٣- شرط الإخلاص sincerity condition.

وقد جعلها خمسة أصناف أيضاً^(١):

١- الإخباريات assertives:

والغرض الإنجازي فيها هو وصف المتكلم واقعة معينة من خلال

قضية proposition، وأفعال هذا الصنف كلها تحتل الصدق والكذب واتجاه

المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم words-to-world وشرط الإخلاص فيها

يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها.

٢- التوجيهيات directives:

وغرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء

معين. واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات world-to-words وشرط

Verschueren, J. (1996). P.24.

(١)

- محمود أحمد نحة (١٩٩٩) ص ١٧٧ لما بعدها.

الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة، ويدخل في هذا الصنف الأمر، والنصح، والاستعطاف والتشجيع.

٣- الالتزاميات commissives:

وغرضها الإنجازى هو التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل. واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات. وشرط الإخلاص هو القصد intention. ويدخل فيها الوعد، والوصية.

٤- التعبيرات expressives:

وغرضها الإنجازى هو التعبير عن الموقف النفسى تعبيراً يتوافر فيه شرط الإخلاص وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات مطابقة للعالم ولا العالم مطابقاً للكلمات، ويدخل فيها الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والمواساة.

٥- الإعلانيات declaratives:

والسمة المميزة لها أن أداءها الناجح يتمثل فى مطابقة محتواها القضى للعالم الخارجى، فإذا أُديت فعل إعلان الحرب أداءً ناجحاً فالجواب معلنة، وثمة سمة أخرى مميزة هي أنها تحدث تغييراً فى الوضع القائم فضلاً عن أنها تقتضى عرفاً غير لغوي، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا تحتاج إلى شرط لإخلاص.

خامساً: استطاع سيرل أن يميز بين الأفعال الإنجازية المباشرة direct والأفعال الإنجازية غير المباشرة indirect، فبين أن الأفعال الإنجازية المباشرة هي التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم أى يكون ما يقوله مطابقاً لما يعنيه أما الأفعال الإنجازية غير المباشرة فهي التي تخالف فيها

قوتها الإنجازية مراد المتكلم، وقد ذكر سيرل المثال الآتى بيانياً للأفعال الإنجازية غير المباشرة: إذا قال رجل لرفيق له على المقعدة: هل تتناولني الملح فهذا فعل إنجازى غير مباشر، إذ قوته الإنجازية الأصلية تدل على الاستفهام الذى يحتاج إلى جواب، وهو مصدر بدليل الاستفهام "هل". لكن الاستفهام غير مراد للمتكلم، بل هو طلب مهذب يؤدي معنى فعل إنجازى مباشر هو: تناولني الملح^(١).

والأفعال الإنجازية غير المباشرة عند سيرل لا تدل هيتها التركيبية على زيادة فى المعنى الإنجازى الحرفي، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم، وقد لفت إلى أن السامع يصل إلى مراد المتكلم بما أشرنا إليه من مبدأ التعاون للحوارى عند جرايس^(٢)، وبما أسماه سيرل استراتيجية الاستنتاج inference strategy^(٣).

وقد لاحظ سيرل بعد مناقشته لعدد كبير من الأفعال الإنجازية غير المباشرة أن أهم البواعث إلى استخدام الأفعال غير المباشرة هو التلؤب فى الحديث^(٤) كما لاحظ بعض الباحثين أن كل الأفعال الكلامية أفعال غير مباشرة فيما عدا الأفعال الأدائية الصريحة^(٥)، فنحن نتواصل بها أكثر من توصلنا بغيرها.

(١) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.191f.
 - Lyons, J. (1996). P.252.
 - Thomas, J. (1996). P.93 f.

- محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٧٩.

(٢) انظر ص ٣٣ من هذا الكتاب، فما بعدها.

(٣) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٨١.

(٤) السابق نفسه.

(٥) Thomas, J. (1996). P.94.

وبعد، فلعلى أشير في الختام إلى ما يأتي:

- ١- لعله قد ظهر مما قدمت ما للاتجاه التداولي من أهمية بالغة في الدرس اللغوي المعاصر، فعلى الرغم من اتساع جوانب الدرس فيه وتعدد الموضوعات التي لا يجمع بينها غير ظواهر الاستعمال فهو يقدم لونا من الدرس للغة في تجلياتها الحية لا يمكن إغفاله أو الإغضاء عنه. ويبدو ذلك جليا في الأخطاء التداولية التي قد تجلب على المرء من المزعجات والمخاطر ما لا قبل له به.
- ٢- كان لفلسفة اللغة الطبيعية أثر غير منكور في نشأة هذا الاتجاه وتطويره، وبخاصة فلاسفة اللغة الطبيعية في أكمفورد: أوستن، وجرايس، وسيرل.
- ٣- تعددت تعريفات التداولية، وكان لهذا التعدد أثره في ترجمة المصطلح إلى اللغة العربية؛ فقد ترجم إلى الزرائعية، والمقصدية، والمقامية، والتداولية، والتداولية أكثرها شيوعا، وأقربها إلى طبيعة البحث فيها إذ هو منظور فيه إلى تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب الذي يدل على التفاعل الحي بينهما في استعمال اللغة.
- ٤- ظهر مما عرضت أن للتداولية صلة وتقى بعدد من العلوم التي لها عناية بالاستعمال اللغوي كعلم الدلالة، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وتحليل الخطاب. وأشدها التباينا بها علم الدلالة؛ لأن الباحثين لم يلتزموا الحدود التي رسمها بعض الباحثين بينهما، فجعل علم الدلالة علاقة بين العلامات اللغوية والعالم، والتداولية علاقة بين العلامات اللغوية ومفريها، لكن كثيرا من علماء الدلالة لا يترجون

من الخوض في المسائل التداولية وهم يتحدثون عن مشكلات للدلالة، بل إن منهم من يرى أن التداولية ليست علمًا مستقلًا، بل ينبغي أن تتصوى تحت علم الدلالة.

٥- البحث في التداولية محكوم بأعراف لغوية واجتماعية، وهو معنى بكيفية وصول السامع إلى مراد المتكلم، وما يقدمه المتكلم من وسائل لغوية في سياق اجتماعي وثقافي معين ليساعد السامع على الوصول إلى مراده، وهذه كلها أمور تتكفي على الضبط المنهجي، وعلى الرغم من ذلك فقد حاول الباحثون أن يقدموا كثيرًا من الضوابط والأسس المنهجية التي تحكم الاستعمال اللغوي.

٦- لعله قد ظهر أيضاً أن دراسة اللغة دراسة شكلية معزولة عن السياق الاجتماعي والثقافي لا يزال أمراً منفصلاً، لا يكتمل إلا بوضع هذه الدراسة الشكلية على محك الاستعمال، فهو وحده القادر على أن يسدها، ويمنحها كثيراً من الحيوية، والانطلاق، والقبول. على أن دراسة الاستعمال اللغوي لا تتم على وجهها الصحيح بمعزل عن الدراسة الشكلية للجوانب اللغوية، فالجانبان إنن متكاملان في دراسة الظاهرة اللغوية، ولا يجوز أن نستغنى بأحدهما عن الآخر، أو نعلى من شأن أحدهما على حساب الآخر.

نحو نظرية عربية

للأفعال الكلامية

(١)

المتبوع للنظريات اللسانية المعاصرة يراها تتجه اتجاهين^(١):

أحدهما يعني بدراسة النظام اللغوي وعلاقة عناصره بعضها ببعض دراسة شكلية معزولة عن السياق الاجتماعي والثقافي الذي تستخدم اللغة فيه. ويتميز هذا الاتجاه بعنايته بالشكل أكثر من عنايته بالمعنى، بل يُعَدُّ المعنى المقاسي خارج نطاق اهتمامه، وهو يُعنى بالتركيب أكثر من عنايته بالسياق الذي يستخدم فيه ويميل إلى معالجة الجمل المصنوعة artificial أكثر من ميله إلى معالجة اللغة في تجلياتها الحية، واللغة بذلك لا تدرس بوصفها خطاباً discourse بل بوصفها نصاً مجرداً abstract text وأبرز نظريات هذا الاتجاه البنوية أو البنائية إن شئت Structuralism، والنحو التحويلي التوليدي Transformational Generative Grammar، ونحو التعلق أو التبعية Dependency Grammar.

والإتجاه الثاني يعني بدراسة الاستخدام اللغوي والضيوابط التي تحكمه، ودور المقام أو السياق غير اللغوي في التواصل الإنساني، ويتميز هذا الإتجاه بعنايته بكل من المتكلم والسامع والعلاقة بينهما، وما يرافق الكلام من حركات الجسم وتعبيرات الوجه، ومن يشركون في الإتصال اللغوي،

(١) انظر:

- Helbig, G.: Entwicklung der Sprachwissenschaft seit 1970., Westdeutscher Verlag Gmb H (Opladen 1990) S. 179.
- Green, K. And Lebhan, J.: Critical Theory & practice (London/ New York 1996) pp. 25 - 26.
- د. أحمد المتوكل: الوظائف التوليدية في اللغة العربية (الدار البيضاء ١٩٨٥)، ص ٨.
- وانظر كتابي: منخل إلى دراسة لجملة العربية (بيروت ١٩٨٨) ص ٢٧ فما بعدها.

وبينة الحدث المكاني والزمني، كما يهتم بقدرة السامع على الكشف عن مقاصد المتكلم واستجابته لها، وما يستلزمه التواصل من معانٍ مقامية لا تستطيع النظريات الشكلية الكشف عنها أو تحليلها. وأبرز نظريات هذا الاتجاه: اللسانيات الاجتماعية Sociolinguistics و اللسانيات النظامية Systemic Linguistics والنحو الوظيفي Functional Grammar والتداولية Pragmatics.

وعلى الرغم مما يبدو من اختلاف مجال البحث في كلا الاتجاهين وما يستتبعه ذلك من اختلاف مناهج البحث وإجراءات التحليل، وعلى الرغم من إيداء أنصار كل اتجاه عدم الرضا عما يقوم به أنصار الاتجاه الآخر^(١). فإن الاتجاهين في مدى النظر متكاملان في دراسة الظاهرة اللغوية؛ إذ ليس من الممكن دراسة الاستخدام اللغوي دون معرفة بالنظام، وليس من الممكن أن تظل دراسة النظام اللغوي معلقة في فراغ على الرغم مما قرره دي سومير من قبل وأخذ به أصحاب الاتجاه الشكلي، ولا يزالون، من أن اللغة تدرس في ذاتها، ومن أجل ذاتها^(٢) من أجل ذلك أخذت جهود عدد من الباحثين تتجه إلى التوفيق بينهما، وذلك بإحدى طريقتين: الأولى توسيع النظرية الشكلية لتشمل الجوانب الاتصالية والمقامية، والثانية إعادة النظر في النموذج النحوي نفسه لكي لا ينطلق من النظام، بل من الاستخدام^(٣).

(١) انظر مثلاً نقد سيرل لتشومسكي في:

Searle, J. R: Chomsky's Revolution in Linguistics. In: Harman (ed) On Noam Chomsky. Critical Essays (New York 1974) p. 16 ff.

ورد تشومسكي عليه في:

Chomsky, N.: Reflection on Language, (London 1976) p. 55 ff.

Saussure, F. de.: Course in General Linguistic (New York. 1959) p. 232. (٢)

Helbig, G.: Entwicklung der Sprachwissenschaft seit 1970. S. 181- 182. (٣)

تعد نظرية الفعل الكلامي Speech Act Theory (ويطلق عليها أيضًا نظرية الحدث الكلامي، ونظرية الحدث اللغوي، والنظرية الإنجازية) في نظر أغلب الباحثين جزءًا من اللسانيات التداولية Pragmatics، وبخاصة في مرحلتها الأساسيتين: مرحلة التأسيس عند أوستن J. L. Austin، ومرحلة النضج والضببط المنهجي عند تلميذه سيرل J.R. Searle وكلاهما من فلاسفة أكسفورد^(١). أما بعد هاتين المرحلتين فقد ناشتها بعض النظريات المعاصرة، وبخاصة اللسانيات التوليدية ولسانيات النص؛ إذ حاولت كل منهما أن تعدل فيها لتدخلها في إطارها العام، وتخضعها لطرائق التحليل فيها، ومن أبرز من قام بهذا في اللسانيات التوليدية كاتز، وفي لسانيات النص موتش، وفيغير^(٢).

وسوف نغنى بعرض هذه النظرية في مرحلتها الأساسيتين عند كل من أوستن وسيرل عرضًا موجزًا يكشف عن منطلقاتها التأسيسية، وأسماها المنهجية، وما قام به سيرل من تطوير لها وتعديل مفضلين ألا نخلط عمل أوستن بعمل سيرل وباجتهادنا الشخصي كما فعل ذلك بعض الباحثين^(٣)، بل

(١) Green, K. And Lebhan, J.: Critical Theory & Practice, p. 29.

- Levinson S.C.: Pragmatics. Cambridge University press 1983, p. 226.

(٢) Katz, J.J.: propositional Structure and Illocutionary force. A study of the contribution of Sentence Meaning to Speech Acts. The Harvester press 1977, p. 30 ff.

- Motsch, W. Viehweger, D.: Sprechhandlung, Satz und Text. In: Sprache und pragmatik. Lunder Symposium 1980. Hrsg. I. Rosengren. Lund 1981. S. 125 ff.

(٣) انظر مثلاً:

- Leech. G. N.: Principles of Pragmatics. Longman (London/ New York 1983) Chapter 9.

- Lyons, J.: Linguistic Semantics. An Introduction. Cambridge University press 1995. Chapter 8.

نذكر جهد كل منهما، ثم نحاول بعد ذلك - في إطار المناقشة والحوار مع الآخر - أن نحاور الأسس المنهجية لهذه النظرية بما في تراثنا من أسس منهجية مستقرة نتفق في كثير مع الأسس المنهجية لهذه النظرية سعياً إلى وضع نظرية عربية موازية لهذه النظرية يظل لها وجهها العربي، ولسماتها العربي أيضاً.

(٣)

بعد أوستن مؤسس هذه النظرية وواضع المصطلح الذي تعرف به الآن في الفلسفة وفي اللسانيات المعاصرة^(١)، وكان ذلك في المحاضرات التي ألقاها في جامعة أكسفورد في العقد الثالث من القرن العشرين، ثم في المحاضرات الاثنتي عشرة التي ألقاها في جامعة هارفرد سنة ١٩٥٥ ونشرت سنة ١٩٦٢ بعد موته في كتاب عنوانه:

(١) How to do Things with Words

وكان أوستن قد تأثر بما نبه إليه فتنجشتاين Wittgenstein من أن اللغة قد تستخدم لوصف العالم من حولنا بيد أن هناك حشداً من الاستعمالات الأخرى للغة لا تصف وقائع العالم، كالأمر، والاستفهام، والشكر واللعن، والتحية، والدعاء، وقد ثبتاً طويلاً بهذه الاستعمالات المختلفة للغة، وأطلق

Lyons, J. Linguistic Semantics. P. 236.

(١)

ويذكر ليونز أن مصطلح Speech Act ترجمة لـ: "Sprechact" الذي ورد عند بيولر Bühler سنة ١٩٣٤ وقد استخدمه اللغويون ولا يزالون يستخدمونه بين حين وآخر بمعناه الأقرب إلى الدلالة غير الاصطلاحية وهو حدث الكلام act of speech. انظر الحاشية رقم (٢) من المرجع السابق.

Ibid, 236.

(٢)

- Malmkjaer K.: The Linguistics Encyclopedia. (Speech - act theory) p. 416.

عليها ألعاب اللغة language games، وأسمى كل استعمال منها لعبة؛ لأن له قواعد يتفق عليها مستعملو اللغة كما يتفق اللاعبون على قواعد اللعبة. ورأى أن كل نوع من ألعاب اللغة محكوم بنوع مخصوص من السياق الاجتماعي ومحدد بأعراف اجتماعية معينة، من ثم فإن كل لعبة من ألعاب اللغة أو استخدام من استخداماتها يستحق اهتمامًا مساويًا لأي استخدام آخر، وأرسي مبدأً مثيراً للجدل عند الفلاسفة: «المعنى هو الاستعمال»^(١) Meaning is use من ثم تصدى لوستن للرد على فلاسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism الذين كانوا يرون اللغة أداة رمزية تشير إلى الوقائع الموجودة في العالم الخارجي، ولا عمل للغة يعتقد به عندهم إلا وصف هذه الوقائع بعبارات إخبارية، ثم يكون الحكم بعد ذلك على العبارة بالصنق أو الكذب إذا تطابقت الواقع أو لم تطابقه. أما العبارات غير الإخبارية فهي عندهم زائفة ولا معنى لها، وهم لا يعتقدون بها؛ لأنهم لا يجدون من وقائع العالم ما تطابقه أو يطابقها^(٢).

لقد أنكر لوستن أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارات الإخبارية هي 'وصف' حال الوقائع State of affairs وصفًا يكون إما صادقًا أو كاذبًا،

(١) Lyons, J.: Semantics, Cambridge University Press, 1977, Vol. 2, p. 727.
- Levinson, S.C.: Pragmatics, Cambridge University Press, p. 227.

ونظرو:

- صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ص ١١٧ وما بعدها.

- فؤاد كامل، جلاء العشري، عبد الرشيد صانق: الموسوعة الفلسفية المختصرة، راجعها وأشرف عليها: زكي نجيب محمود (القاهرة ١٩٦٣) من ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) Lyons, J.: Linguistic Semantics, p. 237.
- Levinson, S. C.: Pragmatics. P. 227.

وأطلق عليه "المغالطة الوصفية descriptive Fallacy"^(١). ومضى يثبت أن بجانب هذه العبارات الوصفية نوعاً آخر من العبارات قد يتشابه في التركيب مع العبارات الوصفية، لكنه لا يصف شيئاً في الواقع الخارجى، ولا يحتمل الصدق أو الكذب، فإذا بشرت بملود مثلاً وقيل لك سمّه، قلت: أسمىه يحيى، وإذا رأيت أن توصى ببعض مالك لجهة من جهات الخير فقلت: أوصى بنصف مالى للجمعيات الخيرية، أو إذا قال لك رجل والشهود حضور: زوجتك ابنتى، فقلت: قيات، فإن هذه العبارات ونحوها لا تصف شيئاً من وقائع العالم الخارجى، ولا تحتمل الصدق والكذب، بل إنك إذا نطقت بوحدة منها أو مثلها لا تلقى قولاً، بل تتجزأ فعلاً، فالقول هنا هو الفعل أو هو جزء منه؛ لأنك تتجزأ فعل التوصية بقولك "أوصى"، فالقول هنا ليس مجرد كلام، بل هو فعل كلام أو هو فعل كلامى^(٢).

وظاهر أن أوستن مَيَز في هذه المرحلة بين نوعين من الأفعال: أفعال إخبارية constative تخبر عن وقائع العالم الخارجى وتكون إما صادقة وإما كاذبة، وقد أثير أن يعدل عن تسميتها لأفعالاً وصفية descriptive، لأنه ليس كل ما يقبل الصدق والكذب وصفياً^(٣). وأخرى تتجزأ

Austin, J. L.: How to do Things with Words, Harvard University Press. (١)
(1992) p. 2 f.

ونظر:

- Lyons, J.: The Linguistic Semantics, p. 237.

Austin, J. L. (1962) p. 5 f.

(٢)

ونظر:

- Althaus, H. P., Henne, H., Wiegand, H. E.: (Hrsg.) Lexikon der Germanistischen Linguistik. Max Niemeyer Verlag Tübingen 1980 (24-Sprechacttheorie) S. 287.

Austin, J. L.: (1962) p. 3.

(٣)

بها في ظروف ملائمة لأفعال أو تؤدي، وقد أطلق عليها مصطلح الأفعال
الأدائية performative^(١).

وكن أهم ما ميز به الأفعال الأدائية عن الأفعال الإخبارية أن
الإخبارية لها خاصية أن تكون صائفة أو كاذبة على حين أن الأدائية ليس لها
هذه الخاصية، إذ هي تستخدم لإنجاز فعل كالتمسية، والاعتذار، والترحيب،
والنصح... إلخ، وهي من ثم لا توصف بصنق ولا كذب بل تكون موفقة أو
سعيدة happy كما أطلق عليها، إذا راعى المتكلم شروط أدائها، وكان أهلاً
لفعلها، وغير موفقة أو تعيسة unhappy إذا لم يراع المتكلم شروط أدائها. فلا
يحق لك مثلاً أن تقبل الزواج من هي زوجة لك فعلاً، ولا أن تسمى ابناً
لغيرك إلا إذا أن لك أبواه بذلك، ولا توصى بمال غيرك للجمعيات الخيرية،
ولا أن تعد بما لا تقدر عليه، فإن فعلت لم ينعد بكلامك فعل وصار لغواً من
اللغو. وقد تعد مثلاً وأنت قادر على إنجاز ما تعد لكك تضمر في نفسك أن
تخلف وعذك فلا يقع فعل الوعد: لأنك غير مخلص له، وقد تعاهد شخصاً
على شيء ثم تنقض عهدك، فلا يقع فعل العهد؛ لأنك لم توف به بل نقضته؛
فهذه ثلاثة أنواع من الفعل الأدائي غير الموفق أو التعيس ذكرها أوستين^(٢).

Ibid, p. 6.

(١)

وقد أفرد أوستن للتمييز بين الأفعال الأدائية والإخبارية بحثاً كتبه بالفرنسية، والقائه
فيما يبدو في مؤتمر أنجلو فرنسي سنة ١٩٥٨، ثم ترجمه من بعد وورنوك
Warnok إلى الإنجليزية، ونشره ميرل في كتاب بعنوان فلسفة اللغة صدرت
طبعته الأولى سنة ١٩٧١.

Searle, J. R: (ed): The philosophy of Language, Oxford University
press 1977, p. 13 ff.

Austin, J. L: Performative- constative. In: Searle, J. R. (ed) 1977 pp. 13 (٢)

- 14.

- Austin, J. L: (1962) p. 132.

لقد أطلق أوستين على الشروط التي تتحقق بها الأفعال الأدائية الصريحة شروط الملاعبة felicity conditions وحصرها في ثلاثة أنماط أساسية كل نمط منها يحتوى على شرطين، فهي إذن ستة شروط:
وذلك على النحو الآتي^(١):

أ - ١: وجود إجراء عرفي مقبول، وله أثر عرفي محدد كالزواج مثلاً وأن يشتمل هذا الإجراء على كلمات محددة ينطق بها أشخاص محددون في ظروف محددة. فإذا لم يوجد إجراء عرفي مقبول ذو أثر معلوم كالزواج في الأقاليم أو التمثيليات، أو إذا لم تنطق الكلمات على النحو الصحيح المفهوم الذي يتعد به الإجراء، أو إذا كان الشخص الذي يتولى الإجراء فاعداً الأهلية للقيام به، أو إذا كانت الظروف غير ملائمة فإن الفعل لا يؤدي.

٢: ينبغي أن يكون أولئك الأشخاص مناسبين لهذا الإجراء المحدد وأن تكون الظروف مناسبة أيضاً، فإذا طلب منك مثلاً أن تختار شخصاً ليساعد في بحث ميداني مثلاً، فاخترت شخصاً غير مناسب لهذه المهمة، فإن الفعل لم يؤدي.

ب - ١: ينبغي أن يؤدي هذا الإجراء جميع المشاركين فيه أداة صحيحة، بالبعد عن استعمال العبارات الغامضة أو الملبسة كأن تقول لرجل جاء ليشتري منك منزلاً محدداً من منازلك: أبيعك منزلاً بمليون، أو أبيعك أحدها بمليون.

Austin, J. L. (1962) p. 14 ff.

(١)

وانظر: صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ١٤٢ فما بعدها.

د. محمد العبد: الحدث اللغوي: مفهومه وأنواعه (القاهرة ١٩٩٦) ص ٨ فما بعدها.

٢: ينبغي أن يؤدي هذا الإجراء جميع المشاركين فيه أداءً كاملاً فإذا قال رجل لآخر: أبيعك منزلي بمليون ولم يقل الرجل قبيلت كسان الأداء ناقصاً.

ج- ١: ولما كان هذا الإجراء يؤديه أشخاص ذوو أفكار معينة ومشاعر فإن على المشارك فيه أن يكون لديه تلك الأفكار والمشاعر التي يتطلبها الإجراء، فإذا قلت لشخص: أهلك بهذه المناسبة السعيدة، وأنت في قرارة نفسك لا تشعر بذلك بل بتقيضه، أو إذا قلت لشخص أعذك بأن أساعدك وأنت تتوى ألا تساعده أو إذا قلت لرجل: أنصحك بكذا وأنت تقصد تضليله، فقد أسأت أداء الفعل.

٢: على المشارك في الإجراء أن يوجه نفسه إلى ما يستتبعه ذلك من سلوك ظاهر، فإذا قلت لشخص: أرحب بك ثم سلكت بعد ذلك معه سلوك غير المرحب فقد أسأت أداء الفعل.

ثم بين أوستن أن الفرق الكبير بين الشروط الأربعة الأولى التي تضمنتها أ، ب، والشروطين الأخيرين اللذين تضمنتهما (ج) يتمثل في أن الشروط الأربعة لازمة لأداء الفعل، فإذا لم يتحقق واحد منها فإن الفعل لا يؤدي، أما إذا لم يتحقق شرط من الشرطين الأخيرين، فإن الفعل يؤدي، لكنه يؤدي أداءً سيئاً^(١). وقد أطلق أوستن على الأفعال التي خالفت الشروط الأربعة مصطلح الإخفاقات "misfires"، وعلى ما خالف شرطاً من الشرطين الأخيرين مصطلح الإساءات "abuses"^(٢).

Austin, J. L. (1962) p. 15.

(١)

Ibid. P. 16.

(٢)

وقد كان تمييز أوستين لهذين النوعين من الشروط حافزاً لبعض الباحثين على تقسيم الشروط إلى قسمين اثنين: قسم يسميه الشروط التكوينية constituent وهي الشروط اللازمة لأداء الفعل فإذا لم تتحقق كان ذلك إيذاناً بإخفاق الأداء. وقسم يسميه الشروط القياسية regulative، فإذا لم تتحقق نتج عن ذلك سوء أداء للفعل أو أدى الفعل أداءً معيناً^(١).

ولعله نقل ذلك عن سيرل كما سيأتي.

على أن الرجل في سعيه إلى تمييز الأفعال الأدائية عن الإخبارية حاول أن يتلمس وسائل لغوية تميز الأفعال الأدائية فلاحظ أن هذه الأفعال في اللغة الإنجليزية يستخدم معها غالباً ضمير المتكلم مسنداً إليه، والفعل في صيغة المضارع المبني للمعلوم، وتكون موجهة إلى مخاطب، وهو من ثم يرى أنك إذا قلت: أعدك بكذا كان فعلاً أدائياً لكنك إذا قلت: وعدك بكذا، أو أعدك بكذا لم يكن أدائياً، والتفت أيضاً إلى معيار رآه ناقعاً في هذا المجال وهو أن الأفعال الأدائية يصح أن تستخدم معها كلمة "hierby" أما الأفعال غير الأدائية فلا يصح استخدام هذه الكلمة معها^(٢) وهو ما أطلق عليه الباحثون من بعد "hierby test"^(٣).

على أن أوستن قد نبه إلى أن الفعل قد يؤدي أحياناً بصيغة المبني لغير الفاعل أو بصيغة اسم المفعول نحو: يسمح لك بكذا أو مسموح لك

(١) Geis, M. L.: Speech acts and Conversational Interaction, Cambridge University Press (1997). P. 4. Footnote 6.

(٢) Austin, J. L. Performative- Cosntative. In; Searle, J. R.: (1971) p. 15. Austin, J. L.; (1962). p. 57.

(٣) Malmkjaer, K. (ed) The Linguistics Encyclopedia, p. 418. - Levinson, S. C.: (1983) p. 232.

بكذا^(١). ثم مضى لوستن يتأمل الأفعال الأدائية فوصل إلى أنها نوعان:
 أدائيات صريحة explicit وأدائيات أولية primary^(٢) ونكر لهما مثالين هما:
 - أعددك أن تكون هناك.
 - سأكون هناك.

فالمثال الأول صريح الدلالة على الوعد، ولا يحتمل غيره، في حين
 أن المثال الثاني قد يكون وعدًا وقد لا يكون^(٣). فالوعد عادة يقال في سياق
 يعتقد فيه الواعد أن المخاطب يتطلع إلى هذا الوعد ويتعلق به. فإذا سألك
 شخص عن المدعويين في حفل، ولم يكن هو من بين المدعويين، فنكرت له
 أسماءهم ثم قلت: "سأكون هناك". فلن يكون هذا القول وعدًا؛ لأن المخاطب
 ليس في حاجة إليه، وليس عنده تعلق به أو رغبة فيه. أما إذا كان هذا
 المخاطب من بين المدعويين، وقال لك: والله لا أذهب إلى الحفل حتى تذهب
 أنت، فقلت: "سأكون هناك" كان قولك وعدًا؛ لذلك فإن الأدائيات الضمنية
 تعتمد اعتمادًا أساسيًا على المقام؛ إذ به تكون أدائية أو لا تكون، ولا كذلك
 الأدائيات الصريحة^(٤). من ثم كان إدراك الأدائيات الصريحة ليسر، لأنها
 تعلن عن نفسها في كل سياق يقال فيه^(٥).

Austin, J. L. (1962) p. 57. (١)

Austin, J. L. (1962) p. 57. (٢)

على الرغم من أن الرجل نص على أنه يفضل ألا يقابل الأدائيات الصريحة بغير
 الصريحة inexplicit - فقد شاع بين عدد من الباحثين مقابلة الصريحة بالضمنية -
 انظر:

- Austin, J. L.: (1962) p. 59.

- Levinson, S.C. (1983) p. 231.

- Bright, W. (ed) International Encyclopedia of Linguistics, Vol. 4 p. 65.

Austin, J. L. (1962) p. 59. (٤)

Geis, M, L.: (1997) p. 5 f. (٥)

وبرغم ما بذله أوستن من جهد في التمييز بين الأفعال الأدائية والإخبارية فقد ظل يرجع النظر في هذا التقسيم حتى تبين له في النهاية أن الحدود بين هذين النوعين من الأفعال لا تزال غير واضحة، وأن ما وضعه من شروط، وما أشار إليه من وسائل ليس كافيًا للتمييز بينهما؛ إذ وجد أن شروط الأفعال الأدائية تنطبق أحيانًا على أفعال ليست أدائية، وأن أفعالاً غير أدائية تنطبق عليها شروط الأفعال الأدائية^(١)؛ فعاد من حيث بدأ إلى السؤال: كيف تتجزأ فعلاً حين تنطق قولاً فرأى الفعل الكلامي مركبًا من ثلاثة أفعال تؤدي في الوقت نفسه الذي ينطق فيه بالفعل الكلامي، فهي ليست أفعالاً ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحدًا وراء الآخر، بل هي جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل أحدها عن الآخر إلا لغرض الدراسة فصعب وهي:

١- الفعل اللفظي locutionary act:

ويتكون من النطق بأصوات لغوية ينتظمها تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد هو المعنى الحرفي أو الأصلي المفهوم من التركيب، وله مرجع يحيل إليه.

٢- الفعل الغرضي أو الإنجازي illocutionary act:

ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد، والتحذير، والأمر والنصح... إلخ.

٣- الفعل التأثيري perlocutionary act:

ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع أو المخاطب

(١) Austin, J. L.: Performative-constative. In: Searle, J. R.: (ed) 1971, p. 16 ff.

سواء أكان تأثيراً جسدياً أم فكرياً أم شعورياً^(١).

ونسوق مثلاً يتضح به هذا الفعل الكلامي المركب من ثلاثة أفعال: إذا دخل عليك شخص وقال لك: "خلف هذا الباب أفعى". فالفعل اللفظي هو الهيئة التركيبية لهذه الجملة بأصواتها التي نطقت وبتركيبتها النحوي الصحيح، وبمعناها الحرفي الذي يقرر أن خلف الباب أفعى، ومرجعه وجود أفعى فعلاً خلف الباب. والفعل الإنجازي هو ما يقصده المتكلم بهذا القول، وهو: التحذير من الأفعى، والفعل للتأثير هو ما يخلفه هذا القول من أثر فيك، قد يكون الفرع، أو الهرب من المكان، أو النهوض لقتلها^(٢)... إلخ.

وقد نذكر أوستن أن الفعل اللفظي لا ينعقد الكلام إلا به، وأن الفعل للتأثير لا يلزم الأفعال جميعاً، فمنها ما لا تأثير له في السامع أو المخاطب، من ثم كان الفعل الإنجازي عنده أهمها جميعاً، فوجه إليه همه حتى أصبح لبُّ هذه النظرية، وأصبحت تعرف به أيضاً، فيطلق عليها أحياناً نظرية الفعل الإنجازي أو النظرية الإنجازية.

على أن الفعل الإنجازي يرتبط عند أوستن ارتباطاً وثيقاً بمقصد المتكلم، وعلى السامع أن يبذل الجهد الكافي للوصول إليه، ولهذا يقوم مفهوم قصد المتكلم speaker intention الذي يعبر عنه بالإنجاز illocution بدور مركزي في نظرية الفعل الكلامي.

وقد قام أوستن في المحاضرة الأخيرة (الثانية عشرة) بتقديم تصنيف

Austin, J. L. (1962) p. 101 ff.

(١)

Helbig, G: (1990) S. 1985.

(٢)

والمثال الذي ذكره هليج هو:

Der Hun ist bissig

للأفعال الكلامية على أسس ما أسماه "قوتها الإيجازية" illocutionary force فجعلها خمسة أصناف لكنه لم يتردد في القول بأنه غير راض عن هذا التصنيف^(١):

١- أفعال الأحكام *verdictives*: وهي التي تعبر - كما يدل المصطلح - عن حكم يصدره محلف، أو محكم، أو حكم، وليس من الضروري أن تكون الأحكام نهائية أو نافذة، فقد تكون تقديرية أو ظنية مثل: يبرئ، وقد، يعين، يقوم، يشخص (مرضاً)، يحلل^(٢).

٢- أفعال القرارات *exercitives*، التي تعبر عن اتخاذ قرار في صالح شيء أو شخص أو ضده مثل: يأنن، يطرد، يحرم، يجند، يختار، يوصي، يحذر، يصرح بـ، يُحدث، يعتذر، ينصح^(٣).

٣- أفعال التعهد *commissives*: وهي التي تعبر عن تعهد المتكلم بفعل شيء أو إلزام نفسه به مثل: أعد، أتعهد، أتعاقد على، أضمن، أقسم على، أبل^(٤).

٤- أفعال السلوك *behabitives*: وهي التي تعبر عن رد فعل لسلوك الآخرين، ومواقفهم، ومصائرهم كالاعتذار، والشكر، والتعاطف، والنقد، والمواساة، والتحية، والرجاء، والتحدى^(٥).

٥- أفعال الإيضاح *expositives*: وهي الأفعال التي تستخدم لتوضيح وجهة

Austin, J. L. (1962) p. 150.

Ibid, p. 152.

Austin, J. L. (1962) p. 154.

Ibid, p. 156.

Ibid, p. 159.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

النظر أو بيان الرأي وذكر الحجة مثل: الإثبات، والإنكار، والمطابقة، والملاحظة والتتويه، والإجابة، والاعتراض، والاستفهام، والتشكيك، والموافقة، والتصويب^(١).

(٤)

لم يستطع أوستن أن يحقق ما سعى إليه من وضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، فلم يكن ما قدمه من تصور كافيًا ولا قائمًا على أسس منهجية واضحة ومحددة؛ فقد خلط بين مفهوم الفعل قسمًا من أقسام الكلام والفعل حدثًا اتصاليًا، ولم يتم تحديده للأفعال وتصنيفه لها على أسس راسخ فتداخلت فئاتها ودخل في بعض الفئات ما ليس منها^(٢) لكنه برغم ذلك وضع بعض المفاهيم المركزية في النظرية، ومن أهمها تمييزه بين محاولة أداء الفعل الإنجازي والنجاح في أداء هذا الفعل، وتمييزه بين ما تعنيه الجملة وما قد يعنيه المتكلم بنطقها، وتمييزه بين الصريح من الأفعال الأدائية والأولى منها، فضلًا عن تحديده للفعل الإنجازي الذي يعدُّ مفهومًا محوريًا في هذه النظرية.

على أن التطوير الأساسي للنظرية تحقق على يد سيرل فيما يعرف بالمرحلة الأساسية الثانية للنظرية، فقد ظهرت على يده نظرية منتظمة

Ibid, p. 160 f. (١)

Lyons, J.: (1977)p. 740. (٢)

- Helbig, G.: (1990) S. 187.

ونظر:

- صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ص ٢٠٦ فما بعدها.

- د. محمد العبد: الحدث اللغوي: مفهومه وأنواعه ص ٣٩ فما بعدها.

systematic لاستعمالات اللغة بمصطلحات الأفعال الكلامية، قائمة على أن الكلام محكوم بقواعد مقصدية intentional، وأن هذه القواعد يمكن أن تحدد على أسس منهجية واضحة ومتصلة باللغة^(١). والرجل على كل حال لم يبدأ من فراغ، بل بنى على ما ابتدأه أوستن وأخذ يحكمه شيئاً فشيئاً حتى أصبح خلقاً موزناً^(٢).

ومن الممكن أن نحدد أهم ما قام به ميريل فيما يلي:

أولاً: قام بتعديل التقسيم الذي قدمه أوستن للأفعال الكلامية فجعله لربعة أقسام، أبقى منها على القسمين الإنجازي والتكثيري^(٣)، لكنه جعل القسم الأول وهو الفعل اللفظي قسمين:

أحدهما: الفعل النطقي utterance act: وهو يشمل الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية.

والثاني: الفعل القضوي propositional act: وهو يشمل المتحدث عنه أو المرجع reference، والمتحدث به أو الخبر predication^(٤) ونص على أن الفعل القضوي لا يقع وحده، بل يستخدم دائماً مع فعل إنجازي في إطار كلامي مركب؛ لأنك لا تستطيع أن تتطرق بفعل قضوي دون أن يكون لك مقصد من نطقه^(٥). كما نص على أن الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى

Bright, W.: (ed): International Encyclopedia of Linguistics. Vol. 4, p. 565. (١)

Levinson, S. C.: (1983) p. 238. (٢)

Searle, J. R.: Speech Acts. An Essay in the philosophy of language. Cambridge University Press, 1969, pp. 24- 25. (٣)

Ibid, p. 24. (٤)

Ibid, p. 25. (٥)

minimal unit للاتصال اللغوي^(١). وإيضاح ذلك نذكر لك الجمل الآتية:

١- يقرأ زيد الكتاب.

٢- ليقرأ زيد الكتاب؟

٣- يا زيد، اقرأ الكتاب.

٤- لو يقرأ زيد الكتاب!

عند النطق بأى من هذه الجمل ينجز المتكلم ثلاثة أنواع من الأفعال
فى وقت واحد:

١- الفعل النطقى: ويتمثل فى نطقك الصوتى للألفاظ على عمق نحوى
ومعجمى صحيح.

٢- الفعل القضى: ويتمثل فى مرجع هو محور الحديث فيها جميعاً، هو
زيد فى الجمل الأربع، وخير هو فيها جميعاً قراءة للكتاب، والمرجع
والخير يمثلان معاً قضية proposition هى: قراءة زيد للكتاب، والقضية
هى المحتوى المشترك common content بينها جميعاً.

٣- الفعل الإيجازى: وهو: الإخبار فى الأولى، والامستفهام فى الثانية،
والأمر فى الثالثة، والتمنى فى الرابعة^(٢).

وينبغى أن نشير إلى أن الفعل التأثيرى perlocutionary ليس له
أهمية كبيرة عند سيرل، لأنه ليس من الضرورى عنده أن يكون لكل فعل
تأثير فى السامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما^(٣).

Searle. J. R.: What is a Speech Act? In: The Philosophy of Language. P. 39. (١)

Searle. J. R.: (1969), p. 22 ff. (٢)

- Searle. J. R.: (1971), p. 42 f.

Stammarjohann, H. (Hrs): Handbuch der Linguistik. Allgemeine und
angewandte Sprachwissenschaft. (München 1975) S. 458. (٣)

ويدل على القوة الإنجازية دليل يسمى دليل القوة الإنجازية
 illocutionary force indicator يبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه
 المتكلم بنطقه للجملة، ويمثل في اللغة الإنجليزية في نظام الجملة word
 order، والنبر stress، والتنغيم intonation، وفي علامات الترقيم
 punctuation في اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل mood وما يسمى الأفعال
 الأدائية performative⁽¹⁾.

ثانياً: رأى سيرل أن الفعل الكلامي أوسع من أن يقتصر على مراد
 المتكلم، بل هو مرتبط أيضاً بالعرف اللغوي والاجتماعي، ولكي يوضح ذلك
 ضرب المثل الآتي: فلنفترض أنني جندي أمريكي في الحرب العالمية الثانية
 وأن الإيطاليين أسروني، وفترض أنني أرادت أن ألقى في روع هؤلاء
 الإيطاليين أنني ضابط ألماني لكي يطلقوا سراحي، فما أريده هو أن أقول ذلك
 باللغة الألمانية أو الإيطالية، ولما كنت لا أجيد أيًا من اللغتين فقد حاولت أن
 أقول لهم: «إنني ضابط ألماني» باستخدام جملة من اللغة الألمانية تتكررت مما
 كنت أدرسه في المدرسة من دروس اللغة الألمانية، ثقة مني بأنه ليس من
 هؤلاء الإيطاليين من يجيد اللغة الألمانية بحيث يستطيع أن يكشف الخطة التي
 أديرها، فالتفت إليهم قائلاً:

Kennest du das Land, wo die Zitrone blühen ?

ثم حُلَّ ذلك قالاً: إن قصد المتكلم بهذه الجملة هو أن يقول: إنني ضابط
 ألماني ليؤثر في المخاطبين فيطلقوا سراحي، لكن هذه الجملة في اللغة
 الألمانية لا تعني ذلك، بل تعني: هل تعرف الأرض التي يزهر فيها الليمون؟

Searle, J. R.: (1969), p.30
 - Searle, J. R.: (1971) p. 45 f.

(1)

ولا يسمح العرف اللغوي في الأمانية باستخدام هذه الجملة في هذا السياق، وهذا دليل على أن قصد المتكلم وحده لا يكفي، بل لابد من العرف اللغوي أيضاً. ثم لخص سيرل ذلك في عبارة مثورة هي^(١):

"Meaning is more than a matter of intention, it is also a matter of convention".

ثالثاً: استطاع سيرل أن يطور تصور أوستن لشروط الملازمة أو الاستخدام felicity conditions التي إذا تحققت في الفعل الكلامي كان موفقاً، فجعلها أربعة شروط، وطبقها تطبيقاً موجزاً ومحكماً على أنماط من الأفعال الإنجازية، فطبقها على أفعال الرجاء، والإخبار، والاستفهام والشكر، والصح، والتحذير، والتحية، والتهنئة وبين ما قد يحتاجه كل منها إلى بعض شروط إضافية، وما يستغنى منها عن بعض الشروط ونكتفي هنا بذكر هذه الشروط مطبقة على فعل الرجاء^(٢):

١- شرط المحتوى القضيوي propositional content:

فعل في المستقبل مطلوب من المخاطب.

٢- الشرط التمهيدي preparatory:

أ - المخاطب قادر على إنجاز الفعل، والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز الفعل.

ب - ليس من الواضح عند كل من المتكلم والمخاطب أن المخاطب سينجز الفعل المطلوب في المجري المعتاد للأحداث.

Searle. J. R.: (1971), p. 45 f.

(١)

Searle. J. R.: (1969), p. 66 f.

(٢)

- Searle. J. R.: (1971) p. 53.

٣- شرط الإخلاص sincerity:

المتكلم يريد حقاً من المخاطب أن ينجز هذا الفعل.

٤- الشرط الأساسي essential:

محاولة المتكلم للتأثير في المخاطب لينجز الفعل.

ولم يكتف سيرل بذلك بل قال إن هناك (على الأقل) اثني عشر بُعداً dimension يختلف بها كل فعل إنجزي عن الآخر، ومضى يذكرها مفصلة^(١) ونوجزها فيما يلي:

١- الاختلاف في الغرض الإنجزي illocutionary point للفعل فالغرض الإنجزي للأمر مثلاً هو محاولة للتأثير في السامع ليقوم بفعل ما، على حين أن الغرض الإنجزي من الوعد مثلاً هو إلزام المتكلم نفسه بفعل شيء ما للمخاطب.

على أن الغرض الإنجزي يعد جزءاً من القوة الإنجزية لكنه ليس إياها، فالغرض الإنجزي من الرجاء مثلاً هو نفسه الغرض الإنجزي للأمر، لكن القوة الإنجزية في كل منهما تختلف اختلافاً بيناً، فالقوة الإنجزية نتاج عناصر عديدة ليس الغرض الإنجزي إلا واحداً منها.

٢- الاختلاف في اتجاه المطابقة direction of fit.

فاتجاه المطابقة في بعض الأفعال الإنجزية من الكلمات إلى العالم كالإخباريات assertions وهو في بعضها من العالم إلى الكلمات كالوعد والرجاء.

(١) Searle, J. R.: Expression and Meaning. Studies in the Theory of Speech Acts, Cambridge University Press, 1981, p. 2 ff.

٣- الاختلاف في الموقف النفسى الذى يعبر عنه المتكلم، فالذى يعدد أو يتوعد يعبر عن مقصدية الإنجاز، والذى يأمر، أو يطلب، أو يرجو يعبر عن رغبة فى أن ينجز السامع الفعل، والذى يعتذر يعبر عن الندم على ما فرط منه.

٤- الاختلاف فى القوة أو فى الدرجة التى يعرض بها الغرض الإنجازى فقوله مثلاً "أقترح أن نذهب إلى السينما" وقوله: "أصرّ على أن نذهب إلى السينما" كل منهما يتفق مع الآخر فى الغرض الإنجازى لكنه عرض فى كل منهما بدرجة مختلفة من القوة، فهو فى القول الثانى أقوى منه فى القول الأول وأشد.

٥- الاختلاف فى منزلة كل من المتكلم والسامع، فإذا طلب الضابط من الجندى أن يفعل شيئاً كان لمرء، أما إذا طلب الجندى من الضابط أن يفعل شيئاً كان اقتراحاً أو رجاءً، لكنه لا يكون لمرء بحال.

٦- الاختلاف فى طريقة ارتباط القول باهتمامات المتكلم والسامع كالاختلاف بين المدح والثناء أو التهنية والتعزية، وهو نمط آخر من أنماط الشرط التمهيدي preparatory condition.

٧- الاختلاف فى العلاقة بسائر عناصر الخطاب والسياق الذى يقع فيه، فقوله: "أجيب، أو استدل، أو استنتج، أو أعترض على... يربط الأفعال التالية بالأفعال السابقة والسياق الملازم لها.

٨- الاختلاف فى المحتوى القضوى propositional content الذى تحدده القوة الإنجازية والوسائل الدالة، كالاختلاف بين الإخبار والتوقع فالإخبار يكون عن أمر مضى، والتوقع يكون لأمر مستقبل.

٩- الاختلاف في أن يكون القول دائماً فعلاً كلامياً، وأن يمكن أن يكون فعلاً كلامياً لكننا لسنا في حاجة إلى أن نعطه فعلاً كلامياً، فأنت تستطيع مثلاً أن تصلف الأشياء وأنت تقول: أنا لصنف هذه الأشياء إلى (أ) و(ب)، لكذلك قد لا تحتاج إلى قول أى شئ لتصنيف الأشياء، إذ يكفي أن تضع ما هو منها من النوع (أ) في الصندوق المخصص لـ (أ) وما هو من النوع (ب) في الصندوق المخصص لـ (ب). كذلك يمكن أن تقول عن تقدير القيمة أو تشخيص الحالة، "أنا أقدر" أو "أشخص" لكن من الممكن أن تقدر أو تشخص دون أن تقول شيئاً على الإطلاق.

١٠- الاختلاف في أن يقتضى أداء الفعل عرفاً غير لغوى أو لا يقتضى كالأزواج وإعلان الحرب، فلا يجوز الزواج إلا في إطار عرف غير لغوى، وكذلك إعلان الحرب لا يجوز أن يقوم به شخص إلا في إطار عرف غير لغوى، ولا كذلك لأفعال مثل الوعد أو الإخبار فمثلها لا يحتاج إلا إلى العرف اللغوى.

١١- الاختلاف في أن تكون الأفعال قابلة للأداء أو لا تكون، فمعظم الأفعال الإنجازية قابلة للأداء مثل أقرر، أعد، أمر، استنتج، لكن ثمة أفعالاً لا تؤدي بالقول فقط فأنت لا تستطيع أن تنفع شخصاً بشئ بقولك أنا أفنحك لو أن نقرعه بقولك: أنا أفزعك. فليس كل الأفعال الإنجازية أفعالاً أدائية.

١٢- الاختلاف في أسلوب أداء الفعل كالاختلاف بين الإعلان والإسرار، فهما لا يختلفان في الغرض الإنجازى، ولا في المحتوى القضى، بل يختلفان في أسلوب الأداء فحصب.

رابعاً: أعاد سيرل النظر في تصنيف أوستن للأفعال الإنجازية فبين ما فيه من أوجه للضعف^(١)، وأهمها جميعاً في رأيه أنها لم تقم على أساس واضح أو متين أو على مجموعة من الأسس، ولم يسلم منها فيما يرى إلا صنف واحد هو التعهديات commissives فقد صنفه أوستن على أساس منهجي واضح هو الغرض الإنجازي^(٢) فكان على سيرل أن يقدم تصنيفاً بديلاً للأفعال الإنجازية أحكم وأضبط، وقد أقام تقسيمه على أساس منهجية ثلاثة ورد ذكرها في الأبعاد التي يختلف بها كل فعل إنجازي عن الآخر، ونص على أنها أهم هذه الأبعاد جميعاً، وأنه سيبني عليها تصنيفه للأفعال الإنجازية وهي^(٣):

أ - لغرض الإنجازى illocutionary point.

ب - اتجاه المطابقة direction of fit.

ج - شرط الإخلاص sincerity condition.

وقد جعلها كأوستن خمسة أصناف^(٤) نذكرها موجزة على النحو الآتي:

١ - الإخباريات Assertives:

والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلم واقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضية proposition يعبر بها عن هذه الواقعة. وأفعال هذا الصنف

Searle, J. R.: (1981), p.8 ff.

Ibid, p. 10.

Ibid, p. 5.

Ibid, p. 12 ff.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

كلها تحتمل الصدق والكذب. واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم words-to-world ويتضمن هذا الصنف معظم أفعال الإيضاح expositives عند أوستن وكثيراً من أفعال الأحكام verdictives.

٢- التوجيهيات Directives:

وغرضها الإجازى محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما. واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات World-to-words وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الإرادة أو الرغبة الصادقة، والمحتوى القضوى فيها هو دائماً فعل السامع شيئاً في المستقبل. ويدخل في هذا الصنف الاستهتام، والأمر والرجاء والاستعطاف والتشجيع، والدعوة والإذن والنصح، بل التحدى أيضاً الذى جعله أوستن في أفعال الملوك behabitives. وكثير من أفعال القرارات exercitives عند أوستن تدخل في هذا الصنف.

٣- الالتزاميات Commissives:

وغرضها الإجازى هو التزام المتكلم (مرة أخرى بدرجات متفاوتة) بفعل شيء في المستقبل. واتجاه المطابقة في هذه الأفعال من العالم إلى الكلمات world-to-words وشرط الإخلاص هو القصد Intention، والمحتوى القضوى فيها دائماً فعل المتكلم شيئاً في المستقبل، على أن كثيراً مما عده أوستن من هذا الصنف لا يدخل فيه على الإطلاق.

وظاهر أن اتجاه المطابقة في الالتزاميات والتوجيهيات واحد فهل يسوّغ ذلك ضمهما في قسم واحد؟ والجواب أن ذلك غير ممكن لسببين: أحدهما أن المرجع في الالتزاميات هو المتكلم أما في التوجيهيات فهو المخاطب. والثانى أن المتكلم في الالتزامات لا يحاول التأثير فى السامع، وفى التوجيهيات يحاول للتأثير فيه.

٤- التعبيرات Expressives:

وغرضها الإنجازى هو التعبير عن الموقف النفسى تعبيراً يتوافق فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة فالمتكلم لا يحاول أن يجعل للكلمات تطابق العالم الخارجى ولا للعالم الخارجى يطابق الكلمات. وكل ما هو مطلوب الإخلاص فى التعبير عن القضية ويدخل فى هذا الصنف أفعال الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والتعزية، والترحيب.

٥- الإعلانيات Declarations:

والسمة المميزة لهذا الصنف من الأفعال أن أداءها الناجح يتمثل فى مطابقة محتواها القضى للعالم الخارجى، فإذا أدت أنا فعل تعيينك رئيساً للوفد أداءً ناجحاً فأنت رئيس الوفد وإذا أدت فعل إعلان الحرب أداءً ناجحاً، فالجانب معلنة، وأهم ما يميز هذا الصنف من الأفعال عن الأصناف الأخرى أنها تحدث تغييراً فى الوضع القائم، فضلاً عن أنها تقتضى عرفاً غير لغوى. واتجاه المطابقة فى أفعال هذا الصنف قد يكون من الكلمات إلى العالم ومن العالم إلى الكلمات، ولا يحتاج إلى شرط الإخلاص.

خامساً: كان لوستن قد فرق بين الأفعال اللفظية والأفعال الإنجازية وفرق بين الأفعال الإنجازية الصريحة والأولية primary، ثم جاء سيرل فخطأ فى هذا الاتجاه خطوة أخرى واسعة تتمثل فى التمييز بين ما أسماه الأفعال الإنجازية المباشرة direct وغير المباشرة indirect أو الحرفية literal وغير الحرفية non-literal أو الثانوية secondary والأولية primary، وأكثرها شيوعاً عنده هو المصطلح الأول "المباشرة وغير المباشرة"، فالأفعال

الإنجازية المباشرة عنده هي التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم، فيكون معنى ما ينطقه مطابقاً مطابقة تامة وحرفية لما يريد أن يقول^(١) وهو يتمثل في معنى الكلمات التي تتكون منها الجملة، وقواعد التأليف التي تنتظم بها الكلمات في الجملة، ويستطيع السامع أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معاً^(٢). لما الأفعال غير المباشرة فهي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم فالفعل الإنجازي يؤدي على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر؛ فلو قلت لصاحبك ولتتما جالساً إلى المائدة "هل تناولني الملح؟" فإن هذا فعل إنجازي غير مباشر إذ معناه الحرفي هو الاستفهام، وهو مصدر بالذليل الإنجازي illocutionary indicator وهو "هل"، لكن الاستفهام غير مراد لك، وأنت لا تنتظر أن يجيبك صاحبك بنعم أو بلا، بل مرادك أن تطلب منه طلباً مهذباً أن يناولك الملح. وظاهر إذن أن الفعل الإنجازي السابق فعل إنجازي غير مباشر إذ تخالف قوته الإنجازية الحرفية قوته الإنجازية غير الحرفية التي هي مراد المتكلم^(٣) مع ملاحظة أن التنغيم intonation يختلف باختلاف القوة الإنجازية حرفية وغير حرفية^(٤).

لقد ناقش سيرل عدداً وفيراً من الأفعال الإنجازية غير المباشرة وبخاصة تلك التي تكون استفهاماً مقصوداً به الطلب، ولحظ أن أهم البواعث

Searle, J. R.: (1981), p.30. (١)

Ibid. p. 117. (٢)

Ibid. p. 30. (٣)

- Levinson, S.C. (1983) p. 246.

Searle, J. R.: (1981), p. 42. (٤)

إلى استخدام الأفعال غير المباشرة هو التلذّب في الحديث^(١) ثم اختار التوجيهات غير المباشرة indirect directives نموذجًا، فقسمها إلى مجموعات بحسب قدرة السامع على أداء الفعل، ورغبته فيه واليواعث إليه، ورغبة المتكلم أن يؤدي السامع فعلاً ما واستجابة السامع له^(٢) وناقش عددًا من التعميمات generalizations التي تفسر غالب استعمالاتها وتحصر الاستثناء منها^(٣).

وكان سيرل قد قرر أن المتكلم لا يقصد ما يقول فحسب، بل يتعدى قصده ما قاله إلى ما هو أكثر منه^(٤) فالأفعال الإنجازية غير المباشرة لا تكل هيئتها التركيبية على زيادة في المعنى الإنجازي الحرفي، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم speaker meaning^(٥) والمشكلة في هذا النوع من الأفعال هو كيف يقول المتكلم شيئاً ويعنى شيئاً آخر؟ ثم كيف يكون ممكناً أن يسمع المخاطب شيئاً له معنى ويفهم منه معنى آخر؟ لقد حاول سيرل أن يحل هذا الإشكال بمبدأ التعاون الحوارى conversational cooperation بين المتكلم والسامع وما عند المخاطب من علم بجوانب الموضوع^(٦) ثم بما أسماه استراتيجية الاستنتاج inference strategy عند السامع التي تمكنه من الوصول إلى المعنى غير المباشر للرجاء مثلاً

Ibid. p. 48. (١)

Ibid. p. 36 ff. (٢)

Ibid. p. 39 ff., p. 45. (٣)

Ibid. P. 30. (٤)

Ibid. p. 42. (٥)

Ibid. pp. 47, 49. (٦)

بعد عشر خطوات من الاستدلال^(١).

ولقد لاحظ بعض الباحثين أننا نتواصل بالأفعال الإنجازية غير المباشرة أكثر من تواصلنا بالأفعال الإنجازية المباشرة، فالأفعال الإنجازية التي لا تستخدم إلا مباشرة قليلة جداً، وهي تقتصر في الغالب على ما يسمى الأفعال المؤسساتية أو التشريعية كالتوكيل والتفويض والوصية والتوريث والإجارة ونحوها، لأن الأفعال الكلامية لم تستخدم هنا غير مباشرة لصوف تؤدي إلى اللبس وضياح الحقوق^(٢).

على أن من الممكن وضع بعض الضوابط للتمييز بين هذين النوعين من الأفعال المباشرة وغير المباشرة بتحديد ثلاثة فروع جوهرية^(٣):

أحدها: أن القوة الإنجازية للأفعال المباشرة تنزل ملازمة لها في مختلف المقامات. أما الأفعال الإنجازية غير الحرفية فموكولة إلى المقام لا تظهر قوتها الإنجازية إلا فيه.

ثانيها: أن القوة الإنجازية للأفعال غير المباشرة يجوز أن تلغى، فإذا قال لك صاحبك: أذهب معي إلى المكتبة؟ فقد تلغى القوة الإنجازية غير المباشرة وهي الطلب ليقصر الفعل على قوته الإنجازية المباشرة وهي الاستفهام.

Ibid. p. 46 f. (١)

Helbig, G. (1990) S. 201. (٢)

- Levinson, S. C. (1983) p. 264.

(٣) د. أحمد المتوكل: أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط ١٩٩٣) ص ٢٢ فما بعدها.

ثالثها: أن القوة الإنجازية غير المباشرة لا يتوصل إليها إلا عبر عمليات ذهنية استدلالية تتفوق من حيث البساطة والتعقيد، أما القوة الإنجازية المباشرة فتتخذ مباشرة من تركيب العبارة نفسه، من هنا لم تكن للنظريات الشكلية إلا بالقوة الإنجازية المباشرة أو الحرفية، أما غير المباشرة، أو غير الحرفية فتقع خارج نطاق اهتماماتها.

وقد لفت سيرل إلى نوع آخر من الأفعال الكلامية غير المباشرة يرتبط بما يسمى الاستلزام الحواري conversational implicature، وأصبح الآن نظرية متكاملة في إطار التداولية والنحو الوظيفي. ويتضح هذا النوع من الأفعال من المحاوراة القصيرة الأكية بين طالب وصديقه:

أ - ألا تزورني الليلة؟

ب - سأمتحن صباح غد.

فالفعل الإنجازي: "سأمتحن صباح غد" ليس جوابًا مباشرًا عن الطلب، لكن فهم منه أمران أحدهما مباشر أو حرفي وهو الإخبار بموعد امتحان المخاطب، والثاني غير مباشر أو غير حرفي وهو الاعتذار عن عدم تلبية الدعوة.

والفعل الإنجازي غير المباشر بنوعيه محول عن الفعل الإنجازي المباشر، ومن ثم فإن الفعل الإنجازي غير المباشر يتضمن الفعل الإنجازي المباشر، ولا ينعكس^(١).

Helbig, G.: (1990) S. 200.

(١)

١- إذا التقنا إلى تراثنا اللغوي الموزع بين كتب النحو، واللغة، والبلاغة، والفقه، وأصول الفقه، والتصوير، والقراءات - بما هو وحدة ووحدة - وجدنا فيه اتجاهين بارزين يمثلان اتجاهي النظريات اللسانية المعاصرة أحدهما: يعنى بالنظام اللغوي الذي يشمل أنظمة فرعية صوتية وصرفية ونحوية ودلالية، لكل منها مكوناته وعناصره، وعلاقاته بالمكونات والعناصر الأخرى داخل النظام الفرعي، ثم علاقة كل نظام فرعي بالآخر، دون التفات مقصود إلى مقتضيات المقام وقرائن الأحوال. والثاني يعنى بالمقام وما يتصل به من قرائن غير لفظية تشمل منزلة المتكلم والسامع وعلاقة كل منهما بالآخر، وحالة كل منهما النفسية والذهنية، وحركته الجسمية، وسكونته، والبيئة المكانية التي تشهد الحدث اللغوي وجمهور المشاركين فيه. على أنهم لم يكتفوا بالسياق الاجتماعي، بل ضموا إليه السياق الثقافي والشرعي. ولست أشك في أن وراء ذلك كله نظرية تداولية محكمة تنتظر من يكشف عن جانبها التطويري والتطبيقي في ضوء معارف العصر، ومن الممكن - في إطار هذه النظرية التداولية العامة - تطوير نظريات فرعية عديدة، منها نظرية عربية الوجه واللسان للأفعال الكلامية.

والمندخل الصحيح إلى هذه النظرية العربية للأفعال الكلامية باب من أبواب علم المعاني هو 'الخير والإشياء'، وما ورد من مناقشات تتصل به في كتب أصول الفقه، والفقه، والنحو، واللغة. فإذا استطعنا أن نعالج ما فيه من بعض أنواع الخلل والقصور، وأن نحكم منهج البحث فيه في ضوء نظرية الأفعال الكلامية فربما استطعنا أن نصل إلى وضع نظرية عربية للفعل الكلامي موازية للنظريات الغربية تأخذ منها وتعطيها في إطار مثقفة متكافئة.

٢- قبل أن نلخص ما ورد في هذا الباب تمهيداً لإعادة صياغته أودّ أن نشير إلى أساسين منهجيين يعدان من أسس النظرية المقامية بعلمة، ومن أسس هذه النظرية بخاصة هما: عرقية الاستعمال ومقصد المتكلم.

أولاً: عرقية الاستعمال:

يرى علمائنا أن استعمال اللغة منوط بما تعارف عليه أبناءها في ألفاظها وصيغها وتركيبها ودلالاتها وما تقتضيه مقامات الكلام وأعراف الناس وأحكام الشرع. من ثمّ كان العرف عندهم ثلاثة أعراف: عرفاً لغويّاً استعمالياً، وعرفاً اجتماعياً، وعرفاً شرعياً.

أما العرف اللغوي فقد يكون في الألفاظ وقد يكون في التركيب وقد أوضح الإمام الغزالي ذلك أيما إيضاح في نصوص كثيرة نذكر منها قوله: الاسم يسمى عرفياً باعتبارين: أحدهما أن يوضع الاسم لمعنى عام ثم يخص عرف الاستعمال - من أهل اللغة - ذلك الاسم ببعض مسمياته كاختصاص اسم الدابة بنوات الأربع مع أن الوضع لكل ما يندب.. والاعتبار الثاني أن يصير الاسم شائعاً في غير ما وضع له أولاً، بل فيما هو مجاز فيه كالغائط. فصار أصل الوضع منسياً والمجاز سابقاً إلى الفهم بعرف الاستعمال^(١).

وهو يحتكم إلى عرف الاستعمال في رفضه فهم القدرية لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إذا قالوا: هو مجمل؛ لأن الأعيان لا تتصف بالتحريم، وإنما يحرم فعل ما يتعلق بالعين، وليس يُسْئَرَى

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: المستصفى من علم الأصول، دراسة وتحقيق د. حمزة بن زهير حافظ (المدينة المنورة ١٤١٣هـ) ١٥/٣ - ١٦.

ما ذلك الفعل، فيحرم من الميتة مسؤها، أو أكلها، أو النظر إليها، أو بيعها، أو الانتفاع بها، والأم يحرم منها النظر، أو المضاجعة، أو الوطء وليس بعضها أولى من بعض. وقد عقب الغزالي على هذا الفهم بقوله: وهذا فاعلم ثم قال: "ومن أنس بتعارف أهل اللغة، واطلع على عرفهم علم أنهم لا يستريبون في أن من قال: 'حرمت عليك الطعام والشراب' أنه يريد الأكل دون النظر والمس، وإذا قال: 'حرمت عليك هذا الثوب' أنه يريد اللبس، وإذا قال: 'حرمت عليك النساء' أنه يريد الوقاع. وهذا صريح عندهم مقطوع به، فكيف يكون مجملاً؟"^(١).

وهو يحتكم إلى عرف الاستعمال قبل مجئ الشرع لمعرفة المقصود بقوله - صلى الله عليه وسلم - "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان" قال: "وليس الأمر كذلك. وكلامه - صلى الله عليه وسلم - يدل على الإطلاق - بل الحكم الذي عرف بعرف الاستعمال - قبل ورود الشرع - لإرادته بهذا اللفظ. فقد كان يفهم - قبل الشرع - قول القائل لغيره: "رفعت عنك الخطأ والنسيان" إذ يفهم منه رفع حكمه - لا على الإطلاق - وهو المؤاخظة بالذم والعقوبة"^(٢).

على أن الغزالي لم يكن أول لاهت إلى أثر العرف اللغوي في الاستعمال، بل كان الالتفات إليه منذ وقت مبكر جداً في تاريخ الفكر اللغوي العربي، فلم تكن سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس رضى الله عنهما وجواب ابن عباس عنها إلا بياناً لجريان ألفاظ القرآن الكريم وتركيبه على

(١) السابق ٣٩/٣ - ٤٠.

(٢) السابق نفسه ٤١/٣، ٦٢، ١٥٦، ١٥٧، ٣١٥.

مقتضى العرف اللغوي عند العرب. ولم يكن كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى إلا شاهداً على ذلك^(١).

وأما العرف الاجتماعي فلعله يظهر من فهمهم لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "الناس شركاء في ثلاثة: الماء والكلا والنار" والماء عام يشمل ما أحرزه الناس وما لم يحرزوه، لكنه قصر على غير المحرز لما جرت بذلك عادة الناس^(٢) وقد نص ابن القيم على أن الفتوى تتغير بتغير العرف والعادة فإذا حلف رجل: "لا ركبت دابة" وكان الحالف ممن عانته ركوب نوع خاص من الدواب كالأمرء ومن جرى مجراهم حملت يمينه على ما اعتاد من ركوب الدواب، فيفتى في كل بلد بحسب عرف أهله ويفتى كل أحد بحسب عانته^(٣).

وأما العرف الشرعي فقد نص عليه الإمام الغزالي، ورأى أنه في منزلة العرف اللغوي. قال: "والمختار عندنا أنه لا سبيل إلى إنكار تصرف الشرع في هذه الأسماء [يقصد الألفاظ الإسلامية] ولا سبيل إلى دعوى كونها

(١) انظر كتابي: لغة القرآن الكريم في جزء عم. دار النهضة - بيروت ١٩٨١، ص ٩٤ فما بعدها.

وراجع د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع ابن الأزرقي، دار المعارف - مصر ١٩٨٧، ط ٢، ص ٣٠٩ فما بعدها.

(٢) محمد مصطفى شبلي: المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي وقواعد الملكية والعقود فيه. دار النهضة - بيروت ١٩٨٥، ص ٣٥٧.

(٣) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: إعلام الموقعين عن رب العالمين. راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد (دار الجيل - بيروت ١٩٧٣) ٥٠/٣.

وانظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى: الموافقات في أصول الشريعة، شرحه وكشف مراميها، وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز، واعتنى بهذه الطبعة الشيخ إبراهيم رمضان (دار المعرفة - بيروت ١٩٩٤) وما بعدها.

منقولة عن اللغة بالكيفية كما ظنه قوم، ولكن عرف اللغة تصرف في الأسمى
من وجهين:

أحدهما: التخصيص ببعض المسميات، كما في الدابة. فتصرف
الشرع في الحج والصوم والإيمان من هذا الجنس، إذ للشرع عرف في
الاستعمال كما للعرب.

والثاني: في إطلاقهم الاسم على ما يتعلق به الشيء ويتصل به،
كتسميتهن الخمر محرمة، والمحرم شربها، والأم محرمة، والمحرم وطؤها.
فتصرفه في الصلاة كذلك؛ لأن الركوع والسجود شرط شرطه الشرع في
تمام الصلاة، فشملة الاسم بعرف استعمال الشرع^(١).

وقد احتكم الإمام الغزالي إلى عرف الشرع في الوصول إلى
المقصود من قوله - صلى الله عليه وسلم - "لا صلاة إلا بطهور"، و"لا
صلاة إلا بفاتحة الكتاب"، و"لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل" و"لا نكاح
إلا بولي"، و"لا نكاح إلا بشهود"، و"لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه"،
و"لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد". فهذا نفي لما ليس منفيًا بصورته.
قال: "وعرف الشرع في تنزيل الأسمى الشرعية على مقصده كعرف اللغة.
فلا يشك في أن المشرع ليس يقصد بكلامه نفي الصورة فيكون خلفاً، بل يريد
نفي الوضوء والصوم والنكاح الشرعي، فعرف الشرع يزيل هذا الاحتمال،
فكأنه صرح بنفي الصلاة الشرعية والنكاح الشرعي"^(٢).

ثانياً: مقصد المتكلم:

لا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد، وهذا القصد كما

(١) الغزالي: المستصفى ٢٠/٣ - ٢١.

(٢) السابق ٤٥/٣ - ٤٦.

يرى الأصوليون محدد عند المتكلم وثابت لا يتغير، وهو لذلك يتخذ من الرسائل الكلامية والمقامية ما يعين السامع على إدراك ما يريد، ولكن مراتب السامعين تتفاوت في إدراك مقصود المتكلمين تبعاً لتفاوت قدراتهم العقلية واللغوية والثقافية.

وقد حدد الإمام الغزالي الطريق التي يفهم بها مراد المتكلم بقوله:

«ويكون طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة. ثم إن كان نصاً لا يحتمل كفى فيه معرفة اللغة. وإن تطرق إليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينة إما لفظ مكشوف كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَّابِهِ﴾ والحق هو العشر. وإما إحالة على دليل العقل، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّهَاتُ تَطْوِيَاتٌ بِبَيْنِهِ﴾ وقوله عليه السلام: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها، فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة، أو مع قرائن من ذلك الجنس، أو من جنس آخر، حتى توجد علماً ضرورياً بفهم المراد، أو توجد ظناً، وكل ما ليس له عبارة موضوعية في اللغة فتتعين فيه القرائن»^(١).

من أجل ذلك حمل ابن القيم على من أفتى بطلاق امرأة قال لها زوجها: إذا أُنذرت لك في الخروج إلى الحمام فأنت طالق، فتهدت للخروج إلى الحمام فقال لها: اخرجي وابصري. ولم يكن قصده بقوله الإذن بل التهديد،

(١) الغزالي: المستصلى ٣/٣٠ - ٣١.

فكان ما أفتى به المفتي أخذًا بظاهر اللفظ دون وقوف على قصد المتكلم، فافتى كما قال ابن القيم بما لم يكن به الله ورسوله، ولا أحد من أئمة الإسلام^(١) ولهذا حذر ابن القيم من مغبة إهمال قصد الكلام فقال: «غيبك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه فتجنى عليه وعلى الشريعة، وتنسب إليها ما هي بريئة منه، وتتزم الحالف والمقرّر والنذر والعاهد ما لم يلزمه الله ورسوله به»^(٢) ثم لفت إلى أنه لا بدّ للمتكلم من إرادتين: إرادة للتكلم باللفظ اختياريًا، وإرادة موجبه ومقتضاه^(٣).

وفى ضوء هذا نفهم لم لا يُعتد بطلاق المكره، وطلاق الغضبان الذي لا يعي ما يقول، واللعو من الأيمان، ولم رفع التكليف عن النائم والمجنون، فهنا الأفعال بالنيات، والأمور بمقاصدها^(٤).

على أن القصد قد يلتبس على بعض أهل اللغة إذا وقف عند المعنى الأصلي للكلمة دون إدراك للمعنى الاستعمالي أو جهل السياق لحدثة من أو غلبة هوى. ومن ذلك ما أورده الإمام الشاطبي من أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق عليهم ذلك، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم، فقال عليه الصلاة والسلام: إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلی قول لقمان: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٥) ومن ذلك ما أورده من أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن الزبير: فقد

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٥١/٣.

(٢) السابق نفسه ٥٣/٣ - ٥٤.

(٣) السابق نفسه ٦٢/٣.

(٤) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٥٢/٣، ٥٣، ١٠٨، ١١١.

(٥) الشاطبي: الموافقات ٢٤٣/٣.

عُبدت الملائكة وعُبد المسيح! فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - «ما أجهلك بلغة قومك يا غلام»^(١).

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «والذى يجرى على أصل مسائلنا أن الخطاب ظاهره أنه لكفر قريش، ولم يكونوا يعبدون الملائكة ولا المسيح، وإنما كانوا يعبدون الأصنام، فقوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عام في الأصنام التي كانوا يعبدون، فلم يدخل في العموم الاستعمالي غير ذلك، فكان اعتراض المعارض جهلاً منه بالمساق، وغفلة عما قصد في الآيات، وما روى من قوله: «ما أجهلك بلغة قومك يا غلام» دليل على عدم تمكنه من فهم المقاصد العربية، وإن كان من العرب لحدثته وغلبة الهوى عليه في الاعتراض أن يتأمل مساق الكلام حتى يتهدى للمعنى المراد، ونزل قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَّكْتَ هُمْ وَمِنَّا الْحُسْنَى﴾ بياناً لجهله»^(٢).

هذان إذن أصلان راسخان تقوم عليهما النظرية المقامية العربية بعامة، ونظرية الأفعال الكلامية بخاصة: عرفية الاستعمال، ومقصد المتكلم. وقد ألمح الشاطبي إلى أن ما جرى به العرف في استعمال اللغة خطوة سابقة على الوقوف على قصد المتكلم، فإذا صح له العرف بدا له المراد^(٣).

وليس بغريب بعد ذلك أن يقيم ابن خلدون حد اللغة على هذين الأصلين فيقول: «أعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو

(١) السابق ٢٤٧/٣.

(٢) الشاطبي: المواصفات ٢٤٧/٢ - ٢٤٨.

(٣) السابق ٣٧٥/٣.

الفاعل لها وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم^(١).

٣- تعددت تسميات علمائنا للكلام بحسب المعنى المراد دون أن يذكر كثير منهم المعايير التي قسم للكلام على أساس منها، فقسمه السكاكي إلى خير وطلب^(٢) قال السيوطي: «... وقال كثيرون: أقسام ثلاثة: خير وطلب وإنشاء. قالوا لأن الكلام إما أن يقبل التصديق والتكذيب أو لا، الأول الخير، والثاني إن اقترن معناه بلفظه فهو الإنشاء، وإن لم يقترن بل تأخر عنه فهو الطلب، والمحققون على دخول الطلب في الإنشاء، وأن معنى لضرب مثلاً هو طلب الضرب مقترناً بلفظه، وأما الضرب الذي يوجد بعد ذلك فهو متعلق الضرب لا نفسه. وقال قطرب: أقسام الكلام أربعة: خير، واستخبار - وهو الاستفهام - وطلب، ونداء، فأخرج الأمر والنهي تحت الطلب. وضعف بأن الاستخبار داخل تحته أيضاً، وبأن نحو: بعث واشترت خرج منه.

وقال بعضهم: خمسة: خير، وأمر، وتصريح، وطلب، ونداء. وقال الأخفش: ستة: خير، واستخبار، وأمر، ونهي، ونداء، وتمن. وقال بعضهم عشرة: نداء ومسألة، وأمر، وتشفع، وتعجب، وقسم، وشرط، ووضع، وشك، واستفهام. وقال بعضهم: تسعة، بإسقاط الاستفهام لدخوله في المسألة. وقال بعضهم ثمانية بإسقاط التشفع لدخوله فيها، وقال بعضهم سبعة بإسقاط الشك؛ لأنه من قسم الخير. وقال بعضهم ستة عشر: أمر، ونهي، وخير، واستخبار، وطلب، وجحود، وتمن، وإغلاظ، واختبار، وقسم، وتشبيه، ومجازاة، ودعاء،

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون، ضبط وشرح وتقديم د. محمد الإسكندراني (دار الكتاب العربي - بيروت ط ٢، ١٩٩٨) ص ٥٠١.

(٢) السكاكي، أبو يعقوب بن أبي بكر: مفتاح العلوم، قبايى الحلبي بمصر ط ١ سنة ١٩٣٧، ص ٧٨.

وتعجب، واستثناء. والتحقق لنحصاره في القسمين الأولين، ورجوع بقية المنكورات إليها^(١) وكان قد قال في موضع سابق: «فالحذوق من النحاة وغيرهم، وأهل البيان قاطبة على لنحصاره في الخبر والإنشاء»^(٢).

وقد أكثر العلماء وبخاصة المتأخرون منهم من مناقشة مفهوم كل من الخبر والإنشاء، واستخدموا في ذلك أساليب الجدل والحجاج، وقواعد المنطق والاستدلال^(٣)، وليس بنا الآن أن نعرض لكل ذلك، بل نقصر منه على ما نكروا أنه المشهور وعليه التعويل. قال القزويني: «وجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنه إما أن يكون له خارج يطابقه أو لا يطابقه، أو لا يكون له خارج، الأول الخبر، والثاني الإنشاء»^(٤)، ثم قال: «اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاتب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا فقال الأكثرون صدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له. هذا هو المشهور وعليه التعويل»^(٥).

فالخبر إذن ما كان له وقع يطابقه أو لا يطابقه، فإن طابقه فهو صادق، وإن لم يطابقه فهو كاتب. وأما الإنشاء فليس له وقع يطابقه أو لا يطابقه، ولا يوصف بصدق ولا كذب. وقد عرفنا أن من العلماء من فرق بين الإنشاء والطلب، فالإنشاء ما لفتن معناه بلفظه والطلب ما تأخر معناه عن

(١) السيوطي: مع الهموع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٨، ٤٦/١ - ٤٧ - وانظر: لسبكي: عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص ١٧٢/١.

(٢) السيوطي مع الهموع ٤٦/١.

(٣) انظر: شروح التلخيص - دار الكتب العلمية - بيروت د. ت ١٣٦/١ وما بعدها.

(٤) القزويني: جلال الدين أبو عبد الله: الإيضاح، ضمن شروح التلخيص ١٦٣/١ وما بعدها.

(٥) السابق ١٧٣/١ وما بعدها.

لفظه. قال السيوطي: «والمحققون على دخول الطلب في الإنشاء، وأن معنى لضرب مثلاً هو طلب الضرب مقترناً بلفظه، وأما الضرب الذي يوجد بعد ذلك فهو متعلق الضرب لا الضرب نفسه»^(١) وذكر من حالات الماضي: «أن ينصرف إلى الحال وذلك إذا قصد به الإنشاء كعبت واشترت وغيرهما من ألفاظ العقود، إذ هو عبارة عن إيقاع الفعل بلفظ يقرانه في الوجود»^(٢) وتلك سمة أخرى فارقة تميز الإنشاء عن غيره.

ولعلنا نلاحظ أن ما ذكره من تحديد للخبر ملتبس وغير دقيق؛ فتحديد الخبر بأنه ماله واقع يطابقه أو لا يطابقه، فإن طابقه فهو صادق، وإن لم يطابقه فهو كاذب تحديد غير مستقيم؛ فالأخبار المستقبلية كلها ليس لها واقع تطابقه أو لا تطابقه سواء أكانت مصدرة بنليل استقبال كالسين وسوف ولن وغيرها كقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، و﴿كَسُوفٌ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ حُبِيْبُهُمْ وَيُحْيِيوْنَهُ﴾ و﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أم لم تكن مصدرة بنليل استقبال نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ و﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾. ومن ذلك الأخبار التي تحمل حكماً شرعياً مثل: «يعيد صلاته» في جواب من سأل عن صلى بغير وضوء، و«صوم شهرين متتابعين» في جواب من سأل عن أفطر في نهار رمضان عمداً. ومن ذلك أيضاً الأخبار التي تحمل معنى الطلب مثل أمرك بكذا ونهيك عن كذا، وأسألك عن كذا، وأرجوك أن تفعل، ويجب أن تفعل، فهي عندهم من الخبر لا من الإنشاء،

(١) السيوطي: مع الهمام ٤٧/١.

(٢) السابق ٣٧/١، والمغربى، أبو يعقوب: مواهب اللغات. ضمن شروح التلخيص ١٦٧/١، ١٦٨.

وليس لها واقع تطابقه أو لا تطابقه.

كذلك صدق الخبر أو كذبه، هل هو منوط بذات الخبر؟ أو بذات قائله؟ لأن كان منوطاً بذات الخبر فهذا يعنى أنه لا بد أن يقطع عن سياقها، وهذا ضد الاتجاه المقامى، وإن كان منوطاً بذات قائله فهذا يعنى أن نفتح الباب لاتهام الناس كل الناس بالكذب والشك فيهم، فلا نتلقى منهم خبراً إلا مسترييين فيهم، وهو موقف غير سوى بلا شك فإذا عاملنا الناس على أنهم صادقون إلى أن يثبت العكس سقط هذا المعيار.

وليس من شك فى أن كثيراً من الأخبار لا يقبل للكذب كالأخبار الواردة فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ومثلها الأخبار التى تعبر عن حقائق أو مسلمات، كقولك: الشمس تطلع من المشرق، والخمسة أكثر من الثلاثة والولد أسن من ولده ونحو ذلك، وهناك أخبار أيضاً لا تقبل الصدق كأخبار مدعى النبوة، وكقلب المسلمات نحو الشمس تطلع من المغرب أو الولد أصغر سنّاً من ولده.

وهذا أمر لم يغب عن بعض علمائنا، فالإمام الغزالي نكر أن الأخبار ثلاثة أقسام: القسم الأول: ما يجب تصديقه كالأخبار المتواترة، وما أخبر الله عنه، وما أخبر الرسول به، وما أجمعت عليه الأمة، وكل خبر يوافق ما أخبر الله تعالى عنه أو رسوله، وكل خبر من أمور الدين نكره المخبر بين يدي الرسول وبمسمع منه ولم يكن غافلاً عنه، فسكت عليه، وكل خبر نكر بين جماعة يستحيل تولطوهم فأمسكوا عن تكذيبه.

والقسم الثانى ما يعلم كذبه ومنه ما علم خلافه بضرورة العقل، أو النظر، أو الحس، أو المشاهدة أو أخبار التواتر، كمن أخبر عن الجمع بين

الضدين، وإحياء الموتى فى الحال، وأنا على جناح نسر أو فى لجة بحر،
ومنه ما يخالف النص القاطع من الكذب، والسنة المتواترة، وإجماع الأمة،
ومنه ما صرح بتكذيبه جمع كثير يستحيل فى العادة تواطؤهم على الكذب إذا
قالوا: حضرنا معه فى ذلك الوقت فلم يجر ما حكاه من الواقعة أصلاً، ومنه
ما سكت الجمع الكثير عن نقله والتحدث به مع جريان الواقعة بمشهد منهم
ومع إحالة العادة السكوت عن ذكره لتوفر الدواعى على نقله كالإخبار بأن
أمير البلدة قتل فى السوق على ملاء من الناس ولم يتحدث أهل السوق به.
والقسم الثالث «ما لا يعلم صدقه ولا كذبه فيجب التوقف فيه»^(١).

وأما تحديدهم للإشياء فهو أحسن حالاً وأقوم قبلاً، وإن كان لا يسلم أيضاً من
مأخذ عليه؛ فقد رأينا المحققين منهم يدخلون الطلب فى الإنشاء، لأن الطلب
كما يقولون هو "إيقاع فعل يلفظ يقارنه فى الوجود، فطلب الضرب مقترن
بلفظه فى الوجود". ولا شك أن هذا ينطبق أيضاً على قولك: يضرب زيد
عمراً؛ لأن الإخبار بالضرب مقرون بلفظه فى الوجود. وعندئذ تسقط الحدود
بين الخبر والإنشاء والطلب.

ونخلص من ذلك إلى أمر نراه على درجة بالغة من الأهمية وهو أن
منطلق التفكير فى هذه النظرية عند أوستن وعند علمائنا واحد، فهم لم
يقصروا الكلام - كما فعل فلاسفة الوضعية المنطقية - على ما له واقع إذا
طابقه كان صادقاً، وإذا لم يطابقه كان كاذباً بل تجاوزوا ذلك إلى ما سعى
أوستن جاهداً لإثباته وعده فلاسفة اللغة الغربيون إنجازاً كبيراً، وهو أن من
الكلام ما لا واقع له يطابقه أو لا يطابقه، ولا يوصف بصديق ولا كذيب،

(١) الغزال: المستصفي: ١٦٦/٢.

ووصلوا إلى الفكرة المحورية التي كانت المنطلق إلى وضع هذه النظرية، وهي أن من الكلام ما يكون فعلاً أو إيقاعاً لفعل بلطف يقارنه في الوجود. وليس وراء ذلك تماثل بين وجهتي النظر.

من هنا نرى أننا إذا عدلنا عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، وقسمناه تقسيماً أولياً إلى أفعال يكون اللفظ بها إيقاعاً لفعل، وأفعال تصف وقائع العالم الخارجي أو تخبر بها، أو إلى أفعال إيقاعية وأفعال إخبارية، أو إلى إيقاعات وإخباريات إن شئت الاختصار، فسوف نضع اللبنة الأولى في بناء نظرية عربية للأفعال الكلامية، ونتخلص في الوقت نفسه من تقسيم مضطرب وملتبس.

على أن تقسيم الكلام بحسب مقصود المتكلم إلى إيقاعات وإخباريات لا يزال في حاجة إلى إعادة النظر فيه وبخاصة فيما يتصل بالإخباريات، إذ ينبغي أن تكون مقصورة على وصف وقائع العالم الخارجي، فيخرج بذلك منها كل ما كان دالاً على المطلب بصيغة الخبر، وما كان منها دالاً على التعبير عن حالة المتكلم النفسية والشعورية تجاه الآخرين، فإذا أظهرت لشخص حبك له، أو سعادتك به أو اعتزازك، أو ترحيبك أو مواساتك فإنك لا تلقى إليه خبراً، بل تعبر عن شعور: وكذلك يخرج منها التزام المتكلم أمام غيره بأداء فعل في المستقبل، فحين تقول لصاحبك: أعدك المجرى فأنت لا تلقى إليه خبراً، بل تلتزم أمامه بأداء فعل في المستقبل. ومن ثم نرى أن تقسيم الأفعال الكلامية في اللغة العربية يمكن أن يستفاد فيه من تقسيم أوستن وميرل ومما وضعه سيرل من ضوابط للتقسيم على النحو الآتي:

أولاً: الإيقاعيات:

وهي التي يكون إيقاع الفعل فيها مقارناً للفظه في الوجود، فأنت توقع بالقول فعلاً، وينبغي أن تتسع لتشمل أفعال البيع والشراء، والهبة والوصية، والوقف، والإجارة، والإبراء من الدين، والتنازل عن الحق، والزواج، والطلاق، والإقرار والدعوى والإنكار والتف، والوكالة... إلخ، وهذه كلها يقع الفعل بمجرد النطق بلفظها كما نص على ذلك الفقهاء^(١)، بل إن منها ما يقع وإن كان المتكلم هزلاً، فقد جاء في حديث أبي هريرة المشهور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»^(٢).

وقد وضع الفقهاء شروطاً صارمة لصحة هذا النوع من الأفعال لا تكاد تختلف عن الشروط التي وضعها كل من أوستن وسيرل، وأهمها أن يكون الكلام واضحاً لدلالة على المراد بحيث يفهم منه إيقاع الفعل المراد فهما لا لبس فيه، وأن يكون متبعاً أعراف أهل اللغة، فلا ينعقد الزواج مثلاً بألفاظ الإباحة أو الإعارة أو الإجارة أو الوصية، وأن يعلم كل من المتكلم والمخاطب ما صدر عن الآخر ويوافق عليه، وأن يكون إيقاع الفعل كاملاً، فإذا كان مما يحتاج إلى إيجاب وقبول فلا يكفي الإيجاب وحده ولا القبول وحده، وأن يكون زمن الفعل حاضراً أو مستقبلاً لفظاً ومعنى أو معنى فقط، فإذا كان ماضياً لفظاً ومعنى كان إخباراً^(٣).

(١) محمد مصطفى شبلي: المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، ص ٤٣٤.

(٢) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٢٣/٣.

(٣) انظر: محمد مصطفى شبلي: المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، ص ٤٢٠ وما

بعدها، والسيوطي: معجم الهوامع ٣٧/١.

وقد يكون إيقاع الفعل صريحاً وقد يكون ضملياً، فقد ورد إيقاع الوعد مثلاً صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ ووقع ضملياً في قوله تعالى مخاطباً لموسى: ﴿إِنَّا زَاوُوهُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَاهُ مِن الرُّسُلِينَ﴾ فقد تضمن القول الكريم وعدين: الرد والرسالة، ثم ذكر القرآن الكريم من بعد أن الرد كان وعداً من الله وسكت عن الرسالة؛ لأنه لم يكن قد حان وقتها بعد فقال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمَمٍ نَّكَرَ عَيْبَتُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

ومن اللازم أن نقرر أن هذه الشروط ليس مقصورة على الإيقاعات، بل هي شروط عامة لأداء أى فعل كلامى أداءً ناجحاً، ويضاف إليها شرط الإخلاص فى أداء الفعل، وهو مطلوب أيضاً فى كل الأفعال الكلامية، وتحققه قاعدة لصولية تقول: الأمور بمقاصدها؛ ذلك أن الفعل يعد صحيحاً أو فاسداً - برغم تحقق الشروط الظاهرة - بنية فاعله، فإذا أوقع المرء الفعل بلفظ ونوى عدم إنجازها فإن الفعل لا يقع على وجهه الصحيح؛ بل يقع فاسداً، سواء أكان ذلك فى الإيقاعات أم فى غيرها. قال ابن القيم: «فالنبيّة روح العمل ولبّه وقوامه، وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها. والنبي - صلى الله عليه وسلم - قال كلمتين كفتا وشفقتا وتحتهما كنور العلم وهما قوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» فبين فى الجملة الأولى أن العمل لا يقع إلا بنية، ثم بين فى الجملة الثانية أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه. وهذا يعم العبادات، والمعاملات، والأيمان، والفتور، وسائر العقود والأفعال»^(١).

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١١١/٣.

ثانياً: العلييات:

وهي تضم كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب بغض النظر عن صيغتها، وهو أمر أخذ به الأصوليون والفقهاء وبعض المتكلمين قال الغزالي مشيراً إلى عبارات مثل: أمرتك، وأوجبت عليك، وفرضت وحتمت، فإين تركت فأنت معاقب: «وهذه الألفاظ الدالة على معنى الأمر تسمى أمراً»^(١) وقال: «فإن قول الشارع أمرتكم بكذا» وأنتم مأمورون بكذا» أو قول الصحابي «أمرت بكذا» كل ذلك صيغ دالة على الأمر»^(٢) ثم أورد مناقشتهم لفريق من المعتزلة ينكر كلام النفس ويتحزب في فهمه للأمر ثلاثة أحزاب:

الأول: يزعم أن قوله: «فعل أمر لذاته وجنسه، وأنه لا يتصور ألا يكون أمراً فقول له هذه الصيغة قد تصدر للتهديد كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، وقد تصدر للإباحة كقول عز وجل: ﴿وَإِنَّا حَلَلْنَا مَا صَلَاةُوا﴾ فقال: ذلك جنس آخر، لا من هذا الجنس، وعقب عليه بقوله: وهو منكرة للحص.

أما الحزب الثاني - وفيهم جماعة من الفقهاء - فاعترفوا بأن قوله: «فعل» ليس أمراً بمجرد صيغته ولذاته، بل لصيغته ولتجرده عن القرائن الصارفة له عن جهة الأمر إلى التهديد والإباحة وغيرهما.

بل لقد رأى بعض العلماء أن «فعل» لغير الأمر إلا إذا صرفته قرينة إلى معنى الأمر، لأننا إذا سلمنا بإطلاق العرب هذه الصيغة على أوجه مختلفة فليس أحدها بأولى من الآخر.

(١) الغزالي: المستصفى ١٢١/٣، والشاطبي: الموافقات ١٤٢/٣.

(٢) السابق ١٢٨/٣.

لما الحزب الثالث: وهو من محققى المعتزلة فرأى أن "افعل" ليس أمراً لصيغته وذاته، ولا لكونه مجرداً من القرأتين مع الصيغة، بل يصير أمراً بثلاث إرادات: إرادة المأمور به، وإرادة إحداث الصيغة، وإرادة الدلالة بالصيغة على الأمر دون الإباحة والتهديد وغيرها.

وقد رأى الغزالي أنه لا معنى لاعتبار الإرادة الثالثة لأنها متضمنة فى الأولى^(١) ثم ذكر خمسة عشر معنى استعمالياً لصيغة "افعل"^(٢) فالأمر عندهم كما يرد بصيغته "فعل" أو "فلفعل" يرد بغيرهما فقد يكون بلفظ الأمر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، ولفظ الفرض: ﴿قَدْ قَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تِجْلَةً أَلْبِئْسَ لَكُمْ بِالْقَرْضِ﴾، ولفظ الكتابة: ﴿وَتَحْتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، وبالجار والمجرور ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وبجزاء الشرط: ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، وبالوصف: ﴿قُلْ إِضْلَاحٌ لَّهُمْ غَيْرٌ﴾، وبالوعد بحسن الجزاء عليه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضاعفهَ لَهُ﴾، والوصية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٣).

كذلك النهى يجرى عليه ما قرره للأمر. قال الغزالي: «اعلم أن ما ذكرناه من مسائل الأوامر تتضح به أحكام النواهي، إذ لكل مسألة وزن من النهى على العكس فلا حاجة إلى التكرار»^(٤).

(١) السابق نفسه ١٢٢/٣ فما بعدها.

(٢) الغزالي: المستصطفى ١٢٩/٣ - ١٣٠.

(٣) على حسب الله: أصول التشريع الإسلامى (القاهرة ١٩٥٩) ص ٢١٤.

(٤) الغزالي: المستصطفى ١٩٨/٣.

فالنهي عندهم يتسع ليشمل كل الأفعال الكلامية الدالة على النهي، فيشمل المضارع المسبوق بلا الناهية نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الصَّوْاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾، والأمر الدال على الترك: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، ولفظ النهي: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ولفظ التحريم: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، ونفى الحل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾، ونفى الحدث: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ووصف الشيء بأنه شر: ﴿وَلَا يَجْسِبُ الظَّالِمِينَ يَتَخَلَّفُونَ بِمَا أَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مُوَخَّزِينَ لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾، وجعله سبباً للإثم: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وقرنه بوعيد: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالنِّصَّةَ وَلَا يُتَّقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

والاستفهام داخل في الطلب، لأن الاستفهام كما قالوا استخبار، والاستخبار طلب من المخاطب أن يخبرك عن شيء تريد معرفة خبره^(٢) وله دليل لفظي يدل عليه ويتمثل في حرفي الاستفهام هل والهمزة، وفي أسماء الاستفهام التي تكون ركناً في الإسناد أو مكملاً من مكملاته، ثم في تنغيم الاستفهام. وينبغي أن يتسع أيضاً ليشمل الأفعال الكلامية الدالة على الاستفهام كالمسأل والاستفهام والاستعلام والامتخار والاستبصار، والاستفهام ونحوها.

ويمكننا أن نقرر أن الغرض الإنجازي من الطلبيات هو التأثير في المتكلم ليفعل شيئاً أو يخير عن شيء، وقد فرق السيوطي بين الطلب بالأمر والنهي، والطلب بالاستفهام بالاختلاف في اتجاه المطابقة فقال: «والفرق بين

(١) على حسب الله: أصول التشريع الإسلامي، هامش ص ٢١٩.

(٢) السكاكي: مفاتيح العلوم، ص ١٤٥.

الطلب في الاستفهام وبين الطلب في الأمر والنهى والنداء واضح، فإذ في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل في ذهنك نقش له مطابق، وفيما سواه تنقش في ذهنك، ثم تطلب أن يحصل له في الخارج مطابق* وهو نص صريح في اتخاذ اتجاه المطابقة معياراً للتقسيم، وهو عين ما أخذ به سيرل.

ثالثاً: الإخباريات:

وينبغي أن تقتصر على الأفعال التي تصف وقائع وأحداثاً في العالم الخارجى، ويدخل فيها ما تنقله الصحف ونشرات الأخبار إلينا مما يدور في العالم من أحداث وشئون عسكرية وسياسية وثقافية واجتماعية ودينية واقتصادية وعلمية.

والغرض الإنجازى لهذا النوع من الأفعال هو نقل الواقع نقلاً أميناً، فإذا تحققت الأمانة في النقل فقد تحقق شرط الإخلاص، وإذا تحقق شرط الإخلاص أنجزت الأفعال إنجازاً ناجحاً أو تلماً، وإلا أصبحت أخباراً معيبة. واتجاه المطابقة في هذه الأفعال من الكلمات إلى العالم.

رابعاً: الالتزاميات:

وهي أفعال كلامية يقصد بها المتكلم الالتزام طوعاً بفعل شئ للمخاطب في المستقبل بحيث يكون المتكلم مخلصاً في كلامه، عزماً على الوفاء بما التزم به كأفعال الوعد، والوعد، والمعاهدة، والضمن، والإنذار... إلخ، واتجاه المطابقة في هذا النوع من الأفعال من العالم إلى الكلمات. فالالتزاميات والطلبات تشتركان في اتجاه المطابقة، لكن المرجع فيهما مختلف، فهو في الالتزاميات المتكلم، وفي الطلبيات للمخاطب.

خامساً: التعميرات:

وهي أفعال كلامية يعبر بها المتكلم عن مشاعره في حالات الرضا والغضب والسرور والحزن والنجاح والفشل... إلخ، وليس من اللازم أن تقتصر هذه الأفعال على ما هو خاص بالمتكلم من الأحداث، بل تتعداها إلى ما يحدث للمشاركين في الفعل، وتنعكس أثره النفسية والشعورية على المتكلم. ويدخل فيها أفعال الشكر، والاعتذار، والتهنئة والمواساة، وإظهار الندم، والحسرة، والتمني، والشوق والحب والكراهة... إلخ. ومما ورد منها في القرآن الكريم قوله تعالى على لسان زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْمَعْزَمُ مِنِّي﴾ إظهاراً للضعف وقوله تعالى على لسان مريم: ﴿رَبِّ إِنِّي وَصَّعْتُهَا أَنفِي﴾ إظهاراً للحزن والتحسر.

وليس لهذا النوع اتجاه للمطابقة، إذ بغنى عنه شرط الإخلاص فإذا تحقق أنجز الفعل إنجازاً ناجحاً.

وهكذا نرى أن من الممكن تقسيم الأفعال الكلامية العربية تقسيماً خماسياً يطابق ما قدمه سيرل ويفيد من بعض ضوابطه فيما عدا ما أطلق عليه سيرل الإعلانيات وأطلقنا عليه الإيقاعات لاسمجه مع طبيعة الاستعمال في اللغة العربية، فضلاً عن أننا اخترنا أن نطلق على قسم منها "المطلبيات" واختار أن يطلق عليه "التوجيهيات". ولسنا نزع أن ما قلناه من تقسيم للأفعال استوفى كل الأغراض التي يريد المتكلم أن يحققها بكلامه، ولكنها محاولة للتقسيم أقرب إلى واقع الاستعمال منها إلى نوازع الاستدلال، وظواهر الأشكال.

٤- علمونا على أن الكلام لا ينعقد إلا بالإسناد الأصلي، أو بنسبية

تامة بين طرفين أحدهما المسند إليه والآخر المسند. يقول رضى السدين الأستراباذى فى شرحه لقول بن الحاجب: «الكلام ما تضمن كلمتين بالإسناد، ولا يتكئ ذلك إلا فى اسمين، أو فى فعل واسم»: «هو الكلام ما تضمن الإسناد الأصلي، وكان مقصوداً لذاته... وإنما قال بالإسناد ولم يقل بالإخبار؛ لأنه أعم؛ إذ يشمل النسبة التى فى الكلام الخبرى والطلبى والإنشائى، كما ذكرنا. واحترز بقوله: «بالإسناد» عن بعض ما ركب من اسمين كالمضاف والمضاف إليه والتابع والمتبوع، وبعض المركب من الفعل والاسم نحو ضريك، وعن جميع الأنواع الأربعة الأخر من التركيبات الثنائية الممكنة بين الكلم الثلاث، وهى: اسم مع حرف، وفعل مع فعل، أو حرف، وحرف مع حرف. وذلك لأن أحد أجزاء الكلام هو الحكم، أى الإسناد الذى هو رابطة، ولا بد له من طرفين: مسند ومسند إليه. والاسم بحسب الوضع يصلح لأن يكون مسنداً ومسنداً إليه، والفعل يصلح لكونه مسنداً لا مسنداً إليه. والاسم مع الحرف لا يكون كلاماً؛ إذ لو جعلت الاسم مسنداً فلا مسند إليه، ولو جعلته مسنداً إليه فلا مسند... والفعل مع الحرف لا يكون كلاماً لعجم المسند إليه، وأما الحرف مع الحرف فلا مسند فيهما ولا مسند إليه»^(١).

وذكر أبو يعقوب المغربي أن «الكلام الذى يحسن السكون عليه، لا محالة يتضمن نسبة المسند إلى المسند إليه»^(٢) وبين المقصود بالنسبة فقال: «هى تعلق أحد الطرفين وهما المسند والمسند إليه بالآخر على وجه التمام،

(١) رضى الدين الأستراباذى: شرح الرضى على الكافية. تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار بونس - بنغازى ط ٢، سنة ١٩٩٦، والفزلى: المستقصى ٢٤/١، والسيوطى، مع الهولم ٤٦/١.
 (٢) المغربي، أبو يعقوب: مواهب الفتاح، ضمن شروح التلخيص ١/١٦٥.

وذلك بأن يحسن السمكوت عليه معنى^(١) ويبيّن النسوقى أنه بالنسبة للتامة تخرج النسبة الناقصة كالتقييدية، والتوصيفية، كغلام زيد، والحيوان الناطق فلا يقتضيهما الكلام^(٢)، ورأى السكاكى «أن هذا النوع من الكلام لا يفترق فى تأديته إلى أزيد من دلالات وضعية، وألفاظ كيف كانت ونظم لها لمجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم التعيق» وأعقب ذلك بقوله: «هو الذى سميناه فى علم النحو أصل المعنى»^(٣).

وقد تجاوز عبد القاهر الجرجاني حقيقة وقوع هذا النوع من الكلام فى اللغة العربية إلى القول بأنه لا بدّ وقوع فى اللغات جميعاً فكأنه يريد أن يقول إنه من العالميات اللغوية universals يقول:

«فمن الثابت فى العقول والقائم فى النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه... ولما كان الأمر كذلك أوجب ألا يعقل إلا من مجموع جملة: فعل واسم كقولنا خرج زيد، أو اسم واسم كقولنا زيد منطلق، فليس فى الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل، وبغير هذا الدليل، وهو شئ يعرفه العقلاء فى كل جيل وأمة، وحكم يجرى عليه الأمر فى كل لسان ولغة»^(٤).

وعلى الرغم من أننا لا نوافق عبد القاهر على أن الظواهر المشتركة بين اللغات جميعاً تقرر عقلاً، بل هى تقرر استقراءً فإننا نستطيع أن نقرر

(١) السابق نفسه.

(٢) النسوقى، محمد بن محمد عرفة، حاشية النسوقى على المسند بهامش شروح التلخيص ١/١٦٤.

(٣) السكاكى: مفتاح العلوم، ٧٨.

(٤) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥٢٨.

مطمئنين أن ما يقصده علماءنا بالكلام الذي يقوم على مجرد الإسناد أو نسبة
 المسمند إلى المسمند إليه هو عين ما يقصد أوستن بالفعل اللفظي، ويقصده
 سيرل بالفعل القضوي. أما ما يقصده كل منهما بالفعل الإنجازي وهو الذي
 يحمل قصد المتكلم فيكاد علم أصول الفقه كله يكون قائماً على هذا النوع من
 الأفعال. وقد أوضحنا ذلك بما لا يحتاج إلى تكرار القول فيه عند الحديث عن
 مقصد المتكلم، بل إن علماء الأصول أدركوا ما لم يدركه سيرل وأستاذاه
 ففصلوا القول في الكلام الذي يحمل مقصود المتكلم فسموه من حيث وضوح
 الدلالة إلى واضح وغير واضح، فالواضح ينقسم إلى محكم ومفسر ونص
 وظاهر وغير الواضح ينقسم إلى خفي ومشكل ومجمل ومتشابه وتحدثوا عن
 طرق للدلالة فرأى الجمهور أنها أربعة: دلالة بالعبارة ودلالة بالإشارة ودلالة
 بالفحوى ودلالة بالافتضاء^(١).

على أن الأصوليين لم يكونوا مفردين بهذا الإدراك لما يُطلق عليه
 الأفعال الإنجازية، بل شاركهم في ذلك بعض علماء العربية فقد وجدت نصاً
 لعبد القاهر الجرجاني فيه إدراك بين للمقصود بالفعل اللفظي أو القضوي،
 والفعل الإنجازي. يقول: «ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصد إلى فعل
 من غير أن تريد إسناده إلى شيء مظهر أو مقتر. وكان لفظك به، إذا أنت لم
 ترد ذلك، وصوتاً تصوته مواء»^(٢). ووجدت نصاً للسكاكي واضح للدلالة
 على هذا الإدراك يقول فيه: «.... وأعنى بالفهم فهم نوى الفطرة السليمة،
 مثل ما يسبق إلى فهمك من تركيب: إن زيداً منطلق إذا سمعه العارف

(١) انظر: د. طاهر حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين (الإسكندرية ١٩٨٣)
 ص ١٢٩ فما بعدها.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥٢٧.

بصياغة الكلام من أن يكون مقصوداً به نفي الشك أو رد الإنكار، أو من تركيب: زيد منطلق من أنه يلزم مجرد القصد إلى الإخبار...»^(١).

ومما هو بالغ الدلالة على ذلك أيضاً ما روى من أن الكندي الفيلسوف قال للمبرد: إني لأجد في كلام العرب حشواً يقولون: زيد قائم، وإن زيدا قائم، وإن زيدا لقائم، والمعنى واحد. قال المبرد بل للمعاني مختلفة: زيد قائم إخبار، وإن زيدا قائم جواب عن سؤال سائل، وإن زيدا لقائم جواب عن إنكار منكر قيمه^(٢).

سؤال الكندي وجواب المبرد يكشف لنا عن موقفين أحدهما لفيلسوف لا يرى في الكلام إلا معناه القسوى دون نظر إلى معناه الإنجازي الذي يراد به، فهو لا يرى في الأمثلة السابقة إلا نسبة القيام إلى زيد، والقضية تقوم على هذه النسبة؛ فلم يتجاوزها فكره، أما المبرد فهو لغوي أديب ذو بصيرة حديد بأن المعنى الذي يقصده المتكلم يتخذ له من الوسائل اللغوية والمقامية ما يعين على إدراكه فقد أدرك أن قصد المتكلم مراعى فيه حال المخاطب، فزيد قائم إخبار لأن المخاطب خالي الذهن عن الخبر، وفي "إن زيدا قائم" نفي لشك المخاطب في الخبر، وفي "إن زيدا لقائم" رد لإنكاره.

ولريد أن ألفت هنا إلى أن علماؤنا كانوا على وعى بأن قصد المتكلم الذي تعبر عنه هذه الأفعال هو الذي يحدد الطريقة التي يتحدث بها، ويتغير تعبيره عنه قوة وضعفاً بتغير الموقف الكلامي. فالطالب مثلاً غرض أساسي من أغراض المتكلم سبقت الإشارة إليه، لكنه يتفاوت شدة وليناً؛ فقد يكون

(١) السكاكي: مفتاح العلوم، ص ٧٧.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣١٥.

أمراً على سبيل الاستعلاء بوجب الطاعة، وقد يكون التماساً بين متساويين في المنزلة، وقد يكون دعاء من الأدنى للأعلى^(١) وكل ذلك منظور فيه إلى طبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطب. أما من حيث نوع الطلب فقد يكون طلباً برفق فيكون عرضاً كقول الشاعر:

يا ابن الكرام ألا تكدنو فتبصر ما قد حدثوك فما رام كمن سمعا^(٢)

وقد يكون بحث وإزعاج فيكون تحضيضاً كقوله تعالى: ﴿قَلِّلُوا

تَشْكُرُونَ﴾، و﴿قَلِّلُوا نَفْرًا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾^(٣).

وقد تتمثل درجة القوة في الفعل الإنجازي في اختيار المادة اللغوية التي تعبر عن هذه القوة. فالثناء مثلاً أقوى من المدح؛ لأن الثناء كما يقول أبو هلال العسكري مدح مكرر^(٤) والسب مثلاً أقوى من الشتم؛ لأن السب هو الإذنب في الشتم والإطالة فيه^(٥) وللمز أجهر من الهمز^(٦) والإبلاغ أشد اقتضاء للمنتهى إليه من الإيصال^(٧) والذكاء تمام الفطنة^(٨) والجور أقوى من

(١) السكاكي: مفتاح العلوم، ص ١٥٢.

(٢) ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله؛ شرح ابن عقيل. تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة ط ١٤، ٣٥١/٢.

(٣) الملقى، أحمد بن عبد النور: وصف لمباني في شرح حروف المعاني، تحقيق د. أحمد محمد الخرازمي، دار القلم، دمشق، ط ٢، سنة ١٩٨٥، ص ٣٦١.

(٤) العسكري، أبو هلال: الفروق في اللغة - تحقيق لجنة إحياء التراث في دار الأوقاف الجديدة، بيروت ١٩٨٣، ط ٥، ص ٤٢.

(٥) العسكري: الفروق في اللغة، ص ٤٣.

(٦) السابق، ص ٤٤.

(٧) السابق، ص ٥٦.

(٨) السابق، ص ٧٧.

تقوى من الظلم؛ لأن الظلم نقصان الحق، والجور العدوان عن الحق^(١) والفرع
تقوى الخوف؛ لأنه خوف مفاجئ^(٢)... إلخ.

وقد رتبوا بعض الأفعال من حيث درجة شدتها مع أن غرضها
الإنجازي واحد فقالوا مثلاً^(٣): أول مراتب الحب الهوى ثم العلاقة، ثم العشق،
ثم الشغف، ثم الجوى، ثم التتيم، ثم التئيل، ثم الهيام، وهو أن يغلبه الهوى
فيهم على وجهه.

وهناك وسائل أخرى من الممكن أن تقوى للفعل أو تضعفه كالتبذير
والتتيم وحركات الجسم وتعبير الوجه ونظرة العين^(٤) فضلاً عن مقويات
أخرى مثل: لا ريب، لا جدال، لا جرم، والأفعال الدالة على اليقين مثل أرى،
أعلم، ألقى، وهناك مضعفات مثل أنك، أزعم، إخال، أظن، أرجح، أرتب،
في رأيي، فيما أعلم... إلخ.

٥- ميز علمنا أيضاً الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة وهم
وإن لم يعرفوا هذا المصطلح عرفوا ما يدخل فيه ويندرج تحت وأطلقوا عليه
مصطلحات أخرى لعل أقربها إليه: مقتضى الظاهر وما خرج عن مقتضى
الظاهر^(٥). وقد بذل علماء المعاني والأصول جهداً كبيراً في تحديد المعاني
غير المباشرة أو الخروج عن مقتضى الظاهر على خلاف بين الفريقين فسي

(١) السابق، ص ٢٢٦.

(٢) السابق، ص ٢٣٧.

(٣) إبراهيم اليازجي: نعمة الرائد وشرعة الورود في المترادف والمتولد. مكتبة لبنان
- بيروت ١٩٨٥، ط ٣، ص ٢٤٥.

(٤) انظر: ابن جنى، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار
الكتب المصرية ١٩٥٢، ٣٧٠/٢، ٣٧١.

(٥) انظر: السكاكي: مفاتيح العلوم، ص ١٥٤.

المنهج والهدف. وكان الأصوليون أقرب إلى البحث التداولي من علماء المعاني، فقد عدّ البلاغيون كل خروج عن مقتضى الظاهر بلاغة، والحق أن هذا غير صحيح على إطلاقه، فقد يكون كذلك إذا انضمت إليه خصائص أسلوبية وتخييلية، ولكنه بغير هذه لا يعدو أن يكون معنى اتصالاً يقضيه المقام، فأنت لا تستطيع أن تعد من البلاغة مثلاً قول قائل لصالحه وهما ولقنان أمام مخبز مثلاً: *هل معك نقود؟ مع أنه استفهام لا يراد به معناه الأصلي أو ظاهر لفظه، بل يريد به المتكلم أمرين أن يعلمك أنه ليس معه نقود، وأن يطلب منك إعطاءه نقوداً يشتري بها خبزاً.

على أنني وجدت عندهم إرباكاً واضحاً لمفهوم الأفعال الكلامية ذات المعنى الحرفي أو الأصلي أو المباشر، فقد حدد عبد القاهر الجرجاني نظير ما أطلق عليه سيرل الأفعال الحرفية أو المباشرة بأنها «ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخير عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة قلت: خرج زيد وبالانطلاق عن عمرو قلت: عمرو منطلق^(١). ثم قل مجرّداً هذا النوع من الكلام من المزية؛ «وإذا كان بيننا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه، وأنه الصواب، إلى فكر وروية، فلا مزية، وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخر»^(٢).

وقد كان علماء الأصول - كما قلنا - أكثر نقدة، وأقرب إلى واقع

(١) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٦٢.

(٢) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٢٨٦.

الاستعمال فجعلوا تحت ما يطلق عليه الغربيون الأفعال الحرفية فروعاً، وحددوا المعنى الحرفي أو الأصلي تحديداً دقيقاً، وبينوا أنواعه ووضعوا لكل منها مصطلحاً يميزه عن غيره^(١) فقد أطلقوا مصطلح "المحكم" على ما يدل بألفاظه على معناه الواضح الذي لا يقبل تأويلاً ولا تخصيصاً ولا نسخاً، ومنه قوله تعالى في قافى المحصنات: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة»، ويجب العمل بما دل عليه وجوباً قطعياً، وهو يوافق الأفعال الحرفية أو المباشرة موافقة تامة. ومما يدل بألفاظه على معناه الواضح الذي لا يقبل للتأويل ولا للتخصيص - وإن احتمل النسخ - ما أطلقوا عليه مصطلح "المفسر" كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. فقد فسرت السنة مجمل كل منهما، لكن ظل له معناه الأصلي، ولا فرق بينه وبين المحكم إلا قبول النسخ.

وقد فطن علماء الأصول إلى نوع من الأفعال الكلامية يقصد به معناه الحرفي، لكن هذا المعنى الحرفي ليس للهدف من سوق الكلام بل الهدف معنى حرفي آخر، فالمتعنيان مرادان، لكن أحدهما هو الهدف من سوق الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فهو صريح في تحليل البيع وتحريم الربا، لكن ليس هذا هو الهدف من سوق الكلام، بل الهدف نفسى المماثلة بين البيع والربا رداً على الكفار الذين قالوا: ﴿إِنَّا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، وقد أطلق علماء الأصول على المقصود الأصلي من سوق للكلام مصطلح "النص" وعلى المقصود تبعاً مصطلح "الظاهر".

(١) انظر في تفصيل ذلك: د. طاهر حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين، ص ١٢٩ وما بعدها.

على أنهم عدوا فأطلقوا مصطلح 'دلالة العبارة' على المتبادر فهمه من التركيب سواء أكان مقصوداً أصالة أم تبعاً.

لما الأفعال الكلامية غير المباشرة، وهي التي تدل هيئتها التركيبية على معنى لا يقصده المتكلم، فكأنه يقول شيئاً ويعنى شيئاً آخر، فقد أدرك علماءنا منها نوعين: نوعاً لا يستلزمه الحوار، ونوعاً يستلزمه الحوار عادة، أما النوع الأول فيتمثل في خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أو عن أصل المعنى، وأصل المعنى هو المعنى الحرفي الذي تطابق نسبة الكلام فيه مقصود المتكلم، أو يكون ما قاله هو ما يعنيه. وليس من الممكن عندهم الوصول إلى ما خرج عن الأصل إلا بمعونة القرائن ومقارنات الكلام، من ثم قد يكون من الأولى أن نطلق على هذا النوع من الأفعال المقامية وقد بين عبد القاهر الجرجاني ذلك في إيضاحه للكناية^١ أبلغ بيان فقال: 'فينبغي أن تنتظر إلى هذه المعاني واحداً واحداً وتعرف محصلها وحقاتها، وأن تنتظر أولاً إلى الكناية، وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم 'هو كثير رماد القدر' وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القري والضيق، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفت به أن رجعت إلى نفسك فقلت إنه كلام جاء عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدنوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدر الكثيرة ويطبخ فيها للقري والضيق، وذلك لأنه إذا كثرت الطبخ في القدر كثرت إحراق الحطب تحتها، وإذا كثرت إحراق الحطب كثرت الرماد لا محالة^(١).

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤٢١.

ولعل السكاكي أهم من عرض للأفعال الظلية التي جاوزت معناها
الأصلى إلى معنى مقامى، فقد تجاوز مرد الأعراض التي يخالف فيها ظاهر
اللفظ مراد المتكلم إلى بيان كيفية انتقال المعنى الأصلى إلى المعنى المقامى.

لقد رأى السكاكي أن المعانى الأصلية للطلب خمسة هى التمنى،
والاستفهام، والأمر، والنهى، والنداء^(١) (والتمنى - فيما لرى - ليس طلباً، بل
هو تعبير عن رغبة تحوكم فى النفس فهو داخل فى التعبيرات، أما النداء فلا
يعدُّ فعلاً كلامياً، لأنه لا يعبر عن قضية proposition أو لا يقوم على
الإسناد، وتقديرهم لإسناد محذوف غير مقبول).

على لية حال لقد ذكر السكاكي أن الطلب بأنواعه يخرج عن المعنى
الأصلى إلى المعنى المقامى حتى يمتنع بقرائن الأحوال ومقامات الكلام
إجراؤه على الأصل فيتولد عنه معنى آخر يخالف المعنى الأصلى.

وقد أفاض الرجل فى بيان كيفية انتقال المعنى من الاستفهام - وهو
المعنى الأصلى - إلى معان مقامية، وأكثر من الأمثلة بحيث أصبح ما يريده
شديد الوضوح، وهو يدرك أن المقام قد يمنع إجراء الاستفهام على أصله
فيقتضى المقام أن يتولد عنه تركيب آخر فى البنية الباطنة، ثم لا يلبث أن
يتحول إلى البنية الظاهرة حاملاً معه المعنى المقامى، قال: «... أو إذا قلت
لمن تراه لا ينزل: ألا تنزل فتصيب خيراً، لمتنع أن يكون المقصود بالاستفهام
التصديق بحال نزول صاحبك لكونه حاصلًا، ويوجه بمعرفة قرينة الحال إلى
نحو: ألا تحب النزول مع محبتنا إياه؟ ووآد معنى العرض. وكما إذا قلت لمن
تراه يؤذى الأب: 'لتفعل هذا؟' امتنع توجيه الاستفهام إلى فعل الأذى لعلمك

(١) السكاكي، مفتاح العلوم، ص ١٤٦.

بحالهِ، وتوجه إلى ما لا تعلم مما يلابسه من نحو: ألتصحن؟ وولد معنى الإنكار والزجر، أو كما إذا قلت لمن يهجو أباه مع حكمك بأن هجو الأب ليس شيئاً غير هجو النفس: هل تهجو إلا نفسك؟ أو: غير نفسك؟ لمتنع إجراء الاستفهام على ظاهره لاستدعائه أن يكون الهجو احتمال عندك توجهها إلى غيره، وتولد منه بمعونة القرينة الإنكار والتوبيخ. أو إذا قلت لمن يسمى الأندب: ألم أؤدب فلاناً؟ لمتنع أن تطلب العلم بتأديك فلاناً وهو حاصل، وتولد منه معنى الوعيد والزجر. أو كما إذا قلت لمن بعثت إلى مهم وأنت تراه عندك: أما ذهبت؟ بعد امتناع الذهاب عن توجه الاستفهام إليه لكونه معلوم الحال، واستدعى شيئاً مجهول الحال مما يلابس الذهاب مثل: أما يتوسر لك الذهاب؟ وتولد منه الاستبطاء والتحضيض أو إذا قلت لمن يتصلف وأنت تعرفه: ألا أعرفك؟ لمتنع معرفتك به عن الاستفهام، وتوجه إلى مثل أظنني لا أعرفك؟ وتولد معنى الإنكار والتعجب والتعجيب، أو كما إذا قلت لمن جاعك: أجننتي؟ لمتنع المجئ عن الاستفهام وولد بمعونة القرينة التقرير^(١).

على أن الساكبي لم يقتصر في ذلك على الاستفهام، بل طرده في كل أنواع الطلب، فقال في بيان كيفية انتقال المعنى الأصلي للأمر إلى المعنى المقامي: "... أو كما إذا قلت لمن يدعى امرأً ليس في وسعه: لعله، لمتنع أن يكون المطلوب بالأمر بيان عجزه، وتولد التعجيز والتحدي. أو كما إذا قلت لعبد شتم مولاه وأنت لأبته حق التكبب، أو لوعده على ذلك أبلغ يعاد: لثتم مولاك" لمتنع أن يكون المراد الأمر بالثتم والحال ما ذكر، وتوجه بمعونة قرينة الحال إلى نحو: اعرف لازم الثتم، وتولد منه معنى التهديد^(٢).

(١) الساكبي: مفاتيح العلوم، ص ١٤٧.

(٢) الساكبي: مفاتيح العلوم، ص ١٤٧.

وقال في النهي: «... أو كما إذا قلت لعبد لا يمثل أمرك: لا تمتثل لمرى لمتنع طلب ترك الامتثال لكونه حاصلًا، وتوجه إلى غير حاصل مثل: لا تكثرت لأمرى، ولا تبالي به، وتواد منه معنى التهديد»^(١).

وكذلك فعل في التمني والنداء.

لما للنوع الثاني من الأفعال المقامية فهو الذي يستلزمه الحوار عادة فيرد فيه المخاطب على المتكلم بما لا يصح حرفيًا أن يكون ردًا عليه، ولا يمكن إبراز ذلك إلا بأنواع من الاستدلال يقوم بها المتكلم ليفهم ما رد به المخاطب. وقد يقع ذلك من المتكلم ومن المخاطب معًا في حوار واحد، وتتفاوت مراحل الاستدلال بساطة وتعقيدًا بقرب ما يقوله المتكلم أو المخاطب مما يتوقعه الآخر من رد أو بعده عنه، فمن ذلك ما رواه عن أن الفرزدق دخل البصرة يومًا وذهب إلى المرید فألقى غلامًا ينشد شعراً جزلاً يشبه شعره، فقال له: يا غلام. هل كانت أمك تأتي إلى نمتق؟ فرد الغلام: بل لبي^(٢)، وليس من الممكن أن يكون الغلام قد رد هذا الرد إلا بعد أن مرت بذهنه سريعًا مراحل من الاستدلال انتهى بها إلى أن الفرزدق قصد التعريض بأمه، فما كان منه إلا أن رد له اللطمة بمثلها فكان رده تعريضًا بألم الفرزدق. وليس من شك في أن كل النظريات اللغوية الشكلية تعجز عن تحليل هذا الحوار تحليلًا دلاليًا صحيحًا، فقصارى ما تستطيع هو تحليل المعنى الأصلي أو الحرفي، وهو غير مراد هنا قطعًا.

ومن ذلك أيضًا ما أطلق عليه السكاكي مصطلح "الأسلوب الحكيم"

(١) السابق نفسه.

(٢) د. عبد العزيز قنينة: البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٧، ص ١١٦.

وقد حنّده بقوله: «هو تلقى المخاطب بغير ما يترقب كقول الشاعر:

أنت تشنكى عدى مزاولة القرى وقد رأت الضيفان ينحون منزلى
فقلت كئى ما سمعت كلامها هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى

أو السائل بغير ما يطلب كما فى قوله تعالى: ﴿بَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ قالوا فى السؤال: ما بل الهلال يبدو نقيفاً مثل الخيط، ثم يتزايد قليلاً حتى يمتلئ ويستوى، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، فأجيبوا بما ترى. وكما قال: ﴿بَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَلِيلًا وَالَّذِينَ وَالْأَكْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ سلوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف»^(١).

وقد ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله لتوخى التنبيه له بالطف وجه إلى تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه، أو أهم له إذا تأمل.. «وهل الآن شكيمة الحجاج لذلك الخارجى، وسل سخيمته حتى أثر أن يحسن على أن يسىء، غير أن محرره بهذا الأسلوب؛ إذ توّعه الحجاج بالقيّد فى قوله: لأحملك على الأدم، فقال متغالياً: مثل الأمير يحمل على الأدم والأشهب مبرزاً وعيده فى معرض الوعد، متوصلاً أن يريه بالطف وجه أن لمرأ مثله فى مسند الإمرة المطاعة خليق بأن يُصعد لا أن يُصعد، وبأن يعد لا أن يوعده»^(٢).

على أنى لريد أن أفنت إلى أن أين أبى الإصبع قد نكر للاستلزام للحوارى مصطلحاً آخر غير ما ذكره السكاكى هو مصطلح "الحيدة" وقد

(١) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٥٥ - ١٥٦.

عرفها بقوله: «هو أن يجيب المسئول بجواب لا يصلح أن يكون جوابًا عما سأل عنه» وهو عين ما يقصدونه بالاستئلام الحوارى conversational implicature لكنه لم يقدم شواهد ولا أمثلة له^(١).

وبعد فلعل فيما قدمت من فكر تراثى عربى أصيل ما يؤكد قدرة هذا التراث على المثاقفة والحوار مع بعض النظريات اللسانية المعاصر ندًا لند ونظيرًا لنظير، يفيد ويستفيد.

ولعل فيما قدمت أيضًا ما يقنع بأنه - مع شئ من الضبط المنهجي - يمثل نظرية عربية الوجه واللسان للأفعال الكلامية لا تزال فى حاجة إلى تضافر الجهود لإبرازها وإحكامها، ولعله يحفز إلى الكشف عن النظرية المقامية العربية التى تكمن خلفها.

ولعل فيما قدمت أيضًا ما يحث على تجاوز ما نغرق فيه من جزئيات التراث التى تسد علينا كل منافذ الرؤية الشاملة إلى آفاق من التنظير أوسع وأرحب، وأكثر قدرة على التجديد والتطوير ومواكبة العصر الذى نعيش فيه. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

(١) ابن أبى الإصبع المصرى: بنىع القرآن، تحقيق د. حنفى محمد شرف، ط ٢، دت، ص ٢٨٢.

**التصنيف النوعي للغات
والعاليات**

يقوم هذا البحث على دراسة جانبين متلازمين من جوانب نظرية اللغة قل في الدرس اللغوي المعاصر أن يفترقا، أو أن يدرس أحدهما بمزج عن الآخر، فهنا جانبان لشيء واحد أو هما وجهان لعملة واحدة كما يقولون، ذلك هما التصنيف النوعي للغات language typology والعالميات universals^(١).

والمقصود بالتصنيف النوعي للغات تصنيف لغات العالم أنواعا أو أنماطا types على أساس مما تختلف فيه كل لغة عن غيرها في خواصها التركيبية أو تتفق فيه. وهذا الاختلاف أو الاتفاق ليس عشوائيا كما قد يسبق إلى الظن، ولكنه مرتبط بأسباب، ومحكوم بضوابط وقوانين يكشف عنها التصنيف^(٢).

والمراد بالعالميات السمات اللغوية المشتركة الكامنة تحت الاختلاف الظاهر بين اللغات، التي يكشف البحث التصنيفي عن تماثلها^(٣)، بإنشاء

(١) Comrie, B. (1989): Language Universals & Linguistic Typology. The University of Chicago Press. P. 33, 35.

- Hockett, Ch. F.: The Problem of Universals in Language, in: Greenberg J.H. (ed) 1973: Universals of Language. The M.I.T press. P.61.

(٢) Comrie, B.: Linguistic Typology, in: Newmeyer, F. J. (ed). 1993: Linguistics.

The Cambridge Survey. Vol.1 Linguistic Theory: Foundations. P. 450

- Mallinson, G. & Blake, B.J. (1981): Language Typology. North-Holland Publishing Company, Amsterdam. New York. Oxford. P.7.

- Dressler, W.: Sprachtypologie, in: Althaus, H.P. Henne-H, Wiegand, H.E (Hrsg.) 1980: Lexikon der Germanistischen Linguistik (LGL). Niemeyer Verlag-Tübingen. S. 636.

(٣) Malmkjaer, K.: Language Typology, in: Malmkjaer, K. & Anderson, J.M. (eds) 1991 The linguistics Encyclopedia. London and New York. P. 272.

لمليحة اللغة البشرية human language وإدراكاً لعمل العقل البشري، وإيضاحاً للوحدة النفسية psychic unity عند البشر، ولكتشافاً لشبكة من العلاقات بين اللغات ظاهرة وباطنة، وعونا على صوغ فروض عملية تقوى الحدس العلمي وتساعد عليه، ويمكن بها التنبؤ بظواهر لغوية يتحذر الوصول إليها بالبحث التاريخي أو المقارن^(١). كما يستطاع بها كشف الغموض الذي قد يكتنف بعض الظواهر اللغوية، فضلاً عن إسهام في ترميم reconstruction اللغات الأمات proto-language^(٢).

وظاهر أن بين التصنيف النوعي للغات والعالميات علاقة وثيقة، ولا تعارض بينهما أو تدخل، بل هما متكاملان^(٣). فإذا كان التصنيف النوعي قائماً على الاختلاف بين اللغات فإنَّ العالميات تقوم على ما بينها من تماثل^(٤). والتصنيف النوعي شرط أساسي للقول بالعالميات.

والبحث في العالميات وما يتصل بها من تحديد مفاهيم عالمية للمصطلحات والإجراءات أساس جوهري لبحث تصنيفي واسع المدى. يقول

(١) Greenberg, J. H. (1974): Language Typology: A historical and analytic overview. The Hague-Paris. P. 54 – 55.

- Dressler, W. (1980). S. 636.

- Haarmann, H. Grundzüge der Sprachtypologie Kohlhammer Verlag. Stuttgart (1976). S. 7.

- Hockett, Ch. F. (1973). P. 61.

- Mallinson & Blake (1981). P. 10.

Hopper, P. J.: Historical Linguistics: Typology and Universals, in: (٢) Bright, W. (ed.) 1992: International Encyclopedia of Linguistics Oxford University Press. Vol. 2. P. 136 – 137.

Comrie, B. (1989). P. 33. (٣)

- Crystal, D. (1989): The Cambridge Encyclopedia of Language. Cambridge University Press. P. 84.

Crystal, D. (1989). P. 84. (٤)

هوكت: "القول بأن اللغات التي فيها السمة (أ) فيها أيضًا السمة (ب) قول ينتمي إلى العالميات اللغوية التي تعد نوعًا من الفرض العلمي الناتج عن التحليل التصنيفي. ولهذا فإن التصنيف النوعي شرط أساسي للقول بعالميات لغوية"^(١). ويقول مالينسون وبليك: "البحث في العالميات اللغوية بعد الآن الأساس الجوهري للبحث التصنيفي واسع المدى، والبحث في العالميات يتطلب أيضًا دراسات تصنيفية لإنتاجه عبر أوسع مدى من اللغات"^(٢) فلا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا استقلال لأحدهما عن الآخر إلا أن يكون لغرض الدرس.

وقد غلا كومري - وهو من الباحثين البارزين في هذا المجال - فرأى أن الدراسات التي تحمل عناوينها نكرا لأحدهما دون الآخر إما تفصل بينهما فصلًا متصفاً غير جائز^(٣). ثم وقع هو نفسه. فيما أخذه على غيره^(٤). والحق أن الفصل بينهما في عناوين بعض الكتب والدراسات لا يعنى أن أحدهما معزول عن الآخر أو يقوم دونه، بل يعنى تمليط الضوء على أحد الجانبين دون إسقاط الآخر أو عزله، وعلى أساس من هذا سوف يختص كل منهما في هذا البحث بحديث.

التصنيف النوعي للغات:

ثمة عقبات تعترض طريق من يتصدى لتصنيف لغات العالم، لعل

أهمها ما يأتي:

-
- | | |
|--|-----|
| Hockett, Ch. F. (1973). P. 61. | (١) |
| Mallinson, G. & Blake, B. J. (1981), P. 6. | (٢) |
| Comrie, B. (1989). P. 34. | (٣) |
| Comrie, B. (1993). P. 447. | (٤) |

لا يتفق الباحثون على عدد اللغات في العالم الآن، ويرى أغلبهم أن عددها يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف، ومنهم من يقدر لها مدى أوسع يتراوح بين ثلاثة آلاف، وعشرة آلاف^(١).

ونظر بعضهم إلى أن كثيراً من هذه اللغات لا يتكلمها إلا قلة قليلة من الناس تقدر ببضع مئات، وأن منها ما يواجه خطر الموت بسبب هجرة السكان إلى مواطن فقدوا فيها تراثهم الثقافي واستخدمهم العطررر للغةهم الأصلية، فرأوا أن عدد اللغات التي يعتد بها لا يتجاوز ثلاثة آلاف^(٢). ومهما يكن من أمر فمن الصعوبة بمكان الإجابة القاطعة عن السؤال: كم لغة في العالم الآن؟ ولهذه الصعوبة أسباب من الممكن إجمالها فيما يأتي:

١- التمييز بين اللغة واللهجة:

ليس من الميسور أحياناً القطع بأن جماعتين لغويتين تتحدثان لغة واحدة أو لهجتين للغة واحدة. فهل الصرب والكروات مثلاً يتحدثون لغتين مختلفتين أو لهجتين للغة الواحدة؟ بعبارة أخرى هل تعد الصربية لغة مختلفة عن الكروانية؟ وهل الهولندية Dutch التي يتحدثها الناس في المناطق الواقعة على أطراف هولندا وألمانيا هي الهولندية التي يتحدثها الناس في أمستردام؟

Fromkin, V. & Rodman, R. (1998): An Introduction to Language. (١) Harcourt Brace College Publishers. Orlando. P. 477.

- McArthur, T. (ed.) 1996: The Oxford Companion to the English Language. Oxford University Press. New York. P. 525.

- Crystal, D. (1989). P. 284.

O'Grady, W. - Dobrovolsky, M.-Katamba, F. (1996) Contemporary (٢) Linguistics. An Introduction. Longman London and New York. P. 372.

- West, F. (1975): The Way of Language. An Introduction. USA. P. 42.

أيهما تعد لغة مستقلة، وأيها تعد لهجة من لهجات اللغة الألمانية؟

لقد حاول اللغويون وضع معيار ينحل به هذا الإشكال، فارتضى كثير منهم ما أطلق عليه معيار الفهم المتبادل *mutual intelligibility* وجعلوا له القول الفصل في التمييز بين اللهجات التي تنتمي إلى لغة واحدة، واللغات التي يستقل بعضها عن بعض^(١). وبهذا المعيار يعدون إنجليزية لندن، وإنجليزية إينبره، وإنجليزية كيب تاون، وإنجليزية سيدني، وإنجليزية تورنتو، وإنجليزية ميامي لهجات للغة واحدة هي اللغة الإنجليزية، لأن أصحاب هذه اللهجات جميعًا يفهم بعضهم بعضًا. وبهذا المعيار أيضًا يعدون إيطالية فلورنسا وفرنسية باريس لغتين مستقلتين، لأن أهل إحداهما لا يفهمون الأخرى. وبه أيضًا يعدون الصربية والكرواتية لهجتين للغة واحدة يسمونها الصرب - كرواتية لما بين الناطقين بكل منهما من فهم متبادل، وبه أيضًا لا يعدون الصينية لغة واحدة بل لغات منفصلة (الكانتونيزية، والمندرينية والهكاوية...) ولكل منها لهجات متعددة^(٢). وبه أيضًا يعدون هولندية أمستردام وألمانية ميونخ لغتين مستقلتين، بل يعدون به اللهجة السعودية واللهجة المغربية لغتين مستقلتين لا لهجتين من لهجات العربية الفصحى^(٣).

(١) O'Grady, Dobrovolsky, Katamba (1996). P. 372.

- Fromkin & Rodman (1998). P. 476.

- West, F. (1975). P. 45.

(٢) يرى بعض الباحثين أن هذه لهجات للصينية بالرغم من عدم تحقق معيار الفهم المتبادل بين المتحدثين بها؛ لما يجمع بينها من وحدة الثقافة، والسياسة، والنظام الكتابي. انظر

- Fromkin & Rodman (1998). P. 477.

- Crystal, D. (1989). P. 285.

O'Grady et al (1996). P. 373. (٣)

على أن هذا المعيار اللغوي لا يسلم لهم، إذ تتصارع معه عوامل سياسية، وثقافية واجتماعية وتاريخية، ودينية، وعرقية حين لا تتطابق هذه العوامل مع معيار الفهم المتبادل، فالسويديون والدانمركيون والنرويجيون مثلاً من الممكن أن يفهم كل منهم كلام الآخر على نحو يكثر أو يقل، لكن إذا تدخلت المعايير غير اللغوية أصبح لدينا خمس لغات على الأقل، مع أنهما بمعيار الفهم المتبادل لغتان اثنتان. وكل مثل ذلك في اللغات التي ليس بينها إلا اختلافات لغوية قليلة كالهندية والأوردو، والفلمنكية، والهولندية Dutch والصربية والكرواتية، بل إن هذه العوامل قد تطغى على المعيار اللغوي فتعد لغات ليس بين الناطقين بها فهم متبادل لهجات للغة واحدة، واللهجات الثلاث لـ Lapp (في شمال إسكندنافيا) مثل لذلك^(١).

٢- الاكتشافات:

لا يزال العلماء حتى يوم الناس هذا يكتشفون مناطق من العالم لم يكن لأحد علم بها، بخاصة في حوض نهر الأمازون ووسط أفريقيا وأهل هذه المناطق يتحدثون لغات غير معروفة، لم يضعها اللغويون في الحسبان حين أرادوا الوقوف على عدد اللغات في العالم، ذلك بأن المسح اللغوي للغات العالم ليس شاملاً حتى الآن، بل لم تتوفر إلا في العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة معلومات كافية عن التصنيف المفصل للغات الأفريقية. ولا تزال لغات كثيرة في أمريكا الجنوبية وأستراليا غير معروفة إلى حد ما. وقد يظن أن أهل هذه المناطق يتحدثون لهجة من لهجات لغة معروفة، لكن البحوث

Fromkin & Rodman (1998). P. 476 f.

- Crystal, D. (1989). P. 248.

(١)

الحديثة أثبتت أنها لغات جديدة مستقلة^(١).

٣- حياة اللغات وموتها:

تعد اللغة حية إذا كان لها أهل أحياء يتحدثونها في الوقت الحاضر حديثاً مطرداً. وليس من السهل القول بأن أهل بعض اللغات أحياء أو أموات، فإذا كانوا أحياء فليس من الميسور القول بأنهم لا يزالون يستخدمون لغتهم استخداماً مطرداً أو لا^(٢).

وعلى الرغم من أن العلماء اكتشفوا مناطق من العالم لم يكونوا على علم بها، ووجدوا أهل هذه المناطق يتحدثون لغات غير معروفة لهم فقد تبين لهم أن كثيراً من هذه اللغات يموت سريعاً بسبب القرارات السياسية أو الإغراءات الاقتصادية أو الأمراض الوبائية. وقد سجل الباحثون سنة ١٩٦٢ أن الناطقين بالتروماي Trumai المستخدمة في إحدى قرى فنزويلا نقص عدد مستعمليها بسبب وباء الأنفلونزا إلى أقل من عشرة أشخاص، كما لحظوا أن اللغات الهندية في البرازيل، وكانت في القرن التاسع عشر تقدر بأكثر من ألف لغة، انخفض عددها الآن إلى أقل من مائتين^(٣).

ب - قاعدة البيانات:

يعتمد اللغويون في تصنيفهم للغات على قاعدة بيانات data base تشمل وصفاً للغات التي يرغبون في تصنيفها من المفترض فيه أن يكون دقيقاً

O'Grady et al. (1996). P. 389. (١)

- McArthur (ed.) 1996. P. 525.

Crystal, D. (1989). P. 284. (٢)

- McArthur (ed.) 1996. P. 525.

Crystal, D. (1989). P. 284. (٣)

وشاملاً، وهذا الوصف يتاح لهم من خلال مصادر أولية primary sources ومصادر ثانوية secondary sources ورواة informants^(١).

أما المصادر الأولية فالمقصود بها كتب النحو التي تصف نظام لغة من اللغات، وهذه الكتب إما شديدة الاختصار فلا تشمل كل الظواهر، وإما شديدة الاتساع والتفصيل فلا يطبق الباحثون الصبر عليها والإحاطة بها، ناهيك عن اهتزاز الثقة فيما تقدمه بعض كتب النحو من وصف يتم تحويلاً بالخلط والاضطراب والتناقض. وثمة أمور أخرى تؤثر في دقة الوصف والثقة به، منها: أن يكون الباحث ابناً للغة أو لا يكون، وأن يكون جمعه للمادة اللغوية التي يصفها جمعاً من مصادر أصلية أو وسيطة، وأن يكون للبحث هدف سابق يسعى إلى تحقيقه لو لا يكون^(٢).

وأما المصادر الثانوية فالمقصود بها المصادر التي تأخذ أخذاً مباشراً عن مصادر أصلية، فيكون لها من القيمة العلمية ما لتلك المصادر، لكن المشكل أن عدداً منها يأخذ عن مصادر قديمة تجاوزها البحث العلمي، وبعضها لا يأخذ عن مصدر أصيل أخذاً مباشراً، بل يكون بينه وبين المصدر الأصيل مراجع ثانوية عديدة، وقد اجترح بعض الباحثين هذا الإثم الذي نتج عنه تزيث أخطاء كثيرة، ومن هؤلاء كينان Keenan (سنة ١٩٧٨ ب ص ١٨٥) الذي أخذ مادة دراسته عن دالابون Dalabon، وأخذها هذا عن كومري Comrie (١٩٧٨ ص ٣٨٦ - ٣٨٧)، وأخذها كومري عن سلفرشتاين Silverstein (١٩٧٦ ص ١٢٩)، وأخذ سلفرشتاين عن كابل Capell (١٩٦٢)

Mallinson & Blake (1981). P. 12 f.

(١)

Ibid, P. 14.

(٢)

وهو المصدر الأصيل^(١).

ولعل أفضل المصادر جميعًا المصدر الأخير وهو الرواة informants، وقد زاد اعتماد الباحثين على الرواة الأحياء زيادة كبيرة بعد أن زاد عدد المهاجرين واللاجئين والدارسين والباحثين من جنسيات مختلفة ولغات شتى وأخذ اللغويون منذ وقت بعيد يستثمرون وجود هؤلاء في وصف لغات أخرى غير اللغات الأوروبية التي قتلت بحثًا. ورغم ما يستخدمه الباحثون من وسائل متقدمة في تسجيل المادة اللغوية ووصفها فإن هذه المادة تتعرض في بعض الأحيان لأخطاء الملاحظة errors of observations وأخطاء المبالغة في التعميم over-generalization، وأخطاء تتعلق بالعينات أو النماذج التي يجرى عليها البحث sampling errors فضلًا عن توجيه الاهتمام إلى سمات بعينها، أو الخطأ في إرجاع بعض الظواهر إلى أصل مشترك common parentage^(٢).

ج - منهج الوصف:

من المشكلات المنهجية أن بعض الباحثين الذين يعتمدون إلى وصف لغات ماتت أو انقرضت قد يستخدمون في ذلك معايير وصفت بها لغة حية يعرفونها فيسقطون عليها تصورات وقواعد جاهزة مستنبطة من لغة أخرى، ويضعونها في إطار نظري لا يناسبها^(٣). وقد كان العكس صحيحًا أيضًا في مرحلة مبكرة من الوصف اللغوي، إذ كانوا يصفون لغات حية كالإنجليزية

Ibid, P. 15.

(١)

Bell, A.: Language Samples, in: Greenberg (ed.) 1978: Universals of Human Language. Vol. 1 Method & Theory. Stanford University Press, Stanford, California. P. 126 f.

(٢)

Mallinson & Blake (1981). P. 14- 15.

(٣)

وصفاً مقيماً على وصف لغة ماتت كاللاتينية. وغنى عن الذكر أن لهذا أثره في صحة الوصف ودقة النتائج.

د - العلاقات بين اللغات:

يتجاهل بعض الذين يصفون اللغات ما بين أصحابها من علاقات ثقافية واجتماعية وتاريخية تترك أثرها في اللغات بدرجات متفاوتة قد تؤثر في دقة الوصف. فقد تختلف لغتان تنتميان تاريخياً إلى أصل واحد اختلافاً بينا، وقد تتقارب لغتان تقارباً شديداً من دون أن تنتميا إلى أصل واحد، هذا فضلاً عن أن التقارب والاختلاف لا يكون في الظواهر اللغوية على درجة واحدة، فقد تختلف اللغتان مثلاً اختلافاً بينا في الظواهر النحوية، وتتفقان اتفاقاً ظاهراً في الظواهر الفونولوجية أو يحدث العكس. وقد يكون التقارب شديداً في الثروة اللفظية فتفترض إحدى اللغتين ألفاناً كثيرة من الأخرى من دون أن يكون التقارب على هذا النحو في غيرها من المستويات اللغوية^(١) وليس من الميسور في بعض الأحيان إرجاع التماثل بين اللغات إلى نمط تركيبى، أو أصل وراثى، أو امتداد إقليمى^(٢).

على أن هذه العقبات لم تصرف الباحثين عن المعنى الحثيث إلى تصنيف ما استطاعوا الوقوف عليه من لغات العالم محاولين تذليل الصعوبات، واقتحام العقبات، وحل المشكلات قدر الطاقة بإيجاد المعايير التي تكفل لهم دقة الوصف والتصنيف قدر المستطاع، فقدموا لنا ثلاثة أنواع

Crystal, D. (1989). P. 294.

(١)

Comrie, B. (1993) P. 449.

(٢)

والنظر: ج. فندريس: اللغة. تعريب عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص (القاهرة ١٩٥٠) ص ٣٦١ - ٣٦٣.

أساسية من التصنيف هي التصنيف الجيني أو الوراثي genetic والتصنيف الإقليمي areal والتصنيف اللغوي linguistic^(١). وسوف نعرض الآن إن شاء الله لهذه الأنواع موجزين الحديث في النوعين الوراثي والإقليمي ومفصلين القول في التصنيف اللغوي، وهو المراد بالتصنيف النوعي عند الإطلاق.

التصنيف الوراثي genetic classification:

يرجع تاريخ البحث المنهجي في العلاقات بين اللغات التي يعتقد أنها تنحدر من أصل واحد إلى أواخر القرن الثامن عشر، وقد صالغ تطبيقه على اللغات الهندية - الأوروبية قبولاً واسعاً شجع الباحثين على تطبيقه على مجموعات أخرى من اللغات، فأخذوا يقارنون بين مجموعات منها على نحو منتظم ومفصل للكشف عما بينها من تماثل يسوغ القول بانحدارها من أصل واحد^(٢). من هنا ظهر ما يسمى التصنيف الوراثي للغات على أساس من نسبها أو أصلها descent، فاللغات التي تطورت عن لغة أم تتجمع معاً، ويقال إنها ذات صلة وراثية^(٣). هذه اللغة الأم قد تكون لغة تاريخية استعملت فعلاً في مرحلة زمنية بعينها، ومن ثم يستدل عليها من خلال الوصول إلى

(١) ثمة تصنيفات أخرى لم يرتضها العلماء أهمها التصنيف العرقي الإثنولوجي، وصاحب هذا التصنيف هو فريدريش مار Friedrich Müller، فقد صنف اللغات على أساس المميزات العرقية للشعوب الناطقة بها كتجدد الشعر أو ملامسته. وقد رأى فندريس أنه تصنيف شديد العرقية، ولا يثبت على التحصين، لأنه ليس هناك ارتباط بين اللغة والمميزات العرقية، وكل محاولة للربط بينهما لا طائل من ورائها. (الفندريس: اللغة ص ٢٩٨).

(٢) Crystal, D. (1989). P. 292.

وانظر: رمزي بعليكي: فقه العربية المقارن. دراسات في أصول العربية ومسرفها ونحوها على ضوء اللغات السامية. دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٩ ص ٢٤.

(٣) O'Grady et al (1996). P. 373.

النصوص المكتوبة بهذه اللغة، كما هي الحال في اللغة اللاتينية، وقد تكون مفترضة يستدل عليها بالترسيم reconstruction كما هي الحال في اللغات الأمّات التي لم يعثر لها على نصوص أو شواهد كاللغة الهندية الأوروبية الأمّ واللغة السامية الأمّ. واللغات التي تنحدر من لغة أمّ سواء أكانت تاريخية أمّ مفترضة تسمى لغات شقيقة cognate language، فالعربية والحبشية والآرامية، مثلاً، لغات شقيقة لاتحدوها من السامية الأمّ، والبرتغالية والإسبانية والإيطالية لغات شقيقة لاتحدوها من اللاتينية وهي لغة تاريخية^(١).

ولعلّ أول من مهد السبيل لهذا النوع من البحث في القرن الثامن عشر الباحث الإنجليزي آدم سميث Adam Smith، وعليه اعتمد الأخوان فريدرش وأوجست فيلهلم شليجل في وضع علم اللغة التاريخي والمقارن في بداية القرن التاسع عشر^(٢).

لقد نشط البحث المقارن بين اللغات في القرن التاسع عشر بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية، وكان فريدرش شليجل أول من طالب بجعل اللغة السنسكريتية منطلقاً للمقارنات اللغوية^(٣).

واستطاع فرانتس بوب Franz Bopp (١٧٩١ - ١٨٦٧) في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يقارن بين اللغات الهندية الأوروبية متتبعاً مراحلها التاريخية في محاولة لاستخلاص خصائص اللغة الهندية الأوروبية

Ibid.

(١)

- رمزي بعلبكي: فقه العربية المقارن ص ٢٤.

Dressler, W.: (1980). S. 637.

(٢)

(٣) محمود فهمي حجازي: أسس علم اللغة العربية (القاهرة ١٩٧٩) ص ١٢٨ - ١٢٩.

الأم التي انحدرت منها هذه اللغات^(١).

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر نزع البحث اللغوي إلى إخضاع اللغة إلى ما تخضع له العلوم الطبيعية وصولاً إلى استخراج نظمها، وقوانينها، ومراحل تطورها تكثرًا بنظرية داروين في نشوء الكائنات الحية وتطورها.

وكان شلايشر Schleicher (١٨٢١ - ١٨٦٨) الذي تخصص في العلوم البيولوجية معجبا بنظرية داروين فحاول نقل التفسير التطوري للكائنات الحية إلى اللغات، وقد نظر فرأى علماء النبات يصنفون النباتات في أسر اعتمادًا على ما بينها من تماثل في البنية والخصائص، فانتهج هذا النهج في مقارنة اللغات^(٢). ثم شاع هذا النوع من تصنيف اللغات حتى عدّ تصنيف اللغات في أسر على أسس ما بينها من علاقات جينية أو وراثية أشهر طرائق تصنيف اللغات^(٣).

ولعل أشهر أسرة لغوية هي الأسرة الهندية الأوروبية. وعلى الرغم من أنها تشمل على نحو مائة لغة فهي لا تعدّ أسرة كبرى بالنظر إلى العدد الكلي للغات العالم، لكنها على كل حال كبرى الأسر اللغوية في العالم من حيث عدد المتكلمين بها، إذ يبلغ نحو بلوونى متكلم بها من أهلها^(٤) ولما كان بعض لغاتها أقرب إلى بعضها من بعض فقد كونت اللغات المتقاربة فروعًا

(١) السابق نفسه.

- وانظر: رمزي بملكي (١٩٩٩) ص ١٨ - ١٩.

(٢) محمود فهمي حجازي (١٩٧٩) ص ١٢٩.

Comrie, B. (1993). P. 447.

O'Grady et al (1996). P. 391.

(٣)

(٤)

لهذه اللغة بلغت تسعة هي: الجرمانى، والسلتى، والرومانسى، والهالينسى، والألبانى، والأرمينى، والبليطى، والسلافى، والهندى الإيرانى^(١).

وثمة أسر لغوية أخرى كثيرة^(٢). منها الأسرة الأفريقية الآسيوية وهى أسرة كبرى موجودة فى شمال أفريقيا وشرقها وجنوب غرب آسيا، وهى تشمل على نحو مائتين وخمسين لغة يتحدث بها نحو مائتى مليون، ويعتقدون أن اللغة الأم التى انحدرت منها هذه اللغات وجدت فى الألف للمابع قبل الميلاد، ولها فروع هي: الفرع السامى، وهو صاحب أطول تاريخ وأكبر عدد من المتكلمين، واللغة الكبرى فيه هي اللغة العربية التى يستخدمها لغة أولى نحو مائة وخمسين مليوناً فضلاً عن عدد آخر من الملايين يستخدمونها لغة ثانية، وفرع المصرية القديمة التى يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، والفرع البربرى الذى يبلغ عدد لغاته نحو عشرين لغة يتحدث بها فى شمال أفريقيا نحو اثنى عشر مليوناً. والفرع الكوشى الذى يبلغ عدد اللغات فيه نحو ثلاثين لغة يتكلمها نحو ثلاثة ملايين، والفرع التشادى، وتصنيفه فى الأسرة الأفريقية الآسيوية لا يتم بالوضوح الكامل، وأهم لغاته الهوسا التى يتحدث بها نحو خمسة وعشرين مليوناً بوصفها لغة أولى، وملايين عديدة بوصفها لغة ثانية^(٣).

وعلى الرغم من أن اللغويين نجحوا فى تصنيف آلاف من لغات

Ibid. (١)

- Crystal, D. (1989). P. 298.

(٢) انظر فى تفصيل تلك الفصول ٥٠، ٥١، ٥٢ المعقودة لأسر اللغات فى:

Crystal, D. (1989). P. 292 – 352.

Ibid, P. 316.

(٣)

- Fromkin & Rodman (1998). P. 477.

- محمود فهمى حجازى (١٩٧٩) ص ١٢٣.

العالم في أسر فلا يزال هناك لغات كثيرة ليس من الممكن تصنيفها في أي من هذه الأسر، لأنها لا تمت بصلة تاريخية أو تركيبية لأية لغة أخرى، وقد أطلقوا على هذا النوع من اللغات مصطلح اللغات المعزولة language isolates كلغة الباسك Basque التي يتكلمها الناس في شمال إسبانيا وفي الجنوب الغربي من فرنسا وكالسيومرية من اللغات المنقرضة^(١).

وقد حاول العلماء في السنوات الأخيرة أن يضموا بعض الأسر المتفرقة إلى بعض ألقابها ما أسماه الأسرة الكبرى phylum أو macro family كالأسرة التي أطلقوا عليها الأسرة الأوروبية الآسيوية euroasiatic، ولا تزال هذه المحاولات موضع خلاف حتى الآن، لأنها تتحدى الصيغ المستقرة في علم اللغة^(٢).

ومن الجدير بالذكر أن بعض اللغويين حذروا مما يحمله مصطلح أسرة لغوية من إيحاء بأن اللغات كالأسر فعلاً من حيث الانتماء ودرجات القرابة. وقد وقع في هذا الشرك بعض علماء اللغة الذين تناسوا ما في هذا المصطلح من مجاز فأخذوا يضعون قوائم بأنساب اللغات، واستباحوا القول بأن اللاتينية مثلاً ولدت الفرنسية والإيطالية، وتكلموا من ثم عن اللغات الأمهات واللغات البنات واللغات الأخوات، وبنت الخالات من اللغات^(٣). وكلها فيما يرى فندريس: مصطلحات سيئة لأنها تعطي فكرة زائفة عن علاقة اللغات بعضها ببعض، إذ لا شيء من الشبه بين قرابة اللغات وبين

O'Grady et al (1996). P. 407.

(١)

- Crystal, D. (1989). P. 326.

O'Grady et al (1996). P. 408.

(٢)

Fromkin & Rodman (1998). P. 474.

(٣)

للتتابع أو التوالد بالمعنى الفسيولوجي لهذه المصطلحات^(١).

ويرى 'لنا إذا قلنا إن الفرنسية قد خرجت من اللاتينية فمعنى ذلك أن الفرنسية هي الصورة التي صارت إليها اللاتينية خلال العصور في إقليم من الأقاليم، وإن فليست الفرنسية في كثير من الوجوه إلا اللاتينية نفسها'^(٢).

التصنيف الإقليمي: areal classification

يقوم التصنيف الإقليمي للغات على رصد ما بينها من تماثل ناتج عن تجاورها في نطاق إقليمي أو جغرافي واحد، وليس من الممكن إرجاعه إلى أصل تاريخي ثابت، أو القول بأنه من قبيل المصادفة^(٣).

وليس من شك في أن التجاور المكاني يؤدي إلى أنواع من التبادل التلقائي بين الشعوب المتجاورة، لا بد أن تترك آثارها في لغاتها ثم لا تلبث هذه الآثار أن تصبح ظواهر لغوية تميز إقليمًا بعينه تمييزًا لغويًا عن غيره من الأقاليم. وقد تأخذ هذه الظواهر في البداية صورة الافتراض اللغوي الذي لا يقتصر على الألفاظ، بل يتجاوزها إلى الصيغ والتركييب، وربما تجاوز ذلك كله إلى ما أسماه هومبولت الصيغة اللغوية الداخلية innere Sprachform ويعنى بها القوانين اللغوية الباطنة التي ترسم قوتين الفكر^(٤).

(١) ج. فنتريس: اللغة ص ٣٦٧.

- Crystal, D. (1989). P. 292.

(٢) ج. فنتريس: اللغة ص ٣٦٧.

Dressler, W. (1980). S. 636.

- Comrie, B. (1989). P. 205.

Dressler, W. (1980). S. 637.

- Bussmann, H. (1983) Lexikon der Sprachwissenschaft. Kröner Verlag. Stuttgart. S. 212.

وإذا كان فقهاء اللغة قد وضعوا للدلالة على اللغات التي تتحدث من أصل لغوي واحد مصطلح الأسرة اللغوية language family فقد بنوا المصطلح الألماني الاتحاد اللغوي Sprachbund للدلالة على اللغات التي تستخدم في نطاق إقليمي أو جغرافي واحد، وتشارك في ظواهر لغوية ليس من المستطاع إرجاعها إلى أصل وراثي. وقد شاع استعمال هذا المصطلح في لغته الألمانية في المراجع اللغوية غير الألمانية لما لم يجد الباحثون في الإنجليزية أو غيرها مصطلحاً أدل منه على المراد^(١).

ولعل أبرز مثل للإقليم اللغوي هو الاتحاد اللغوي في البلقان Balkan Sprachbund^(٢). وتتألف نواته من أربع لغات هي اليونانية الحديثة، والأبغانية، والبلغارية، والرومانية. وهذه اللغات الأربع هي في الحقيقة هندية أوروبية لكنها من فروع مختلفة؛ فاليونانية الحديثة تنتمي إلى الفرع الهلنيلي، والأبغانية تمثل فرعاً مستقلاً، والبلغارية تنتمي إلى الفرع السلافي، على حين أن الرومانية تنتمي إلى غصن subbranch من الفرع الإيطالي، وهي تشارك في عدد من السمات ليس من الممكن ردها إلى أصل وراثي. فاليونانية الحديثة مثلاً تشارك مع اللغات البلقانية في سمات تختلف اختلافاً بيناً عن اليونانية القديمة، والبلغارية فيها سمات تشيع في اللغات البلقانية وتخالف اللغات السلافية الأخرى، وقل مثل ذلك في الأبغانية والرومانية^(٣). ولما كان

(١) Comrie, B. (1989). P. 204.

(٢) ثمة تحديات لغوية أخرى كذلك التي في شبه القارة الهندية، وجنوب شرق آسيا، وأمريكا الجنوبية. انظر:

- Mallinson & Blake (1981). P. 17.

- رمزي بعلبيكي (١٩٩٩) ص ٢٣.

(٣) Comrie, B. (1993). P. 448.

- Comrie, B. (1989). P. 205.

- Mallinson & Blake (1981). P. 17.

لهذه اللغات شواهد تاريخية. ودراسات مقارنة مع لغات أخرى ليست داخلية في الاتحاد اللغوي البلقاني، فإننا نستطيع أن نقرر مطلقاً أي السمات ترجع إلى الأصل الوراثي وأيها يرجع إلى الأثر الإقليمي^(١).

على أن من اللازم التنبيه إلى أن من الممكن أن نجد في العالم لغات تظهر فيها الخواص اللغوية التي تميز الاتحاد اللغوي البلقاني، لكنها لا تعدّ عضواً فيه لأنها تقتصر على لتجاور المكاني^(٢).

التصنيف النوعي (- اللغوي) Typological classification :

يقوم التصنيف النوعي للغات على أساس من تماثلها في الخواص التركيبية structural characteristics تماثلاً يميز كل صنف فيها عن آخر دون نظر إلى انتمائها إلى أصل تاريخي واحد، أو امتداد مكاني محدد^(٣).

وإذا كان التصنيف الوراثي يقوم على رصد ما بين اللغات من علاقات تاريخية أدت إلى تماثلها في سمات لغوية معينة، وإذا كان التصنيف الإقليمي يقوم على معرفة ما للامتداد الجغرافي من أثر في لغات متجاورة أدت إلى تماثل بينها في سمات لغوية معينة، فإن التصنيف النوعي يجعل السمات اللغوية هي أساس التصنيف، وبهذا تتخلل فيه لغات تنتمي إلى أصل واحد، ولغات لا تنتمي إلى أصل واحد، وتتخلل فيه أيضاً لغات متجاورة ذات

Comrie, B. (1989). P. 205. (١)

Comrie, B. (1989). P. 51. (٢)

Commrie, B. (1993). P. 449. (٣)

- Hopper, P.J. (1992) Vol. 2. P. 136.

- Dressler, W. (1980). P. 636.

- O'Grady et al (1996). P. 374.

امتداد جغرافي واحد، ولغات متباعدة لا تشملها مساحة جغرافية واحدة^(١) وهو بذلك أعم من النوعين السابقين وأشمل لهما إذ هو متحرر من قيود الزمان والمكان، لا يتقيد بالزمان تاريخي ولا امتداد مكاني، بل يتسع ليشمل السمات المتماثلة التي تشيع في لغات العالم جميعاً، وبه تصبح العلامات اللغوية ظاهرة للعيان. من ثم قد يكون من الغريب أن يقرر رمزي بعليكي أن المنحى الوراثي أو التكويني - كما أتر أن يسميه - هو الأصل، والنوعى هو الفرع^(٢)، ولعله نظر إلى أنهما نشأة فجعله أصلاً، وجعل أحدهما فرعاً^(٣). لكن العلاقة بينهما لا تفهم في ضوء الأصلية والفرعية.

ويعتمد البحث التصنيفي على استقراء لغات العالم للوقوف على السمات التي تستحق الاهتمام من حيث بروزها، وقيمتها اللغوية وشيوعها لتكون أساس التصنيف النوعي. وهو يقوم على افتراضين سابقين: أحدهما أن بين اللغات سمات مشتركة من الممكن الوقوف عليها بمقارنة بعضها ببعض، والثاني أن بين بعض اللغات اختلافات في الخواص والسمات تسوغ تصنيفها في أنماط، فلو لا هذه الاختلافات لصارت كلها نمطاً واحداً أو لغة واحدة^(٤).

والصنيف الناجح هو الذي يزودنا بأكبر قدر من السمات تتميز به

Mallinson & Blake (1981). P. 5. (١)

- Greenberg, J. H. (1974). P. 56.

رمزي بعليكي (١٩٩٩) ص ٢٣. (٢)

ذكر جرينبيرج أن أول من استخدم مصطلح "Typology" بمعنى التصنيف اللغوي (٣)

للغات هم لغويو مدرسة براغ في المؤتمر الأول للقاء اللغة السلافونية المقام سنة

١٩٢٨. انظر:

- Greenberg, J. H. (1974). P. 13.

Comrie, B. (1993). P. 449. (٤)

لغات عن لغات^(١).

لما كيفية التصنيف فقد تكون بإحدى ثلاث كلها مقبول عند الباحثين^(٢):

الأولى: مقارنة عدد محدود من اللغات للوقوف على السمات المشتركة بينها، ثم اختبار تحقق كل سمة منها في أكبر عدد من اللغات.

الثانية: مقارنة أكبر عدد ممكن من اللغات بعضها ببعض للوقوف على السمات الأربع التي تشيع فيها جميعا، وتحديدها، واختبار صدق النتائج.

الثالثة: وضع احتمالات منطقية للتصنيف، ثم النظر فيما يتحقق منها في اللغات وما لا يتحقق، وقد ضرب كومري أسئلة لذلك منها سمة استخدام الضمائر المنعكسة في اللغات. فرأى أن ثمة احتمالات أربعة:

- ١- استخدام ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب جميعا استخداما انعكاسيا.
- ٢- استخدام ضمائر المتكلم والمخاطب دون الغائب استخداما انعكاسيا.
- ٣- استخدام ضمائر الغائب دون المتكلم والمخاطب.
- ٤- عدم استخدام الضمائر استخداما انعكاسيا لأي من المتكلم والمخاطب والغائب.

Hockett, Ch. F. (1973). P. 62.

(١)

Comrie, B. (1989). P. 34 f.

(٢)

- Dressler, W.: (1980). S. 313.

وقال كومري: «وعندما توزع اللغات على هذه الأنماط الممكنة منطقياً فإننا سوف نجد عددًا ضخماً من اللغات يحقق الاحتمال الأول والاحتمال الثاني، والاحتمال الرابع، لكننا لن نجد لغة تحقق الاحتمال الثالث»^(١).

على أن من الممكن أن تكون أية سمة لغوية في لغة من اللغات منطقاً للتصنيف اللغوي بشرط أن يؤدي هذا التصنيف إلى بيان قيمة من قيم التركيب اللغوي، فقد يجوز مثلاً أن نصنف اللغات على أساس ما فيها من تقابل صوتي voice opposition أو خلوها منه، ففي نظام الصوامت في الإنجليزية والروسية واليابانية أمثلة لوجود هذا التقابل، وفي الكيشوية Quechua، والهلوآنية Hawaiian والديربالية Dyrbal (وهي لغة السكان الأصليين في أستراليا) أمثلة للغات التي تخلو من هذه الظاهرة. وعلى الرغم من أن هذا يبدو تصنيفاً جيداً فاللغويون لا يرتضونه، لأنه لا يقدم شيئاً مفيداً لتحليل التركيب اللغوي^(٢).

ويطمح علماء التصنيف النوعي إلى التمكن من مقارنة أنظمة لغوية كاملة بأنظمة لغوية كاملة، ولكنهم لا يزالون يعملون من خلال أنظمة فرعية subsystems على أساس من معايير تصنيفية محددة إلى أن يتمكنوا من تحقيق هذا الطموح^(٣).

ونريد أن نلفت إلى ما بين المنهج المقارن والمنهج التقلابي والمنهج التصنيفي من فرق، فالمنهج المقارن يقلن بين لغات من أصل واحد وصولاً

Comrie, B. (1989). P. 34. (١)

Comrie, B. (1993). P. 450. (٢)

Dressler, W. (1980). S. 636. (٣)

إلى ترميس اللغة الأم، والمنهج التقابلي يقابل بين لغتين لتحديد جوانب الصعوبة في تعلم إحدى اللغتين^(١). أما المنهج التصنيفي فيقارن بين اللغات لكي يصل إلى الظواهر أو السمات المشتركة بين لغات العالم ولكل منها وسائله لبلوغ الهدف الذي يسعى إليه.

وسوف نعرض الآن لأهم ما قدموه من تصنيف للغات على أساس من أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية:

أولاً: النظام الصوتي:

تضع فيسيولوجية أعضاء النطق الإنساني حدوداً لأنماط الأصوات اللغوية التي يمكن إنتاجها، وتضع فيسيولوجية الأذن ومراكز الاستقبال في المخ حدوداً لأنماط الأصوات التي يمكن استقبالها في خطب متصل بوصفها وحدات صوتية متميزة سمعياً وفونولوجياً^(٢)، وذلك مما يجعل الوقوف على النظام الصوتي في اللغة الإنسية ممكناً، ويجعل تصنيف اللغات على أساس من خواصها الصوتية ميسوراً.

وعلى الرغم من أن تصنيف اللغات على أساس من أنظمتها الصوتية لم يلق عناية كافية من الباحثين^(٣) فقد قدموا لنا أنواعاً منه، منها ما هو خاص بالفونيمات فوق القطعية *suprasegmental* ومنها ما هو خاص بالفونيمات القطعية *segmental*، ولعل أشهر تصنيف من النوع الأول هو تصنيف اللغات إلى لغات نغمية *Tonal languages* ولغات غير نغمية *non-tonal languages*

(١) محمود فهمي حجازي (١٩٧٩) ص ٣٤، ٤٠.

(٢) Robins, R.H. (1978): *General Linguistics. An Introductory Survey.* Longman. Hong Kong, P. 336.

(٣) McArthur, T. (ed.). 1996. P. 561.

على أساس مما تقوم به طبقة الصوت voice pitch من وظيفة فونولوجية تتغير بها معاني الكلمات وتتحدد بها بعض فصلاتها النحوية أو لا تقوم^(١) ففي الإنجليزية لا بأس أن تنطق كلمة cat مثلاً بنغمة عالية أو منخفضة، صاعدة أو هابطة، إذ يظل معناها ثابتاً لا يتغير، فالإنجليزية بذلك ونحوه لغة غير نغمية^(٢). أما إذا قامت النغمة بدور في تغيير معنى الكلمة وتحديد فصيلتها النحوية في لغة من اللغات فهي لغة نغمية، ففي الصينية المندرينية (وهي اللغة الرسمية) مثلاً معنى ma إذا نطقت بنغمة مستوية level tone "لم" ومعناها إذا نطقت بنغمة صاعدة rising tone "تنب" ومعناها إذا نطقت بنغمة هابطة dipping tone "حصان" وتصبح إذا نطقت بنغمة هابطة falling فعلاً معناه "وتخ"^(٣).

واللغات النغمية كثيرة في العالم، فثمة أكثر من ألف لغة نغمية في أفريقيا^(٤) وحدها، وكثير من اللغات الوطنية في أمريكا نغمية، وثمة كثير منها في آسيا، ومنها الصينية والفيتنامية، والتايلاندية^(٥).

وثمة تصنيف آخر مثير للاهتمام قدمه جيل Jil سنة ١٩٨٦ على أساس إحصائي، فقد صنف اللغات صنفين^(٦):

Robins, R. H. (1978). P. 274. (١)

Fromkin & Rodman (1998). P. 240 f. (٢)

McArthur, T. (ed.) 1996. P. 562. (٣)

Fromkin & Rodman (1998). P. 241. (٤)

- Richards, J. C.- Platt, J.- Platt, H. (1993): Dictionary of Language Teaching & Applied Linguistics. Longman. Singapore. P. 382.

Rayne, J. R.: Language Universals and Language Types, In: Collinge, N.E. (ed.) 1990 An Encyclopedia of Language. Routledge. Great Britain. P. 314 f. (٥)

لغات ذات إيقاع صاعد iambic languages، ولغات ذات إيقاع هابط trochaic، فالإيقاع الصاعد يعتمد على نبر ضعيف متلوّ بنبر قوى، والإيقاع الهابط على العكس يعتمد على نبر قوى متلوّ بنبر ضعيف، وقد قارن بين الصنفين فأنتهى إلى ما يأتى:

١- اللغات ذات الإيقاع الصاعد تحوى على عدد من المقاطع أكثر مما تحوى عليه اللغات ذات الإيقاع الهابط.

٢- اللغات ذات الإيقاع الصاعد بنيتها المقطعية أبسط من تلك التى فى اللغات ذات الإيقاع الهابط.

٣- اللغات ذات الإيقاع الصاعد فيها توازن نبرى stress-timed، إذ يتوزع فيها النبر على مدد زمنية تكاد تكون متساوية فى تباعداها، على حين أن اللغات ذات الإيقاع الهابط فيها توازن مقطعى syllable-timed.

٤- اللغات ذات الإيقاع الصاعد فيها أصوات غير رنينية non-sonorant (انفجارية، ومزجية، واحتكاكية) أكثر مما فيهما من الرنينية. واللغات ذات الإيقاع الهابط على العكس، فيها من الأصوات الرنينية أكثر مما فيها من الأصوات غير الرنينية.

٥- اللغات ذات الإيقاع الصاعد لغات نغمية، على حين أن اللغات ذات الإيقاع الهابط غير نغمية.

واللغة التركبية أقرب أن تكون ذات إيقاع صاعد، واللغة الإنجليزية أقرب أن تكون ذات إيقاع هابط.

وتصنف اللغات على أساس من نوع النبر فيها هل هو نبر ثابت

fixed stress أو غير ثابت، فتصنف اللغات إلى لغات ذات نبر ثابتة وهي التي يمكن التنبؤ فيها بمواقع النبر، وإلى لغات ذات نبر حرّ free stress وهي التي لا يمكن التنبؤ فيها بمواقع النبر، بل ينبغي معرفته في كل كلمة على حدة. ومن لغات النوع الأول الفرنسية التي يقع النبر فيها دائما على المقطع الأخير من الكلمة، والبولندية والسواحلية اللتان يقع النبر فيهما على المقطع قبل الأخير من الكلمة، والتشيكية والفنلندية اللتان يقع النبر فيهما دائما على المقطع الأول من الكلمة. ومن لغات النوع الثاني الروسية^(١).

لما النوع الثاني وهو الخاص بالفونيمات القطعية فتصنف اللغات فيه على أساس من نظام الصوائت فيها ونظام الصوامت، ثم توزيع الصوامت والصوائت في بنية مقطعية، وذلك على النحو الآتي:

نظام الصوائت:

لما كان نظام الصوائت في لغات العالم يتألف من عدد يمكن حصره من الصوائت القصيرة فقد اتخذ منه الباحثون أساسًا للتصنيف النوعي للغات^(٢).

ولعل أهم دراسة في هذا المجال هي الدراسة التي قدمها جون كرونرس John Crothers عن التصنيف النوعي لأنظمة الصوائت والعالميات معتمداً على "عينة" نموذجية من اللغات تجمع جمعاً متوازناً بين التصنيفين

O'Grady et al (1996). P. 379.

(١)

Ibid, P. 375.

(٢)

- Crothers, J.: Typology and Universals of Vowel Systems, In: Greenberg, J.H. (1978): Universals of Human Language. Stanford University Press, Stanford, California, Vol. 2 Phonology. P. 95 ff.

الوراثي والإقليمي أنجزها مشروع ستانفورد لأرشفة الفونولوجي Stanford Phonology Archiving Project، وشملت حتى كتابة البحث مائتي لغة وتمسكاً^(١). وقد تقتضى عمله في هذه المادة اللغوية الضخمة أن يسمط الفونيمات الهامشية marginal التي يقل ترددها في العينة أو يندر. وقد استخلص الرجل منها اثني عشر تصنيفاً كل منها مؤسس على عدد الصوائت المستخدمة في اللغات ونكتفي هنا بأن نذكر منها أملاً سنة هي أكثر شيوعاً، وتمثل نحو ٨٠٪ من اللغات في العينة^(٢).

١- لغات ذات نظام ثلاثي، وله صورة واحدة هي:

/ i a u / وتمثله في العينة ثلاث وعشرون لغة.

٢- لغات ذات نظام رباعي، وله صورتان، الأولى منهما

/ i e a u / وتحققها ثلاث عشرة لغة، والثانية / i i a u / وتحققها تسع لغات، فالمجموع اثنتان وعشرون.

٣- لغات ذات نظام خماسي، وله صورتان الأولى منها / i e a u o / وتحققها خمس وخمسون لغة، والثانية / i e i a o / وتحققها خمس لغات، فالمجموع ستون.

٤- لغات ذات نظام سداسي، وله صورتان الأولى منهما // i e e u o o / وتحققها سبع لغات، والثانية / i e i a u o / وتحققها تسع وعشرون لغة، فالمجموع ست وثلاثون.

Crothers, J. (1978). P. 95.

(١)

Ibid, P. 104.

(٢)

٥- لغات ذات نظام سباعي، وله صورتان أساسيتان، الأولى /ieɔauoɔ/ وتحققها إحدى عشرة لغة، والثانية /ieɔauoɔ/ وتحققها أربع وعشرون، فالمجموع خمس وثلاثون.

٦- لغات ذات نظام تساعي^(١)، وله صورة أساسية واحدة هي: /iesiauoɔ/ وتحققه سبع لغات.

وقد أظهر تحليل كرونرلس لهذه الأنظمة نتائج تصلح أن تكون أساساً لصياغة عالميات لغوية منها^(٢):

١- النظام الخماسي أكثر هذه الستة شيوعاً، ومن الممكن أن يعدّ النمط الأساسي للغات العالم، وهذا أمر أكده باحثون آخرون^(٣).

٢- كل اللغات فيها الصوائت /iau/.

٣- اللغات ذات النظام الرباعي فيها /i/ أو /ɛ/.

٤- اللغات ذات النظام الخامس فيها /ɛ/ وفيها بصفة عامة أيضاً /o/

٥- اللغات ذات النظام السادس فيها /o/ وفيها بصفة عامة أيضاً /i/.

٦- اللغات ذات النظام السباعي فيها /eo/ أو /io/.

٧- اللغات ذات النظام التساعي فيها بصفة عامة /o/.

٨- التقابل بين نوعيات الصوائت الخمسة الأساسية هو المعتاد في اللغة

Ibid, P. 104.

(١) انظر الرسم البياني الذي يبين عدد اللغات التي يستخدمها كل نظام من ١٠٥ من المرجع السابق.

Ibid, P. 115.

O'Grady et al (1996). P. 375.

(١)

(٢)

(٣)

البشرية، وأكثر الأنظمة شيوعاً هي تلك التي تقترب من هذا العدد من
الصوائت الأساسية.

٩- عدد الصوائت الأنفية مساوٍ أو هو أقل من عدد الصوائت القموية.

١٠- ثمة نزوع إلى أن تكون الصوائت المرتفعة والمنخفضة في نظام
الصوائت القصيرة أقرب إلى المركزية من نظيرتها من الصوائت
الطويلة.

وقد ذكر باحثون آخرون أن العربية تنتمي إلى النظام الثلاثي^(١) وأن
بعض لغات أريزونا تنتمي إلى الرباعي^(٢)، واللاتينية إلى الخماسي،
والإيطالية إلى السباعي، والإنجليزية إلى التساعي^(٣).

ومن النتائج التي توصل إليها بعض الباحثين أن الفونيم الصوائت
الأكثر شيوعاً هو / a / وهو يستخدم في كل اللغات تقريباً، ويليه في الشروع
الصائتان / i / و / u /^(٤).

ومن الباحثين من ذكر أن اللغات تصنف أيضاً بناءً على أنماط التقابل
بين الصوائت كالثقوى في مقابل الأنفي، والطويل في مقابل القصير،
فالإنجليزية مثلاً فيها تقابل بين الصوائت الثقوى لكن ليس فيها تقابل بين
الصوائت الأنفية والصوائت القموية، والفنلندية فيها تقابل بين الصوائت
الطويلة، والسواحلية فيها تقابل بين الصوائت القصيرة / i e a o u / لكن

(١) رمزي بعلبكي (١٩٩٩) ص ٣٢.

(٢) السابق نفسه.

O'Grady et al (1996). P. 375.

Ibid, P. 376.

(٣)

(٤)

ليس فيها تقابل بين الصوائت الطويلة والقصيرة^(١).

وقد تصنف اللغات أيضا على أساس من بساطة الصائت وتركيبه، ومن علوه وانخفاضه، ومن كونه أماليا أو خلقيا أو مركزيا، ومن استدارة الشفتين عند التلق به أو انبساطهما^(٢).

نظام الصوائت:

غير ممكن تصنيف اللغات على أساس من عدد الصوائت فيها - كما كانت الحال في الصوائت - ذلك بأن عدد الصوائت في اللغات شديد التفاوت، إذ هو في بعض اللغات لا يزيد على ثمانية صوائت، ويزيد في بعض آخر على تسعين، ففي اللغة المسماءة كونج Kung - وهي لغة مستعملة في ناميبيا - يصل عدد الفونيمات الصائتة إلى ستة وتسعين فونيمًا^(٣). وإنما تصنف اللغات على أساس من مخارج الفونيمات أو مواضع نطقها، وصفاتها الصوتية، وما تختص به لغات عن لغات من تنوعاتها في هذين الجانبين تميزها عن غيرها.

وقد ظهر من تحليل اللغات أنها تشترك جميعا في المخارج الأساسية: الشفوية، والأسنانية، واللثوية، والحنكية، وفي الصفات الصوتية الأساسية كالجهر والهمس، والانفجار والاحتكاك، والأنفية والشفوية، لكنها تتميز بتنوعات تتمثل في عدد المخارج، والعمليات المميزة لكل نظام^(٤)، فالصوائت الانفجارية والأنفية في الإنجليزية مثلا تقع في نظام يتكون من ثلاثة مخارج

O'Grady et al (1996). P. 376 f.

(١)

Robins, R.H. (1978). P. 340.

(٢)

O'Grady et al (1996). P. 377.

(٣)

Robins, R.H. (1978). P. 338.

(٤)

هي الشفوي bilabial وللثوى alveolar، والطبقي velar، وثلاث عمليات هي الهمس، والجهر، والألفية^(١):

/p/	/t/	/k/
/b/	/d/	/g/
/m/	/n/	/ŋ/

على حين أن لها في اليونانية القديمة نظامًا يتكون من ثلاثة مخرج هي: لشفوي، والأسناني dental، والطبقي، وأربع عمليات هي أنها مجردة من الهائية unaspirated، وهائية aspirated، ومجهورة voiced وألفية nasal^(٢):

/p/	/t/	/k/
/p ^h /	/t ^h /	/k ^h /
/b/	/d/	/g/
/m/	/n/	/ŋ/

والإنجليزية الفصحى لا يظهر فيها أي استعمال متميز للتمييز glottalization على النحو الذي استخدمه الناطقون بالكوكلي cockney مثل^(٣)، ولا يظهر في الإنجليزية (ولا العربية) أي استعمال متميز للصوامت اللغوية ejective، ولكن المعتقد أنها كانت في السامية الأم بدليل وجود بقايا منها في الحبشية، وهذا الاعتقاد قد يفسر تحول القاف في الفصحى إلى همزة في بعض العمليات^(٤).

Ibid, P. 340.

Ibid.

Ibid, P. 338.

(٤) رمزي بعلبكي: (١٩٨٠) معجم المصطلحات اللغوية. دار العلم للملايين - بيروت ص ١٦٧.

وتصنف اللغات بناء على ما فيها من صوامت مجهورة ومهموسة، فأغلب اللغات فيها النوعان، لكن بعض اللغات في شمال اليابان ليس فيها إلا صوامت مهموسة، وأغلب اللغات فيها فونيمات احتكاكية، لكن بعض اللغات ليس فيها فونيمات احتكاكية كذلك التي في شمال استراليا والجنوب الشرقي من السودان^(١). وهناك لغات فيها صوامت مزجبة affricates كالإنجليزية والألمانية والعربية، ولغات تخلو منها كالفرنسية^(٢).

وقد أظهر التصنيف النوعي للغات أن شيوع الفونيمات الانفجارية هي الفونيمات /p, t, k/ وأن قليلا من اللغات تقتصر إلى واحد من هذه الصوامت الثلاثة. وليس هناك لغة تقتصر إلى هذه الثلاثة جميعا؛ فإذا فقدت لغة واحداً منها فالأغلب أن يكون /p/ كما في (العربية) والنوبية، وأكثرها استخداما هو الفونيم /t/، وأن شيوع الصوامت الاحتكاكية هو /s/، وبعض اللغات تقتصر إليه، فإذا كان في بعض اللغات فونيم احتكاكي واحد فالأغلب أن يكون /s/ كبعض اللغات المستخدمة في كينيا، والفونيم الذي يليه في الشيع هو /f/ ^(٣).

وقد أظهر التصنيف النوعي أيضاً أن كل لغة معروفة فيها فونيم أنفي واحد على الأقل، فإذا لم يكن في بعض اللغات إلا فونيم أنفي واحد كان /n/، فإذا كان فيها فونيمان أنفيان متقابلان كانا /m/ و /n/ ^(٤).

وأظهر التصنيف النوعي أيضاً أن أغلب اللغات فيها على الأقل فونيم

O'Grady et al (1996). P. 378.

Ibid.

O'Grady et al (1996). P. 377.

Ibid, P. 377.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

مائع liquid واحد. وقليل منها يخلو من هذا النوع من الأصوات كبعض اللغات المستخدمة في نيجيريا وإكواتور^(١).

وتصنف اللغات على أساس من أنماط التركيب المقطعي المسموح بها، فبعض اللغات تنحو نحو البساطة في تركيبها المقطعية كاللغة الفيجية Fijian مثلاً، وبعضها يتميز بدرجة عالية من التعقيد في البنية المقطعية كبعض اللغات القوقازية، وبينهما لغات تقترب من هذا النمط أو ذلك؛ من أجل ذلك اقترح بعض الباحثين أن ترتب اللغات على مقياس scale على أساس من درجة البساطة أو التعقيد في بنيتها المقطعية، فتكون اللغة ذات الدرجة العالية من التعقيد في جهة منه يتلواها أو يعلوها لغات أقل فأقل حتى نصل إلى اللغة ذات الدرجة العليا في بساطة التركيب المقطعي فتكون في أقصى الجهة الأخرى من المقياس^(٢).

وتصنف اللغات أيضاً على أساس ما تسمح به بنيتها المقطعية من عنايد الصوامت في بداية المقطع ونهايته، فبعض اللغات كالإنجليزية تسمح بأن ينتهي المقطع بصوت أنفي يليه صوت انفجاري، كما في hand مثلاً، لكن ليس من المسموح به أن يبدأ المقطع بهما، على حين أنه في السواحلية mizi (موز) لكنه ممتنع في نهاية المقطع، لأن المقطع في السواحلية تنتهي بالصوائت^(٣). وفي اللغة العربية لا يجوز أن يبدأ مقطع بصامتين متتاليتين، ولا بصائت، ولهذا حين تستعمل كلمة أجنبية تبدأ بصامتين فإن العربي غير

Ibid, P. 377.

Robins, R.H. (1978) P. 339 f.

Ibid, P. 379.

(١)

(٢)

(٣)

المدرّب على النطق الأجنبي يضع بينهما صلاتًا، أو يجعل أحدهما نهاية مقطع والآخر بداية مقطع آخر^(١) ومثل ذلك يحدث في لغات أخرى، فحين استعارت الهاوائية Hawaiian عبارة Merry Christmas أصبحت Mele Kalikimaka لأن هذه اللغة تخلو من فونيمى / r / و / s /^(٢).

ثانياً: النظام الصرفي:

يعدّ تصنيف اللغات على المستوى الصرفي أقدم أنواع التصنيف النوعي، وأقربها إلى الضبط والشمول^(٣). ولعلّ أهم من مهدّ الطريق له في القرن الثامن عشر الباحث الإنجليزي آدم سميث Adam Smith الذى سبق إلى التمييز بين اللغات التحليلية analytic واللغات التاليفية synthetic، وقد اعتمد عليه في بداية القرن التاسع عشر الأخوان فريدريش وأوجست فيلهلم شليجل اللذان يرجع إليهما وضع علم اللغة التاريخي والمقارن في ألمانيا ولوروا^(٤)، وقد استطاع أوجست فيلهلم شليجل أن يطور لفكار أخيه فريدريش فاقترح تقسيماً ثلاثياً لأنماط التصنيف لا يزال مقبولاً حتى الآن^(٥):

أ - لغات تخلو من أية تراكيب وظيفية تعتلّ جذور الكلمات، كالصينية التى لا تتغير فيها جذور الكلمات تغيراً داخلياً، ولا تضاف إليها لزوائد.

(١) أحمد مختار صر: دراسة الصوت اللغوي (القاهرة ١٩٧٦) ص ١٥٨.

- محمد على الخولي: الأصوات اللغوية (الرياض ١٩٨٧) ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) O'Grady et al (1996). P. 379.

(٣) Malmkjaer (1990). P. 272.

(٤) Dressler, W. (1980). P. 636.

- Payne, J.R. (1990). P. 315.

(٥) Payne, J.R. (1990). P. 316.

ب - لغات تستخدم الزوائد بأن يضاف إلى الجذور الثابتة فيها زوائد ثابتة الصيغة كالإسك واللغات الهندية الأمريكية.

ج - لغات متصرفة تعكس فيها جذور الكلمات تحديلاً داخلياً سواء أضيفت إليها زوائد أم لم تضاف كاللغات الهندية الأوروبية الكلاسيكية ومنها اليونانية واللاتينية والمنسكريفية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة كلغات المجموعة الرومانسية.

وقد أضاف هوبولت من بعد إلى هذا التقسيم نمطاً رابعاً أطلق عليه اللغات النمجية incorporating، وأطلق على الأنماط التي قدمها شليجل مصطلحاتها التي لا تزال تعرف بها إلى اليوم وهي^(١):

- | | |
|---------------|----------------------|
| Isolating | أ - اللغات العزلية |
| Agglutinating | ب - اللغات اللصقية |
| Inflectional | ج - اللغات التصريفية |
| Incorporating | د - اللغات النمجية |

وعلى الرغم من أن هناك محاولات أخرى ظهرت لتصنيف اللغات على نحو يخالف في قليل أو كثير تقسيم شليجل وهوبولت، وعلى الرغم من أن النحويين الجدد Neo-Grammarians لم يعتقدوا بهذا النوع من التصنيف، ورأوا أن التصنيف العلمي الحق هو التصنيف اللورثي^(٢)، فإن هذا التصنيف

Ibid, P. 318.

McCarthy, A.C. (1992): Current Morphology Routledge, London and New York. P. 166.

- Malmkjaer (1990). P. 373.

لا يزال أهم تصنيف، ولا تكاد تجد بلحاً يعرض للتصنيف النوعي من الناحية الصرفية إلا كانت له به عناية ودراية، ولهذا سوف أوجز القول في كل قسم، ثم أشير إلى بعض المحاولات الأخرى.

١ - اللغات العزلية: isolating (وقد يطلق عليها مصطلح اللغات التحليلية analytic أو الجزرية root languages)^(١):

وهي اللغات التي تتكون الكلمات فيها من مورفيم جزري واحد له معنى meaning واحد أو وظيفة نحوية grammatical function ولا تدخلها الزوائد affixes، ولا تتغير الكلمات فيها بتغير الحالة الإعرابية، ولا تتغير صيغة الفعل عند التعبير عن الشخص أو العدد أو الزمن، وليس فيها نهايات إعرابية ending، وتعتمد في بيان العلاقات النحوية فيها على الكلمات الوظيفية (وأكثرها أحادي المورفيم) وعلى ترتيب الكلمات في التركيب^(٢). ومن هذا النوع من اللغات الصينية المندرينية، والكانتونية، والفيتنامية، والكمبودية، ولغات عديدة في جنوب شرق آسيا^(٣).

ويرى بعض الباحثين أن الإنجليزية أيضاً من هذا النوع^(٤)، وربما كانت الصينية أقربها جميعاً إلى النمط النموذجي^(٥).

(١) Crystal, D. (1989). P. 293.

(٢) O'Grady et al (1996). P. 380.

- Comrie, B. (1993). P. 451.

- West, F. (1975). P. 119.

- رمزي بطيحي (١٩٩٩) ص ٣٣.

(٣) O'Grady et al (1996). P. 380.

- West, F. (1975). P. 119.

(٤) West, F. (1975). P. 119.

(٥) Ibid.

٢- اللغات اللصقية / agglutinative / agglutinating :

وفيها تتكون الكلمات من جذور ثابتة وزوائد تلتصق بها، لكل منها معناها المحدد ووظيفتها الثابتة، ومن الممكن تقطيعها وفصل بعضها عن بعض، وهي تعتمد على هذه الزوائد الثابتة في بيان العلاقات بين الكلمات، وإن كان من الصعب التمييز فيها بين الزوائد الاشتقاقية derivational والزوائد التصريفية inflectional، ومن الممكن فيها أن تلتصق الزوائد الاسمية أو الفعلية بأى جذر؛ لأن جذور الكلمات فيها لا تتل على نوع الكلمة ولا على فصيلتها الكبرى، وليس فيها جناس بين الزوائد أو ترانف، والمطابقة النحوية فيها مفقودة، ونظام الجملة صلرم، وتستخدم المصدر واسم الفاعل واسم المفعول بدلاً من الجمل الفرعية، وتكاد تخلو من حروف الربط^(١) ومن هذا النوع من اللغات التركية، والفنلندية، واليابانية، والسواحلية، والهنجارية، والجورجية، والباسك، ولغة الإسكيمو^(٢).

٣- اللغات التصريفية inflecting / inflectional (ويطلق عليها أيضاً اللغات التأليفية synthetic واللغات الصهرية fusional):

ويتميز فيها عن الوظائف والعلاقات النحوية بتعديل التركيب الداخلي للكلمات، واستخدام النهايات المتصرفة، وتشير فيها الزوائد إلى فصول نحوية متعددة تزامنياً simultaneously، فقد تشير لاحقة واحدة في وقت واحد إلى

(١) McCarthy, A.C. (1992). P. 167.

- Mallinson & Blake (1981). P. 20.

(٢) Crystal, D. (1989). P. 451.

- Mallinson & Blake (1981). P. 20.

- Dressler, W. (1980). P. 318.

McCarthy, A.C. (1992). P. 167.

فصيلا الجنس، (منكر، مؤنث، محايد) وإلى فصيلا العدد (مفرد، مثنى، جمع)، وإلى الوظيفة النحوية (مسند إليه، مفعول به.... الخ)، وليس من الممكن تقطيع الزوائد في هذا النمط من اللغات. وثمة مجامعة بينها، والمطابقة النحوية شائعة في هذا النمط من اللغات، ونظام الجمل فيها حر، والجمل الفرعية مستخدمة فيها^(١)، وتعدّ اللاتينية واليونانية والعربية من هذا النوع من اللغات^(٢).

٤ - اللغات التجميعية: polysynthetic / incorporating :

أضاف هوبولت هذا النمط ليكون جامعاً للغات الهندية الأمريكية التي تتكون الكلمات فيها من سلسلة طويلة من الجذور والزوائد لتعبر غالباً عن المعاني التي تعبر عنها جملة كاملة ومن هذا النوع من اللغات لغة الإسكيمو التي تسمى Greenlandic Eskimo وبعض اللغات الأسترالية^(٣).

على أن من اللغويين من لا يعتد بهذا النمط، ويعدّه داخلاً في نمط اللغات اللصقية، بيد أن اللصق فيها بلغ أقصى مداه^(٤). وثمة بعد ذلك أمران ينبغي الالتفات إليهما:

(١) O'Grady et al (1996). P. 380.

- Comrie, B. (1993). P. 402.

- رمزي عطيكى (١٩٩٩) من ٣٣.

(٢) Crystal, D. (1989). P. 293.

- Comrie, B. (1993). P. 452.

- O'Grady et al (1996). P. 380.

(٣) Comrie, B. (1993). P. 452.

- Mallinson & Blake (1981). P. 21.

- Crystal, D. (1989). P. 293.

(٤) Mallinson & Blake (1981). P. 21.

أولهما: أن بعض الباحثين أطلق على هذه الأنماط أحكاماً قيمة فزعم أن النمط العزلي نمط بدائي Primitive، وأن النمط اللصقي أكثر تطوراً منه، أما النمط التصريفي فهو أكثر تطوراً منهما معاً، وواضح أنه زعم لا يثبت على التمهيص^(١).

والثاني: أنه ليس في العالم لغة تنتمي لتتواء كمالاً إلى أي نمط من هذه الأنماط ولكن التصنيف بنى على ما غلب عليها ولست تعلم أن تجد في لغة واحدة أمثلة لهذه الأنماط جميعاً^(٢) من أجل ذلك قدم بعض اللغويين اقتراحاً، بأن تصنف اللغات تصنيفاً مورفولوجياً من خلال نظم الرتبة rank system فترتب اللغات على أساس من درجة اقترابها من النمط أو ابتعادها عنه^(٣).

وجدير بالذكر أن جرينبرج قدم سنة ١٩٦٠ محاولة للتصنيف المورفولوجي إلى هذه الأنماط الأربعة على أساس إحصائي، فأخذ قطعة من نص من كل لغة وعدّ ما فيها من مورفيمات وكلمات، وانتهى إلى أن الأغلب في اللغات العزلية أن تتكون الكلمة فيها من مورفيم واحد وأن اللغات اللصقية تستخدم مورفيمات مقيدة أكثر من استخدام اللغات التصريفية لها. والثمرة الواضحة لهذه المحاولة أن التصنيف قام على أساس إحصائي منضبط بعد أن كان قائماً على التقدير الحسي intuitive^(٤).

وثمة محاولة أخرى لتصنيف اللغات من الوجهة الصرفية لا تزال -

Ibid. (١)

McCarthy, A.C. (1992). P.167. (٢)

- West, F. (1975). P. 122.

West, F. (1975). P. 122. (٣)

Mallinson & Blake (1981). P. 22. (٤)

على الرغم من قدمها - تلقى قبولاً من الباحثين حتى اليوم هي محاولة فرانتس نيكولاوس فنكن Franz Nicolaus Finchs التي قدمها سنة ١٩٠٩، وقد صنف اللغات فيها إلى ثمانية أصاط^(١).

١- لغات معزولة الجنوع: Wurzelisolierend :

والكلمات فيها جامدة لا يمكن تقطيعها، وليس فيها ما يدل على انتمائها إلى فصيلة نحوية بعينها، ولا تقوم الزوائد فيها بوظيفة اشتقاقية، ويقوم ترتيب الكلمات فيها ببيان الوظائف النحوية، ومن هذا النمط اللغة الصينية.

٢- لغات معزولة الجنور stammisolierend :

وتقوم فيها الزوائد بوظيفة اشتقاقية مثل Fish-er، ولكنها زوائد ثابتة الصيغة لا تتصرف بتصرف المواقع النحوية، وهي تضاف إلى جذر ثابت. واللغة السومانية مثل لهذا النوع من اللغات، وتعد الإنجليزية أقرب إلى هذا النمط.

٣- لغات تفرعية subordinierend :

وتبدو فيها العلاقة واضحة بين الصيغة والوظيفة، إذ تتلاصق فيها الزوائد، وكل زائدة منها تقوم بوظيفة محددة، ومن الممكن فصلها عن غيرها، ومن هذا النوع اللغة التركية والهنجارية.

٤- لغات تتابعية anreihend :

ونظام ترتيب الكلمات في جملها غير ثابت، وتقوم الزوائد فيها بتحديد

Dressler, W. (1980). S. 637.

(١)

التصال النحوية، وبيان العلاقات بينها، ومن هذا النوع اللغة المولحلية.

٥- لغات متصرفة الجذور : wurzelflektierend :

وفيها تتصرف الكلمات تصرفاً دلخياً للتعبير عن الفصائل أو الصيغ المختلفة، ومن هذا النوع اللغات السامية، ففي اللغة العربية مثلاً تتصرف الجذور من خلال تغيير الحركات.

٦- لغات متصرفة الجذور : Stammflektierend :

وفيها تنوب الزوائد الدالة على التصرف والاشتقاق بحيث لا يمكن أن نثنين حدوداً واضحة بين الصيغة form والوظيفة function. ويمكن القول أن أغلب اللغات الهندية الجرمانية من هذا النوع، ومنها اليونانية الحديثة، ويرى رمزي بعلبكي أن اللغة العربية من هذا النوع بما هو أغلب عليها من غيره^(١).

٧- لغات متصرفة المجموعة الكلمية : gruppenflektierend :

وفيها تدخل الزوائد التصريفية Flexionsaffixe - خلافاً للغات متصرفة الجذور - كل كلمات المجموعة الكلمية Wortgruppe المترابطة. ومن هذا النمط اللغة الجورجية، ولغات فوققزية أخرى.

٨- لغات نمجية incorporierend :

وفيها تضم إلى الفعل عناصر نحوية كثيرة خاصة بالجملة بوصفها زوائد. ومن هذا النمط بعض لغات الإسكيمو. واللغة الفرنسية أقرب إلى هذا النمط ففيها يمكن أن تعد je ne l'entends (pas) كلمة واحدة سبق الفعل فيها بثلاث زوائد.

(١) رمزي بعلبكي (١٩٩٩) ص ٣٣.

وثمة طرائق أخرى للتصنيف النوعي منها طريقة طورها فنكس
أيضاً، وهي تقوم على تصنيف اللغات على أساس ما تخصصه من عناصر
لغوية للعناصر السباقية، فاللغة الصينية مثلاً تخصص لكل عنصر سبالي
عنصرًا لغويًا، والتركية تخصص عنصرًا لغويًا لعنصرين سباليين،
والإنجليزية تخصص لعناصر السباق عناصر لغوية أكثر منها عددًا، فإذا
أردنا مثلاً أن نعبر عن سبالي يتمثل في مجيء رجل فالصينية تقول ما يماثل
هو آت. والتركية تقول geliyor والإنجليزية تقول He is coming.

وبناء على هذا التفاوت تصنف اللغات ابتداءً من اللغة التي تخصص
عنصرًا لغويًا واحدًا لأقل من عنصر سبالي واحد كالإيونانية، وانتهاءً باللغة
التي تخصص عنصرًا لغويًا واحدًا لعدد من العناصر السباقية كاللغة الإسكيمو،
وبينهما تقع الصينية^(١).

ويرى رمزي بعلبيكي أن للعربية موقعها بحسب هذا التصنيف بين لغة
الإسكيمو والصينية، تشاركها في هذا الموقع التركية والجورجية^(٢).

ثالثاً: النظام النحوي:

في سنة ١٩٦٣ نشر جرينبرج - J. Greenberg بحثاً عنوانه:

Some Universals of Grammar with Particular Reference to the Order
of Meaningful Elements.

استخلص فيه الخصائص النحوية المشتركة في ثلاثين لغة من أسر
لغوية متنوعة في أجزاء مختلفة من العالم من خلال تصنيف هذه اللغات إلى

(١) رمزي بعلبيكي (١٩٩٩) ص ٣٥.

(٢) السابق نفسه.

أنماط تركيبية ومورفولوجية مختلفة وصولاً إلى نظرية مستقبلية للعالميات اللغوية^(١). ومنذ ذلك التاريخ وجه البحث التصنيفي اهتمامه الأساسي إلى التركيب، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بالعالميات^(٢).

ولما كانت كثرة كلغة من لغات العالم لا تزال تقتصر إلى الوصف المفصل لأنظمتها النحوية فقد اقتصرت أغلب الباحثين على دراسة نظام الجملة الخيرية البسيطة في أكبر عدد من اللغات^(٣).

وقد نظر بعض الباحثين فوجدوا أن لبعض اللغات نظاماً أقرب إلى الثبات يسود فيه ترتيب خالص للكلمات في الجملة، وبعضها أقرب إلى التحرر، فلا تكاد تلتزم ترتيباً خاصاً للكلمات في الجمل، وبعضها وسط بين هذا وذاك، فصنفوا اللغات على هذا الأسس إلى ثلاثة أنماط^(٤).

الأول: اللغات ذات الترتيب الصلرم rigid word- order:

وهي لغات متطرفة في اعتمادها على نظام الجملة، والاعتماد على أنواع خاصة من الكلمات بوصفها مؤشرات أو رواسم markers للعلاقات التركيبية، ومنها اللغات الصينية ولغات عديدة في جنوب شرق آسيا^(٥).

الثاني: اللغات ذات الترتيب الحر free word- order :

وهي لغات ليس لنظام الجملة فيها مغزى insignificant من الوجهة

Smith, N. & Wilson, D.: (1979): Modern Linguistics. The Results of Chomsky's Revolution. Penguin Books. P. 203 f. (١)

Malmkjaer (1990). P. 274. (٢)

O'Grady et al (1996). P.282. (٣)

Robins, R. H. (1978). P. 341. (٤)

Steele, S.: Word Order Variation: A Typological Study, in: Greenberg, J.H. (1978): Universals of Human Language Vol.4 Syntax. P. 605. (٥)

النحوية، وهي تعتمد في بيان العلاقات التركيبية على فصائل مورفولوجية خاصة، ومنها اللاتينية واليونانية القديمة^(١).

الثالث: اللغات ذات الترتيب الخليط mixed word-order :

وهي لغات تقع موقعاً وسطاً بين النمطين المتطرفين السابقين، ومنها الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وإن كانت الإنجليزية أقرب إلى الصينية، والفرنسية أقرب إليها من الألمانية^(٢).

على أن من الباحثين من رأى لكل لغة من اللغات نظاماً أساسياً لترتيب الكلمات في الجملة basic word-order هو الذي ينبغي أن يكون مناط التصنيف، وما يخرج عنه لأسباب أسلوبية بعد تنوعات لنمط واحد. وقد تبني أغلب الباحثين هذا الرأي فأخذوا بما سبق أن لطلق عليه ياكوبسون سنة ١٩٦١ الحياد الأسلوبى stylistic neutrality بوصفه معياراً منهجياً للاختيار^(٣)، فكل الأنظمة الستة الممكنة رياضياً mathematically للجملة الخبرية البسيطة المكونة من مسند إليه وفعل ومفعول به مستخدم في اللغة الرومية، ومن الممكن أن يقال فيها ما يماثل الأمثلة الأتية إذا رمزنا للمسند إليه بالرمز (س) وللفاعل بالرمز (ف) وللمفعول به بالرمز (م):

- ١- زيد ضرب عمراً (س ف م).
- ٢- زيد عمراً ضرب (س م ف).
- ٣- ضرب زيد عمراً (ف س م).
- ٤- ضرب عمراً زيد (ف م س).
- ٥- عمراً زيد ضرب (م س ف).
- ٦- عمراً ضرب زيد (م ف س).

Ibid, p. 605.

(١)

Ibid, p. 605.

(٢)

Haarmann, H. (1976). S. 141.

(٣)

لكن هناك نظامًا واحدًا من هذه الأنظمة يعدّ من الوجهة الأسلوبية محايدًا هو س ف م أما الأنظمة الأخرى فهي إمكانيات تعبيرية تعتمد على سليقة ابن اللغة بوصفها تنوعات توكيدية مختلفة، ولا أدل على ذلك من أن النظام س ف م هو نظام الجملة الوحيد الذي يستخدمه الأطفال الروميون، فإذا قيل لهم ما يمثّل: (لما تحب بابا) فهم الأطفال أنّ الأم تحب الأب، وإذا قيل لهم: (بابا تحب ماما) سمعوا فهم هذه الجملة وفهموها على أنّ الأب يحب الأم^(١).

وعلى أساس من فكرة النظام المحايد أو غير الموسوم unmarked حاول الباحثون تصنيف اللغات على أساس من الأنماط الستة الممكنة لنظام ترتيب الكلمات في الجملة الخبرية البسيطة التي تتكون من مسند إليه (-س) وفعل (-ف) ومفعول به (-م). فقد استطاعت سوزان ستيل susan steele سنة ١٩٧٨ أن تقدم دراسة تصنيفية إحصائية تعتمد على ثلاث وستين لغة انتهت فيها إلى الأنماط الثلاثة التي تعدّ أكثر شيوعًا هي^(٢):

١- س م ف. ٢- س ف م. ٣- ف س م.

ثم استطاع توملين Tomlin من بعد (سنة ١٩٨٦) أن يضع دراسة تعتمد على اثنتين وأربعمئة لغة^(٣). وقد أيدت دراسته النتيجة التي وصلت إليها ستيل، وذلك على النحو الآتي:

Jakobson, R.: Implication of Language Universals for Linguistics, in: (١)
Greenberg, J. H. (1973): Universals of Language. The M.I.T. Press. P. 268 f.

Steele, S. (1978) P. 587. (٢)

Tomlin, R.S. (1986): Basic Word Order: Functional Principles. London. (٣)

- Payne, J.R. (1990). P. 296 ff.

التمط الأول: س م فا (نحو: زيد عمراً ضرب) وهو أكثر الأنماط شيوعاً في لغات العالم، وقد استخدم في الدراسة الأولى في ثلاثين لغة، وفي الثانية في مائة وثمانين بنسبة ٤٥٪ تقريباً، ومنها التركيبية واليابانية والصومالية.

التمط الثاني: من فا م (نحو: زيد ضرب عمراً) ويلى النمط الأول في الشيوع، وقد استخدم في الدراسة الأولى في عشرين لغة، وفي الثانية في ثمان وستين ومائة بنسبة ٤٢٪ تقريباً، ومنها الإنجليزية والأبانية والفيتنامية.

التمط الثالث: ف م س (نحو: ضرب زيد عمراً) ويلى النمط الثاني في الشيوع، وقد استخدم في الدراسة الأولى في عشر لغات، وفي الثانية في سبع وثلاثين بنسبة ٩٪ تقريباً، ومن هذه اللغات التاهيتية Tahitian^(١). ونكر بعض الباحثين أن من اللغات التي تتبع هذا النظام العربية والبربرية والمالاجزية^(٢).

وولضح أن المسند إليه في هذه الأنماط الثلاثة مقدم على المفعول به.

أما التمط الرابع: ف م س (نحو: ضرب عمراً زيد) فلم يستخدم في الدراسة الأولى إلا في أربع لغات، ولم يستخدم في الدراسة الثانية إلا في اثنتي عشرة لغة بنسبة ٣٪ تقريباً.

أما التمط الخامس: م ف س (نحو: عمراً ضرب زيد) فلم يستخدم

Steele, S. (1978). P. 590.

(١)

(٢) المالاجزية لغة غرب إندونيسيا الذي كان يسمى من قبل مدشقر. انظر:

- Malmkjaer (1990). P.274.

- Smith & Wilson (1979). P.204.

- Atkinson, M-Kilby, D. - Roca, I. (1988): Foundations of General Linguistics. London. P. 365.

في الدراسة الأولى، واستخدم في خمس لغات فصص في الدراسة الثانية.
نسبة ١٪ تقريباً.

ولم يرد النمط السادس: م من فا (نحو ضمراً زيد ضرب) في لغات
أى من الدراستين. على أن من الباحثين من أشار إلى أن النمطين الخامس
والسلس مستخدمان في حوض نهر الأمازون في أمريكا الجنوبية^(١).

ومن الباحثين من تجاوز البحث في نظام ترتيب الكلمات في الجملة
الخيرية البسيطة إلى البحث في ترتيب العناصر في الضمائم الاسمية
كالترتيب بين الصفة والموصوف، والمضاف والمضاف إليه، والجار
والمجرور، والموصول وصلته، وقد صنفت اللغات على أسس الترتيب
لغالب لعناصر الضمائم الاسمية على النحو الآتي:

١- الضميمة الوصفية:

ثمة ثلاثة أنماط: أحدها تسبق فيه الصفة الموصوف كما في
الإنجليزية، واليونانية، والتركية، واليابانية^(٢). والثاني يسبق فيه الموصوف
الصفة، كما في الولشية، والباسك، واللغات الكلتية والرومانية^(٣) (ومنها اللغة
العربية). والثالث تقع الصفة فيه مقامة على الاسم ومؤخرة عنه كما في
البولندية، والرومانية وغيرهما^(٤) والتقديم والتأخير في لغات هذا النمط مرتبط
بدلالة الصفة، أو طول الكلمة، أو بقيمة أسلوبية. ولا تزال القواعد التي تحكم

O'Grady et al (1996). P. 383.

(١)

- Payne, J.R. (1990). P. 297.

Comrie, B. (1993). P. 453.

(٢)

Ibid.

(٣)

Haarmann, H. (1976). P. 142.

(٤)

موقع الصفة في اللغة الفرنسية مثلاً مثل جدول حتى الآن^(١).

٢- ضميعة الإضافة:

ثمة ثلاثة أنماط: أحدها يسبق فيه المضاف إليه المضاف كما في التركية واليابانية، والثاني يسبق المضاف فيه المضاف إليه كما في الولشبية (والعربية)، والثالث يقع فيه المضاف إليه مقدماً على المضاف ومؤخراً عنه في لغة واحدة كما في الإنجليزية^(٢).

٣- الضميعة الجريسة:

ثمة نمطان لثنان: أحدهما يسبق فيه المجرور حرف الجر، كما في اليابانية. والثاني يسبق فيه حرف الجر المجرور كما في الولشبية^(٣) (والعربية).

٤- ضميعة الصلة:

ثمة ثلاثة أنماط: أحدها: يسبق فيه الاسم الموصول جملة الصلة كما في الإنجليزية (والعربية)، والثاني: تسبق فيه جملة الصلة الموصول كما في التركية. والثالث: تحيط فيه جملة الصلة بالموصول كما في اللغة المسماة Barliara وهي إحدى لغات الفرع الماندى من لغات الكنگو - نيجر المستخدمة في السنغال ومالي وبوركينا فاسو^(٤).

Haarmann, H. (1976). P. 142.

(١)

Malmkjær (1990). P. 275.

(٢)

- Comrie, B. (1993). P. 454.

Comrie, B. (1993). P. 454.

(٣)

Comrie, B. (1989). P. 90, 145.

(٤)

- Malmkjær (1990). P. 274.

ومما هو جدير بالذكر أن ثمة لغات ليس فيها تركيب يمكن أن تسمى
ضميمة صلة على الإطلاق^(١).

وقد حاول بعض الباحثين أن يؤسس علاقة وثيقة بين مواقع هذه
الضمائم وموقع الفعل في الجملة الخبرية البسيطة فلحظ أن اللغات التي يكون
الفعل فيها في بداية الجملة الخبرية البسيطة تسبق فيها الصفة الموصوف،
والمضاف للمضاف إليه، والجار المجرور، والموصول الصلة. (وهذا ظاهر
في العربية)، وكذلك الأفعال المساعدة ترد دائماً قبل الفعل الأساسي، لكن
المقياس لم يستقم له في الجمل التي يرد فيها الفعل في الموقع الثاني أو
الثالث^(٢).

وقد شملت محاولات الباحثين أيضاً تصنيف اللغات على أساس
استخدامها للجمل ذات الخبر الاسمي مثل زيد طبيب فصنفت اللغات في
نمطين: أحدهما تستخدم فيه اللغات فعلاً رابطاً Copula والثاني لا تستخدم فيه
اللغات فعلاً رابطاً، فمن النمط الأول الإنجليزية والفرنسية والإسبانية
والألمانية واليونانية، ومن لغات النمط الثاني العربية^(٣).

ولعلنا نشير هنا إلى أن جرينبرج خصص جزءاً منفرداً من الأجزاء
الأربعة التي قام على نشرها بعنوان Universals of Human Language
للنظام النحوي^(٤)، وفيه أبحاث قيمة عن التصنيف النوعي للغات من حيث

Comrie, B. (1989). P. 144. (١)

Comrie, B. (1993). P. 453. (٢)

- Smith & Wilson (1979). P. 204 f.

Haarmann, H. (1976). P. 144. (٣)

Greenberg, J.H. (ed.) 1978: Universals of Human Language. Vol. 4 (٤)
Syntax.

استخدامها أساليب النفي، والاستفهام، والمطابقة، والتعريف، والصلة، والعلاقة بين الربط والتفريع في الجمل، وصلة ذلك كله بالعالميات.

العالميات:

للبحث في العالميات اللغوية linguistic universals أصول ضاربة بجذورها في البحث الفلسفي الأوروبي في القرن السادس عشر وما تلاه من قرون. وكان الفلاسفة في تلك القرون بين مذهبين: أحدهما عقلي يؤمن بقدرة فطرية قائمة في العقل الإنساني هي أساس اليقين في المعرفة، ويتجاني عن انطباعات الحواس التي هي عرضة للخطأ والتحريف، وقوامه الاستدلال. والثاني تجريبي يقوم على الملاحظة المستمدة من انطباعات الحواس، وما يجريه عليها العقل من عمليات التجريد والتعميم، وقوامه الاستقراء^(١). والخلاف المشهور بين الاتجاهين يدور حول الأفكار الفطرية innate، فلوك، وباركلي، وهيوم ينكرون وجود أية أفكار فطرية ماثلة في العقل الإنساني سابقة على التجربة، على حين يرى العقليون الديكارتيون أن ثمة أفكاراً فطرية معينة هي أساس أي يقين بالمعرفة الإنسانية. وليس هذا يعني أن التجريبيين يسقطون دور العقل في الإدراك واكتساب المعرفة، بل مناط الاختلاف بينهم وبين العقليين هو المدى الذي يقوم فيه العقل بدور أساسي في هذا المجال^(٢).

وقد كان للإيمان بسلطان العقل، وتصنيفات العلوم التجريبية، والتقدير

(١) ر. هـ. روبنز (١٩٩٧) موجز تاريخ علم اللغة (إلى الغرب). ترجمة: أحمد عوض. عالم المعرفة ٢٢٧ الكويت من ١٩١.

- Fromkin & Rodman (1998). P. 19.

(٢) ر. هـ. روبنز (١٩٩٧) ص ١٩٢.

- Langacker, R.W. (1973): Language and its Structure. USA. P. 242.

الكبير لأنظمة الرموز الرياضية أثر في التفكير في ابتداء لغة عالمية تخلو من عيوب اللغات البشرية، وما فيها من شذوذ واضطراب وتعقيد بوضع رموز تبديع لهذا الغرض، وتُعطى قيما نطقية، كما فعل مرسن في فرنسا، وولكنز في إنجلترا في القرن السابع عشر، وكما فعل زامنهوف الذى وضع الإمبرانتو في أواخر القرن للتاسع عشر (سنة ١٨٨٧)^(١).

لقد أكد التجريبيون على الاختلافات الفردية بين اللغات، وعلى الحاجة إلى تصنيفها في ضوء الملاحظة، في حين ظل العقليون يبحثون عن الجوامع المشتركة بين اللغات التى تكمن تحت سطح الاختلافات الظاهرة^(٢)، وامتداداً لهؤلاء وهؤلاء ظهر اتجاهان بارزان في دراسة العالميات اللغوية أحدهما عقلى يمثلته تشومسكى ومن نهج نهجه، والآخر تجريبى يمثلته جرينيرج ومن سار على هديه.

اتجاه تشومسكى:

ظهر الاهتمام بالعالميات عند تشومسكى في أبحاثه المبكرة، فقد أشار في المباني التركيبية Syntactic Structures إلى ما أسماه شرط العموم condition of generality الذى يجب أن تستوفيه النظرية، وقال: إننا نطالب بأن يكون نحو اللغة مطابقاً لنظرية محددة للتركيب اللغوى تتحدد فيها مصطلحات من مثل الفونيم phoneme والضميمة phrase بمعزل عن لغة بعينها^(٣).

(١) ر. هـ. روبنز (١٩٩٧) ص ١٩٥ لما بعدها.

(٢) ر. هـ. روبنز (١٩٩٧)، ص ٢١١.

(٣) Chomsky, N. (1957): Syntactic Structure. The Hague. P. 50.

وعلى الرغم من أن الرجل في مواضع عديدة لم يدع مجالاً للشك في أن القواعد اللغوية linguistic rules عنده ذات صبغة عالمية، فهو لم يستخدم مصطلح "عالمي" universal حتى حوالي سنة ١٩٦٢. ولعلّ السبب في ذلك راجع إلى أن المناخ العلمي في العقد الخامس من القرن العشرين كان يرتب في أية تعميمات generalizations غير استقرائية non-indicative فجعله ذلك على حذر من استخدام مصطلح قد يوهم وقتها بأنه "انفعالي"، حتى إذا كانت سنة ١٩٦٥ عمد إلى التصريح في كتابه "أوجه النظرية التركيبية" بأن «المهمة الأساسية للنظرية النحوية ينبغي أن تكون تطوير وصف للعالميات اللغوية»^(١)، لكنه فيما يبدو حتى ذلك الحين لم يكن يرى أن اللغات كلها تستخدم فصول وقواعد واحدة، لكنها تختار من المخزون العالمي universal inventory ويبدو أن تشومسكي نظر في ذلك إلى نظرية السمات المميزة distinctive features theory عند ياكوبسون الذي أورد فيها قائمة بنحو عشرين سمة زعم أنّ النظام الفونولوجي لأية لغة لا يخرج عن سمة منها، لكن ليس من اللازم أن تستخدم لغة واحدة كل السمات التي في القائمة، فالإنجليزية مثلاً لا تستعمل السمة + مغلق checked^(٢).

ثم قدم تشومسكي من بعد ما يبدو أنه مفهوم أكثر تحديداً للعالميات، فذكر أن العالميات الحقة حتمية بيولوجية biological necessity، وهي من ثم فطرية innate، والكشف عنها يعنى فهماً للغة، ويمكننا من فهم القدرة العقلية البشرية على إبداع اللغة، إذا إنها كاملة وراء الاختلافات الظاهرة بين اللغات

(١) Chomsky, N. (1995): Aspects of the Theory of Syntax. Cambridge, Mass.: M.I.T. Press P. 27 f.

(٢) Comrie, B. (1989). P. 15.

الفردية، مؤسسة ما يسمى النحو العالمي universal grammar^(١)، فاللغة عنده ظاهرة عقلية أكثر منها ظاهرة اجتماعية^(٢).

لقد رأى تشومسكي في القول بالفطرة innateness تفسيراً للعالميات اللغوية على أساس أن ما يتعرض له الطفل من مادة لغوية في سنى عمره الأولى هزيل، لا يكفي بحال لتفسير كيفية اكتسابه للغة الأولى في أقصر وقت، وبأسر مجهود، فما ينتجه الطفل غير محدود، وما يتلقاه ناقص ومحدود، وهو ما أطلق عليه فقر المثير poverty of stimulus^(٣)، فالأطفال يستخدمون اللغة استخداماً صحيحاً ومبتكراً، ولا يقتصر إنتاجهم للغة على ما سمعوه منها من قبل، بل يبدعون جملاً لم يسمعوها، ولو أنهم لم يعتمدوا على الفطرة في إنتاجهم اللغوي، وكانوا كما قيل كاللوح الأملس الذي يعكس ما يقع عليه، لما تقتصر إنتاجهم على الجمل الصحيحة؛ لأنه ليس في الكلام الذي يسمعونه من المحيطين بهم دليل على أن جملاً ما لا يصح استخدامها^(٤). وصحيح أنهم يخطئون في مرحلة الاكتساب الأولى لكنهم يصوبون أخطاءهم بأنفسهم من دون التفتت إلى ما يقوم به الوالدان من تصويب أو تخطئة؛ لأنهم يجردون لأنفسهم القواعد التي تحكم الاستعمال الصحيح، ولذلك تجدهم

(١) Chomsky, N. & Lasnik, H. (1977): Filters and Control. L. 18, P. 437.

- Chomsky, N. (1976): Reflections on language. London. P. 34.

- Newmeyer, F. J. (1986): Linguistic Theory in America. Academic Press, INC. Orlando, Florida. P. 72.

(٢) Chomsky, N. (1968) Language and Mind New York: Harcourt. P. 135.

(٣) ماكلان، باري: نظرت تعلم اللغة الثانية. ترجمة: عبد الرحمن عبد العزيز العبدان (الرياض ١٩٩٦) ص ١٦٩.

- Newmeyer, F. J. (1986). P. 72.

(٤) تشومسكي، نعمان: اللغة ومشكلات المعرفة. ترجمة حمزة بن قبلان المزبلي. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء - المغرب ١٩٩٠ ص ٢٣.

- Comrie, B. (1989). P. 130.

لا ينتجون جملاً تصادم أسس النحو العالمي^(١). وأغلب هذه القواعد من التجريد بحيث لا يمكن للطفل أن يتعلمها من أبيه، أو من البيئة المحيطة به، على فرض أن في البيئة المحيطة به وعياً بها^(٢).

أسس النحو العالمي هي عند التشومسكيين إذن فطرة فطر الناس جميعاً عليها على نحو شامل ومتساوٍ منذ مولدهم، تقرها عوامل بيولوجية تختص بتعلم اللغات، ويتحكم فيها في المخ البشري جهاز أشبه شئ بالصندوق الأسود، يطلق عليه تشومسكى جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition Device ويرمز له اختصاراً بـ LAD^(٣) ويشبه كوك قدرة الطفل على اكتساب اللغة بقدرة البرعم على أن يصبح زهرة، فالبرعم لا يتعلم ذلك؛ بل نموه تحقيق لإمكاناته الوراثية، تعين عليه عوامل خارجية كالماء، والتربة، والهواء تمثل ما يمكن أن يسمى قوى الإطلاق^(٤).

فالأسس اللغوية الموجودة في ذهن الطفل تقوم بإظهار نفسها وفقاً لقدرة الطفل على معالجة المعلومات، ووفقاً لعوامل النضج الأخرى، فالطفل لا يكتشف عن جميع ما في ذهنه من أسس لغوية دفعة واحدة، بل يتدرج وفقاً

(١) تشومسكى، تعلم: اللغة ومشكلات المعرفة ص ٢٢.

- Cook, V.J. (1988): Chomsky's Universal Grammar: An Introduction. Oxford: Basil Blackwell. P. 64f.

Cook, V.J. (1988). P. 61.

Chomsky, N. (1975): Reflections on Language New York: Pantheon. P.8, 14.

- براون هـ. دوغلاس: أسس تعلم اللغة وتعليمها. ترجمة عبده الراجحي وعسى على أحمد شعبان (بيروت ١٩٩٤) ص ٣٨.

- عبد العزيز بن إبراهيم العسيلي: النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية (الرياض ١٩٩٩) ص ٨٣.

(٤) مكالن، ب (١٩٩٦) ص ١٤٩.

لمراحل النضج المختلفة التي تمكنا كل مرحلة منها بجانب من إدراكه لبعض الأسس اللغوية، فالجملة الموصولة مثلاً تظهر في لغة الطفل في مرحلة تالية لظهور التراكيب اللغوية ذات الكلمة الواحدة، والجملة الواحدة^(١).

ولا ينكر تشومسكي وأتباعه أثر البيئة في اكتساب اللغة، فالمُدخل input للغوى الصحيح الذي يأتي منها في الوقت المناسب أشبه ما يكون بالضغط على زرر تشغيل جهاز اكتساب اللغة^(٢). ولا تعارض عند هؤلاء بين اكتساب الطفل لغة بعينها وأسس النحو العالمي؛ لأن الطفل يضع لنفسه فروضاً عن تلك اللغة يختبرها في إطار الأسس العامة للنحو العالمي، ومن ثم فإن الطفلين اللذين يكتسب كل منهما لغة مختلفة عن اللغة التي يكتسبها نظيره يطبقان الأسس العالمية نفسها تطبيقين مختلفين بناءً على استجابة كل منهما لبيئة لغوية مخالفة للأخرى^(٣).

ومن اللافت للنظر أن نظرية تشومسكي في النحو العالمي تنحصر في اكتساب الطفل اللغة الأولى فحسب، ويبدو أن الرجل يرى أن تعلم اللغة الثانية تحكمه ملكات عقلية أخرى. طى أن هذا الأمر قد تغير في السنوات الأخيرة؛ إذ حاول بعض الباحثين تطبيق مبادئ اكتساب اللغة الأولى على الثانية، وانتهاوا إلى أن أسس الاكتساب واحدة^(٤) ومن ثم أصبحت نظرية النحو العالمي مذهباً بديلاً لمذهب التحليل التقابلي^(٥).

(١) السابق، ص ١٥٠.

(٢) السابق نفسه، ص ١٥٤.

(٣) براون، هـ. د (١٩٩٤) ص ٣٩ - ٤٠.

- مكلافن، ب (١٩٩٦) ص ١٥٥.

(٤) مكلافن، ب (١٩٩٦) ص ١٤٧.

(٥) السابق، ص ١٦٣.

ويرى تشومسكي وأصحابه أن الوصول إلى أسس النحو العالمي المركوزة في ذهن البشر يكفى فيه تحليل عميق ومفصل للغة بشرية واحدة كالإنجليزية مثلاً، أو عدد قليل من اللغات، ولا يرى تشومسكي فى ذلك تناقضاً بين الأسس العالمية واللغة الواحدة؛ لأن الإنجليزية عنده لغة بشرية، وهى لذلك تحتوى على القواعد الكلية التى تحتوى عليها لغات البشر جميعاً، وفيها فى الوقت نفسه سمات فردية تجعل منها لغة إنجليزية على وجه الخصوص^(١). من ثم كان نحو أية لغة نحويين - نحواً جوهرياً أو نوويماً core grammar فيه أسس النحو العالمي الموجودة فى لغات البشر جميعاً، ونحواً عرضياً أو هامشياً peripheral يحتوى على السمات الخاصة لكل لغة على حدة، وهى السمات التى تجعلها لغة مختلفة عن غيرها من اللغات^(٢). والنوع الأول غير موسوم unmarked أما الثانى فموسوم marked. من ثم أصبحت نظرية الوسم اللغوى قرينة لنظرية النحو العالمي عند تشومسكي وأتباعه^(٣).

لقد صنف كاتز وبوستال سنة ١٩٦٤^(٤) وتشومسكي سنة

(١) Comrie, B. (1989). P. 4.

- Malmkjaer (1991). P. 278.

(٢) انظر فى ذلك للفصل الأول من كتاب

Radford, A. (1988): Transformational Grammar: A First Course. CUP. Cambridge.

Chomsky, N. (1981): Lectures on Government Binding. Dordrecht: Foris. P. 18.

- Newmeyer, F.J. (1986). P. 200.

- Crystal, D. (1989). P. 85.

Katz, J. & Postal, P. (1964): An Integrated Theory of Linguistic Descriptions. Cambridge, MA: M.I.T. Press. P. 160 f.

١٩٦٥^(١) العالميات في نمطين اثنتين: أحدهما عالميات مادية substantive وهي العناصر الأولية primitive elements التي تكون أساساً لتحليل المادة اللغوية، ففي الفونولوجيا تعدّ السمات الفارقة distinctive features التي حددها ياكوبسون بعدد يتراوح بين خمس عشرة وعشرين سمة فارقة مثلاً واضحاً لهذا النوع من العالميات، حيث إنها تمثل مجموعة كلية تختار منها كل لغة فردية، أي أنها تمثل المدى الكلي لكل اللغات الطبيعية. أما العناصر التي تقع خارج هذا المدى فهي تعدّ ضرورياً من المحال Impossibilities. والثاني: عالميات شكلية، وهي عالميات تتصل بالنظام نحوي، وتتمثل في القيود الشكلية التي تحكم هذا النظام، وهذا النوع من العالميات أُنسَدَ تجريداً من سابقه؛ إذ هو يحدد الشروط الشكلية التي ينبغي على كل وصف نحوي أن يأخذ بها، والضوابط التي تتفاعل بها القواعد بعضها مع بعض، وتعدّ فرضيات كاتز - بومستل مثلاً للعالميات الشكلية.

وعلى الرغم من أن اتجاه تشومسكي في بحث العالميات اللغوية يمثل موقفاً متمسكاً ليس من السهل تجاهله كما يقول كومري^(٢)، فإنه لم يسلّم من النقد. وأهم ما أخذ عليه اللغويون، وأكثرهم من المنتمين إلى اتجاه جريديرج^(٣) ما يأتي:

١- من العجيب أن يؤدي تفسير ملاحظة بسيطة عن تعلم الطفل لغته

Chomsky, N. (1965). P. 27 ff. (١)

- Comrie, B. (1989). P. 15 f.

- Newmeyer, F.J. (1986). P. 72.

- Allen, J.P.B. & Buren, P.V. (1971): Chomsky: Selected Readings. Oxford University Press. P. 139 ff.

Comrie, B. (1989). P.2. (٢)

Ibid. (٣)

الأولى في وقت قصير بسهولة ويسر إلى الزعم القوي بأن اللغة كلها فطرية، إذ يؤدي هذا إلى افتراض أن الطفل المولود في جماعة لغوية بعينها مبرمج فعلاً لاكتساب لغة جماعته اللغوية برمجة يفترض أنه ورثها عن أبويه. وهذا تبسيط واضح لمشكلات فترات التعلم learnabilities مثل الملاحظة على أنه لا يثبت على التخصيص؛ فهو يتضمن أن الطفل لا يستطيع أن يتعلم - أو على الأقل لا يستطيع أن يتعلم في سرعة وسهولة - إلا لغة أبوية دون معول كبير على لغة الجماعة اللغوية المحيطة به. ومن المؤكد أن الطفل يكتسب بسهولة قصوى اللغة التي يتحدثها الجماعة اللغوية التي ينمو بينها، أيًا كانت، من دون نظر إلى لغة أبويه أو أصلهما البعيد. ومن الممكن أن نلاحظ ذلك بوضوح في الأطفال الذين ينشأون بين متكلمين بلغة مختلفة عن لغة أبويهم. وهذا مؤسس على قاعدة من الملاحظة التجريبية لا على مجرد افتراض ليس من الميسور التسليم به^(١).

وليس من الميسور أيضاً للتسليم بأن أسس النحو العالمي أسس فطرية مثلى تمكن الطفل من اكتساب أية لغة يتعرض لها دون تفضيل لغة على لغة، فمعنى ذلك أنها واحدة عند الأطفال جميعاً، فيجب إذن أن يكونوا جميعاً محايدين فيما يتصل بالاختلاف بين اللغات، أو بعبارة أخرى يجب أن يكونوا هم أنفسهم عالميين universals^(٢).

وإذا كانت العالميات اللغوية مساوية للقدرة الفطرية المجردة، وكان من المستطاع أن نجد في الفطرة تفسيراً للعالميات اللغوية، فمن ذا يفسر لنا

Comrie, B. (1989), p. 3 f.

Ibid, P. 4.

(١)

(٢)

هذه الفترة الفطرية^(١) ثم إن الزعم بأن العالميات اللغوية حتمية بيولوجية، ولنْ ثمة جهازاً في المخ البشرى لاكتساب اللغة، لم يثبتته البحث البيولوجي حتى الآن، ولا علم لنا بطبيعة هذا الجهاز أو طريقة عمله، وهو من ثمّ محض افتراض يراد التسليم به ليتمكن التسليم بما يبنى عليه.

٢- القول بأن الوصول إلى أسس النحو العالمي المركوزة في ذهن البشر يكفى فيه تحليل لغة واحدة كالإنجليزية تحليلاً صيقاً مفصلاً لا يمكن التسليم به؛ لأنه سيؤدي حتماً إلى إنتاج أسس خاطئة أو مشوهة *distorted*، ففي الإنجليزية مثلاً سمات كثيرة ليست موجودة في عدد من اللغات مثل استعمال النهاية للتصريفية *inflectional ending* في الزمن الحاضر كما في نحو *She runs* أو غياب التمييز بين المفرد المخاطب وجمع المخاطبين (الفرنسية مثلاً فيها *tu / vous*)^(٢)، (والعربية فيها أنت وأنتم).

ولو كانت اللغة متجانسة تجانس الحديد الخام لكفى فيها كما يكفى فيه الاختصار على عينة واحدة من الممكن التسليم بأنها تمثل خواص الحديد في العالم، لكنها متنوعة تنوع السلوك الإنساني تحت الضغط العصبي؛ إذ لا يمكن الاختصار فيه على عينة واحدة يمكن القول إنها تمثل السلوك الإنساني الواقع تحت الضغط العصبي في العالم كله^(٣). والمعروف أن اللغات ليست قياسية، ويكثر فيها الشذوذ، ثم إن عزل الأسس العالمية التي تشترك فيها لغات العالم جميعاً عن السمات الفردية التي تميز لغة عن لغة ليس من

Ibid, P.4.

Crystal, D. (1989). P. 85

Comrie, B. (1989). P. 6.

(١)

(٢)

(٣)

المستطاع الوصول إليه من خلال لغة واحدة أو عدد قليل من اللغات^(١).

وثمة شواهد لا يمكن إغفالها على أن البحث في العالميت من خلال أكبر قدر ممكن من اللغات يعد أمراً لازماً للوصول إلى تأسيس عالمية لغوية يكتب لها القبول، فمن المعروف أن العالميت الاستنتاجية *implicational universals* مثلاً لا يمكن بحال الوصول إليها من خلال لغة واحدة. وقد أورد كومري لذلك مثلاً العالمية الاستنتاجية الخاصة بالضمائر المنعكسة *reflexive pronouns* التي تقول: "إذا كان في لغة ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم والمخاطب فإن فيها ضمائر منعكسة خاصة بالغايب" فإذا نظرنا في الإنجليزية وجدنا فيها هذه الظاهرة، إذ يقال فيها مثلاً: *I hit myself* كما يقال: *He hit himself*، لكن ليس في نحوها ما يدل على أن هذه عالمية استنتاجية، فإذا اقتصرنا على الإنجليزية فربما وصلنا إلى عالمية تقول: إن كل لغة فيها ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم والمخاطب والغايب، وليس هذا صحيحاً، فالفرنسية مثلاً فيها ضمائر منعكسة خاصة بالغايب، ولكن ليس فيها مثل ذلك للمتكلم والمخاطب. والأجلوساكسونية ليس فيها ضمائر منعكسة خاصة بأي من المتكلم والمخاطب والغايب، فيقال فيها ما يماثل: هو ضربه، حيث يجوز أن يكون الضمير في ضربه عائداً على غير المبتدأ، أو منعكساً عليه، (وكذلك العربية)^(٢).

وبهذا يتضح أن الاختصار على لغة واحدة في صياغة عالمية يقضى بها إلى أن تكون عالمية مفترضة *putative* كثيراً ما تتعرض للبطلان إذا

Crystal, D. (1989). P. 85

(١)

(٢) انظر: محمود أحمد نحلة: الضمائر المنعكسة في اللغة العربية (بيروت ١٩٩٠)

ص ١٢ فما بعدها.

عرضت على مادة لغوية مأخوذة من أكبر عدد ممكن من اللغات^(١). ويقال:
أكبر عدد ممكن من اللغات لأنه ليس في مقدور الباحثين الآن البحث في
لغات العالم جميعا لسببين:

الأول: أن كثيرا من لغات العالم لم تسجل حتى الآن أو لم تسجل
بتفاصيل نافعة للبحث في هذا المجال.

والثاني: أن العدد المشهور من لغات العالم نحو أربعة آلاف لغة، فإذا
انتظرنا بحثا مفصلا لكل لغة منها قبل أن نبدأ البحث في العالميات فلن نتجز
هذه المهمة أبدا^(٢). من ثم كان من اللازم لاختيار عينة ممثلة للغات العالم لا
تغلب عليها السمات الوراثية ولا الإقليمية ولا التركيبية، بل تكون على نحو
متوازن في هذه الأمور جميعا^(٣).

٣- هاجم باخ في بحث قدمه إلى مؤتمر العالميات اللغوية الذي انعقد
في أوسطن - تكساس سنة ١٩٦٧، ونشر سنة ١٩٦٨ القول بأن كل لغة تختار
من المخزون العالمي من العناصر اللغوية واصفا إياه بأنه زعم فارغ؛ لأنه
ليس في مقدورنا أن نضع قائمة بكل العناصر التي تستخدم في كل اللغات
مكونة المخزون العالمي ليتمكن القول بعد ذلك إن هذه اللغة أو تلك تختار منها
قائمة جزئية^(٤).

لقد اضطر تشومسكي تحت ضغط ما وجه إليه من نقد أن يعيد النظر

Comrie, B. (1989). P. 7. (١)

Ibid, P. 9. (٢)

Comrie, B. (1989). P. 10 ff. (٣)

Bach, E. Noun and Noun Phrases, in: Bach, E. & Harms, R.T (1968):
Universals in Linguistic Theory. USA. P. 113. (٤)

منذ عام ١٩٨١ في نظريته عن النحو العالمي فعندئذٍ لتتضمن البارامترات parameters التي تحتوي على متغيرات ذات قيمٍ values خاصة بالفروق الملحوظة بين اللغات^(١).

على أن اتجاه تشكوميكي قد حفز بعض الباحثين إلى دراسة علاقة جهاز الإدراك والتلقى عند البشر بالعالميات، وانتهى برلين وكاي سنة ١٩٦٩ إلى أنه إذا كان في لغة نظام للألوان فإنها لابد أن تميز على الأقل بين لونين: الأبيض والأسود، فإذا كان فيها ثلاثة ألوان فالثالث لابد أن يكون الأحمر، فإذا كان فيها أربعة فالرابع إما الأخضر وإما الأصفر، فإذا كان فيها خمسة فالخامس سوف يكون واحداً من الأخضر أو الأصفر بعد اختيار الرابع، فإذا كان الرابع الأخضر كان الخامس الأصفر أو العكس، وإذا كان فيها ستة ألوان فالسادس سوف يكون الأزرق، وإذا كان فيها سبعة ألوان فالسابع سوف يكون البني. وقد اعتمدا في ذلك على لتفسير المحايد neutral anatomy لرؤية اللون عند البشر^(٢).

اتجاه جرينبرج:

يرى أغلب اللغويين أن البحث في العالميات اللغوية استمد قوته الدافعة من إنجازات جوزيف جرينبرج في العقد السادس من القرن العشرين فقد استطاع الرجل أن يثير الاهتمام بدراسة العالميات اللغوية بوصفها مشروعاً project لا مجرد نتاج هامشي قائم على المصادفة^(٣) وأن يربط ربطاً قوياً بين التصنيف النوعي للغات والعالميات، وأن يضع أهم الأسس

Payne, J.R. (1990). P. 308. (١)

Hawkins, J. A. (ed.) 1988: Explaining Language Universals. Blackwell. Oxford. P. 15. (٢)

Hopper, P. J. (1992). P. 137. (٣)

المنهجية التي بنى عليها باحثون كثيرون. وكانت بداية ذلك مؤتمر العالميات اللغوية الذي انعقد في المدة من الثالث عشر إلى الخامس عشر من أبريل سنة ١٩٦١ في نوبس فرى Dobbs Ferry بنيويورك، وشارك فيه جرينبرج^(١)، وقد تمخض المؤتمر عن عدد من الأبحاث المهمة في هذا المجال لباحثين كبار مثل ياكوبسون، وأولمان، وفابريش، وغيرهم. وقد قام جرينبرج على نشرها سنة ١٩٦٣ في كتاب عنوانه *Universals of Language*. وتوالت بعد ذلك أبحاث جرينبرج وصحبة لتعمق اتجاهها يختلف اختلافاً بينا عن اتجاه تشومسكي في منهج البحث ومنطلقاته، وإن لم يختلف الهدف الذي يسعى إليه كل منهما، ولا يزال لكل اتجاه أتصاره ومؤيدوه من الباحثين المعاصرين.

وليس من الميسور أن نتتبع كل ما جاء به جرينبرج وأصحابه في هذا المجال، ويكتفي هنا أن نشير إلى أمرين على درجة بالغة من الأهمية:

الأول: يتصل بما صاغه جرينبرج سنة ١٩٦٦ من عالميات بلغت خمساً وأربعين^(٢)، لا يستطيع باحث في العالميات اللغوية أن يغفلها، أو يغضى عنها، وقد استخلصها جرينبرج على أساس تجريبي من تصنيفه للنوعى للظواهر التركيبية والمورفولوجية في ثلاثين لغة منها سبع أوروبية، وسبع أفريقية، وتسع آسيوية، واثنتان محيطيتان *Oceanian* وخمس أمريكية هندية^(٣). وليس من بينها العربية.

(١) Lehmann, W.P.: The Great Underlying Ground-Plans, in: Lehmann, W.P. (ed.): *Syntactic Typology. Studies in the Phenomenology of Language*. The Harvester Press. P. 43.

(٢) Greenberg, J. H.: Some Universals of Grammar with Particular Reference to the Order of Meaningful Elements, in Greenberg, J.H. (ed.) 1973. P. 76 – 96.

Ibid, P. 74 f. (٣)

والثالثي: يتصل بأنواع العالميات عنده، وصلة بعض منها بنظرية الوسم، وبما يسمى لترسيخ المقارن.

قواعد العالميات:

أ - عالميات النظام الأساسي للجملة word-order:

١- لنظام المساند في الجملة الخبرية التي تتكون من مسند إليه (س) وفعل (ف) ومفعول به (م) أن يسبق المسند إليه المفعول به.

٢- الأغلب في اللغات التي يسبق فيها الجار المجرور^(١) preposition أن يسبق فيها المضاف المضاف إليه، وفي اللغات التي يلي فيها الجار المجرور postposition أن يلي المضاف المضاف إليه.

٣- اللغات التي يسود فيها النظام ف م س يسبق الجار فيها دائماً المجرور Preposition.

٤- اللغات التي يغلب عليها النظام م ف يلي الجار فيها المجرور postposition.

(١) شاع في اللغة العربية ترجمة "Prepositions" بحروف الجر، وهي ترجمة مشككة، لأن مفهوم الجر في العربية لا ينطبق على المصطلح الإنجليزي، ولأن بعضاً منها قد لا يعادله في العربية "حرف"، بل "طرف" فضلاً عن أن بعضاً منها قد يأتي بعد ما يدخل عليه فيطلقون عليه عندئذ مصطلح "postposition". وربما شاعت هذه الترجمة بما غلب من مقابلها في اللغة العربية، ولتقارب وتطوُّقها في اللغتين بتحولها على الأسماء والضمائر ونحوها لترابطها نحوياً بكلمات أخرى، ولأن حرف الجر في العربية لا يأتي بعد المجرور. ولما كان إطلاق مصطلح آخر أدل عليها مثل كلمات الربط قد يضلل القارئ العربي فقد آثرت الإبقاء على ما شاع من ترجمته مفضلاً أحياناً استخدام مصطلح الجار ليُدخل فيه الظروف، على الرجوع عند حاجة العربية من عمل المضاف في المضاف إليه.

٥- إذا كان النظام السائد في لغة هو: م م ف، والمضاف إليه فيها يلى المضاف فإن الصفة فيها تلى الموصوف أيضاً.

٦- كل اللغات التي يسود فيها النظام ف م م يكون فيها النظام م ف م، أو هو وحده النظام البديل.

٧- إذا ساد في لغة النظام م م ف فليس فيها نظام أساسي بديل، فإن وجد لم يكن إلا النظام م م ف، وعندئذ تسبق فيه كل المحددات الظرفية adverbial modifiers الفعل.

ب - العالميات التركيبية syntactic:

١- حين يتميز السؤال الذي إجابته "نعم" أو "لا" (= الاستفهام التصديقي) عن نظيره المؤكد بأنماط تنغيمية فإن السمات التنغيمية لكل نمط من هذه الأنماط تحسب من نهاية الجملة لا من بدايتها.

٢- إذا كان موقع كلمات الاستفهام أو الزوائد محدداً بالنظر إلى الجملة كلها، فإذا كان موقعها أول الجملة كانت موجودة في اللغات التي يسبق فيها الجار المجرور، وإن كانت في آخر الجملة كانت موجودة في اللغات التي يلي فيها الجار المجرور.

٣- إذا كان موقع كلمات الاستفهام أو الزوائد محدداً بالنسبة لكلمة بعينها في الجملة فإنها في الأغلب تلى هذه الكلمة، ومثل هذه الكلمات لا تقع في اللغات التي يسود فيها النظام ف م م.

٤- تغير نظام الجملة ليصبح الفعل مقمماً على المسند إليه لا يحدث إلا في اللغات التي تكون فيها كلمات الاستفهام أو الضميمة الاستفهامية لها

الصدورة، وهذا التغيير نفسه لا يقع في الاستفهام التصديقي إلا إذا كان السؤال مشتملاً على كلمة استفهام.

٥- إذا كان نظام الجملة الخيرية declarative sentences السائد في لغة ما هو ف م فإن كلمات الاستفهام أو ضمائم الاستفهام فيها تترد أولاً في النظام المعتمد على كلمات استفهام. فإذا كان نظامها السائد في لغة ما هو م ف فليس فيها قاعدة ثابتة كهذه.

٦- إذا كان المفعول به اسماً يسبق الفعل دائماً فإن الصيغ الفعلية المرتبطة بالفعل تسبقه أيضاً.

٧- في الجمل الشرطية تسبق عادة جملة الشرط جملة الجواب في كل اللغات.

٨- في التركيب لدالة على الإرادة volition والغرض purpose تلي الصيغ الفعلية الفرعية دائماً في النظام المعتاد الفعل الأساسي إلا في اللغات التي يسبق فيها المفعول به الاسمى الفعل دائماً.

٩- في اللغات التي يسود فيها النظام ف م تسبق الأفعال المساعدة المتصرفة inflected auxiliary دائماً الفعل الأساسي، وفي اللغات التي يسود فيها النظام م ف تلي فيها دائماً الأفعال المساعدة المتصرفة الفعل الأساسي.

١٠- في اللغات التي يسود فيها النظام ف م تقع الصفة بعد الموصوف.

١١- إذا سبقت الصفة الموصوف في لغة ما فإن أسماء الإشارة تسبق المشار إليه، والعدد يسبق المحدود.

١٢- إذا كانت القاعدة العلمة فى لغة ما هى أن الصفة تلى الموصوف فقد تكون هناك قلة من الصفات تسبق الموصوف، فإذا كانت القاعدة العلمة أن الصفة تسبق الموصوف فلا استثناء.

١٣- إذا سبقت كلمة الإشارة المشار إليه، أو سبق العدد المحدود، أو الصفة الموصوف فإنها تقع دائماً هذا الموقع، وإذا وقع أى منها بعده فإلما أن يظل النظام ثابتاً أو يتحول إلى العكس.

١٤- إذا وقعت كل الظروف adverbs أو بعضها بعد صفة adjective بحيث تكون هذه الظروف مقيدة لها عدت للغة التى يقع فيها هذا من اللغات التى تقع فيها الصفة بعد الموصوف، ويسبق الفعل فيها مفعوله، نظماً سلكاً.

١٥- إذا كان ترتيب الموقع فى أسلوب التفضيل هو: الصفة + دليل الصيغة + مستوى التفضيل - marker - adjective كما فى الإنجليزية، وكان هذا الترتيب هو الترتيب الوحيد الممكن كانت اللغة من اللغات التى يسبق فيها الجار المجرور، فإذا كان ترتيب المواقع فى هذا الأسلوب معكوساً، أى مستوى التفضيل + دليل الصيغة + الصفة، وكان هذا هو الترتيب الوحيد، أو كان واحداً من أنواع بديلة من الترتيب كانت للغة من اللغات التى يلي فيها حرف الجر الاسم.

١٦- فى باب البدل apposition إذا سبق الاسم العلم proper noun الاسم العام common noun فإن اللغة التى يقع فيها هذا تكون واحدة من اللغات التى يسبق فيها المضاف المضاف إليه. فإذا كان الاسم العام يسبق عادة الاسم العلم فإن المضاف إليه يسبق المضاف فى اللغة التى يقع فيها ذلك.

- ١٨- إذا كانت الضميمة الموصولة تسيق الاسم سواء أكان هذا هو التركيب الوحيد أم كان تركيباً بديلاً فإن اللغة تكون من اللغات التي يقع فيها الجار بعد المجرور، أو الصفة فيها تسيق الموصوف، أو هما معاً.
- ١٩- إذا وقع المفعول به الضمير بعد الفعل فإن المفعول به الاسم يقع مثله بعد الفعل.

ج - العمليات المورفولوجية:

- ١- إذا كان في لغة زوائد منقمة discontinuous affixes كان فيها سوابق أو للاحق، أو هما معاً.
- ٢- إذا كانت اللغة لا تستخدم إلا اللواحق فموقع الجار فيها بعدى postposition وإذا كانت لا تستخدم إلا السوابق فموقع الجار فيها قبلى preposition.
- ٣- إذا كان كل من عنصرى الاشتقاق derivation والتصرف inflection تاليا للجنر root أو كانا كلاهما يسبقان الجنر فإن عنصر الاشتقاق يكون دائماً بين الجنر وعنصر التصرف.
- ٤- إذا كان في اللغة تصريف كان فيها دائماً اشتقاق.
- ٥- إذا كان للفعل فصيلتا شخص person وعدد number أو كان له فصيلة للجنس gender كان له دائماً فصيلتا زمن tense وصيغة mode.
- ٦- إذا تطابق في لغة ما أى من المسند إليه subject أو المفعول به object الفعل في الجنس فإن الصفة بها دائماً تطابق الموصوف في الجنس.
- ٧- إذا تطابق الفعل المسند إليه أو المفعول به في الجنس فإنه يطابقه أيضاً في العدد.

٨- إذا لم تحدث مطابقة بين الاسم والفعل في العدد، واعتمدت القاعدة على الترتيب فإن الحالة case تكون دائماً واحدة من تلك التي يكون فيها الفعل مقمماً، وفي صيغة الفرد.

٩- لا يقع في لغة عدد مثلث trial إلا إذا كان فيها مثلى ولا تقع الثنائية في لغة إلا إذا كان فيها الجمع.

١٠- ليس هناك لغة ليس للجمع فيها أومورفات غير صفرية، على حين أن ثمة لغات لا يعبر فيها عن المفرد إلا بالأومورفات الصفرية، أما المثلى والمثلث فلا يقتصر التعبير عنهما إطلاقاً على الأومورفات الصفرية.

١١- إذا كان في لغة فصيلة للجنس فإن فيها دائماً فصيلة للعدد.

١٢- لا يقع في لغة فصائل للجنس تكون أكثر في غير المفرد منها في المفرد.

١٣- حيثما يوجد نظام للحالة case فإن الحالة الوحيدة التي ليس فيها إلا أومورفات صفرية هي تلك التي تشمل بين معانيها معنى فاعل الفعل اللازم.

١٤- حيثما توجد مورفيمات للعدد والحالة كليهما، وكل منها يلى أو يسميق أساس الاسم noun base فإن التعبير عن العدد يقع في الأغلب بين أساس الاسم وتعبير الحالة.

١٥- حين تقع الصفة بعد الموصوف فإن الصفة تعبر عن كل الفصائل التصريفية للاسم، وقد يفقد الاسم في مثل هذه الحالة التعبير الصريح

عن واحد من هذه الفصائل أو عنها كلها.

١٦- إذا وقع الفعل في لغة بعد المسند إليه والمفعول به كليهما وكان هذا نظاماً متداً في تلك اللغة، كان في هذه اللغة على الأغلب نظام للحالة case system.

١٧- كل اللغات فيها ضمائر تشمل على الأقل ثلاثة أشخاص three persons وعتدين two numbers.

١٨- إذا كان في لغة فصيلة للجنس خاصة بالأسماء فإن فيها فصيلة للجنس خاصة بالضمائر.

١٩- إذا كان في لغة ما يميز المتكلم من حيث الجنس فإن فيها أيضاً ما يميز - من حيث الجنس - المخاطب والغائب، أو ما يميزهما كليهما.

٢٠- إذا كان في لغة ما يميز ضمائر الجمع من حيث الجنس كان فيها أيضاً ما يميز ضمير المفرد.

أنواع العالمية:

استطاع جرينبرج ولثان من زملاكه هما أوسجود Osgood وجكينز Jenkins أن يميزوا منذ بدايات بحثهم في العالمية أنواعاً منها، وقد فتح هذا باباً واسعاً للباحثين من بعد لمناقشة هذه الأنواع، وتطويرها، والإضافة إليها، والتوسع في إيراد الشواهد عليها. وهذه الأنواع هي:

١- العالمية غير المقيدة unrestricted universals:

وهي عند جرينبرج وزملايه أقوال تحدد الظواهر المشتركة بين اللغات جميعاً من دون استثناء، وقد أوردوا مثلاً واضحاً على ذلك من

المجال الفونولوجي هو: كل اللغات فيها صولت^(١)، وفرع كرونزس على هذه العالمية عالمية أخرى غير مقيدة هي: كل اللغات فيها الصولت / i a u /^(٢)، وذكر باحث آخر عالمية أخرى من هذا المجال هي: كل اللغات فيها صولت وفتية stops^(٣).

وقد أضاف بعض الباحثين عالميات أخرى من المجالين التركيبي والصرفي، فقدم بولنجر Bolinger (١٩٦٨) العالميات الآتية^(٤):

- كل اللغات فيها ضمائم لسمية، وضمائم فعلية تماثلاً مع القسمين للكبيرين: الاسم والفعل، وفيها كلها يفوق عدد الأسماء عدد الأفعال.
- كل اللغات فيها وسائل لتحويل الجمل الخبرية إلى استهلامية ومنفية وطلبية.
- كل اللغات فيها على الأقل صيغتان للتفاعل بين الأفعال والأسماء هما للزوم والتعدى.

وأضاف باحثون آخرون للعالميات الآتية:

- كل اللغات فيها أنظمة للضمائر تميز ثلاثة أشخاص: المتكلم والمخاطب

(١) Greenberg, J.H. - Osgood, Ch.E.- Jenkins, J.J.: Memorandum Concerning Language Universals, in. Greenberg, J.H. (ed.) 1973. P.xix

ونظر أيضاً:

- Langacker, R.W. (1973). P.247.

- Comrie, B. (1989). P.18.

Crothers, J. (1978). P.136.

O'Grady et al (1996). P.377.

Mallinson & Blake (1981). P.8.

- Langacker, R.W. (1973). P.249.

(٢)

(٣)

(٤)

والغائب، وعتدين على الأقل هما للمفرد والجمع^(١).

- كل اللغات فيها وسائل للإشارة^(٢).

- كل اللغات فيها وسائل للتعريف والتكثير^(٣).

على أن كثيراً من اللغويين يرون أن القول بسمّة ما موجودة في اللغات جميعاً ليس من الممكن اختبار صدقه، بل من السهل تحطيمه على صخرة اللغات التي تكتشف حديثاً، فضلاً عن أنه لا سبيل إلى اللغات التي ماتت، بل إنه لا سبيل إلى أوصاف كاملة لكل اللغات الحية في العالم^(٤).

وقد استطاع بعض الباحثين أن يجد أمثلة مضادة counterexamples للعالميات غير المقيدة فنكر أن لغة تسمى الكباردية Kabardian مستعملة في شمال غرب القوقاز تفقر إلى الصوائت الفونولوجية^(٥).

وشكك بعضهم في القول بأن كل اللغات فيها ضمائم اسمية، وضمائم فعلية، أولاً: لأنه ليس ثمة اتفاق على تحديد كل منهما في كل اللغات، وثانياً: لأنه ليس من السهل التمييز بين الفعل والاسم في بعض اللغات مثل اللغة التي تسمى نوتكا Nootka^(٦) وذكروا أنه على الرغم من أن الضميمة الاسمية

Atkinson et al (1988). P.363. (١)

Langacker, R.W. (1973). P.249. (٢)

محمود أحمد نطة: للتعريف والتكثير بين الدلالة والشكل (الإسكندرية ١٩٩٧) من ١٢ فما بعدها. (٣)

Mallinson & Blake (1981). P.8. (٤)

Payne, J.R. (1990). P. 293. (٥)

Payne, J.R. (1990), P. 294. (٦)

مستخدمة عالمياً، فإنه ليس في كل اللغات أسماء تعادل أسماء إنجليزية مثل laughter, Joy, sorrow.. إلخ^(١).

والضميمة الفعلية ليست مستخدمة في كل اللغات، فثمة لغات تجمع الفعل والمسند إليه في ضميمة واحدة. وثمة لغات لا يمكن أن يضم إلى الفعل فيها مكون آخر، فضلاً عن أن هناك أفعالاً واضحة مثل يقفز، ويسفك، ويطلرد ليس لها معادل في كل اللغات. وفي كثير من اللغات كلمات لها الخواص النحوية التي للأفعال كالدلالة على الزمن tense، والجهة aspect، والصيغة mood، والبناء للمعلوم أو المجهول^(٢).

كذلك قال بعضهم إن اللغة القوقازية المسماة Avar لا يظهر فيها التمييز بين اللازم والمعتدى من الأفعال، فكل الأفعال في هذه اللغة تتطلب التعبير عن واحد فقط من المشاركين في الحدث participants^(٣).

من أجل ذلك رأى بعض الباحثين أن العالميات غير المقيدة التي لا استثناء فيها بندر وجودها، فإن وجدت فليس لها قيمة حقة في البحث اللغوي^(٤). وعلى ذلك فالقول بالعالميات غير المقيدة مؤسس على أن الباحثين لم يكتشفوا حتى الآن استثناء منها، ولهذا فليس من الممكن من الواجهة العملية أن نكون على يقين من أن هذه العالمية أو تلك غير مقيدة حقاً^(٥).

Mallinson & Blake (1981), P. 9.

Ibid, P. 9.

Ibid. P.9.

Atkinson et al (1988). P.363.

Comrie, B. (1989). P.20.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

٢- الاستلزامات العالمية *universal implications*:

وهي عند جرينبرج وصاحبيه تقوم على عقد صلة بين خاصيتين لغويتين عالميتين نحو: إذا كان في لغة معينة للخاصية (أ) فإن فيها أيضاً للخاصية (ب)، لكن العكس غير صحيح، ومثال ذلك: إذا كان في لغة فصيلة للمثنى dual فإن فيها أيضاً فصيلة للجمع plural، لكن العكس غير صحيح ضربة لازب. وهم يعبرون عن ذلك بالسهم ذي الاتجاه الواحد: مثنى ← جمع^(١). ويرون أن مثل هذه الاستلزامات كثيرة حقاً بخاصة في المجال الفونولوجي^(٢).

وقد ذكر باحثون آخرون عالميات أخرى من هذا المجال منها^(٣):

- إذا كان في لغة أصوات أنفية مهموسة كان فيها أيضاً أصوات أنفية مجهورة. والعكس ليس لازماً.
- إذا كان في لغة من اللغات فونيمات احتكاكية fricatives فإن فيها أيضاً فونيمات وفتية stops والعكس ليس لازماً.
- إذا كان في لغة تقابل بين الصوائت الطويلة فإن فيها أيضاً تقابلاً بين الصوائت القصيرة، والعكس ليس لازماً.
- إذا كان في لغة فونيمات مجهورة يعترض عند النطق بها مجرى الهواء اعتراضاً كلياً أو جزئياً، كان فيها أيضاً فونيمات مهموسة، يعترض عند النطق بها مجرى الهواء اعتراضاً كلياً أو جزئياً، ولا يلزم العكس.

Greenberg et al (1973). P.xix.

Ibid, P.xx.

O'Grady et al (1996). P.374 ff.

(١)

(٢)

(٣)

- إذا كان في لغة فونيمات مزجبة affricates فإن فيها أيضاً فونيمات احتكاكية ووقفية، ولا يلزم العكس.

- إذا سمحت لغة بسلسلة من الصوامت في مستهل المقطع أو مختتمة سمحت أيضاً بصامت مفرد في مستهل المقطع أو مختتمة، والعكس غير لازم.

ولهذا النوع من العالميات شواهد من المجال التركيبي منها^(١):

- إذا كان في لغة ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم، والمخاطب كان فيها ضمائر منعكسة خاصة بالغاتب، ولا يلزم العكس.

- إذا سبقت ضميمة الصلة الاسم المسيطر عليها في لغة غير نغمية فإن نظام الجملة الأساسي فيها هو: س م ف.

وللاستلزمات العالمية صلة بمجالات مهمة في البحث اللغوي منها نظرية السمات للفرقة distinctive features theory إذ إن الصوائت الأنفية تشترك مع الفموية في كل السمات، وتفتقر عنها بسمة إضافية تتعلق بالأنفية nasality. ومنها نظرية الوسم اللغوي markedness، إذ إن الصوائت الأنفية موسومة والفموية غير موسومة^(٢). ومنها الترميس المقارن comparative reconstruction، إذ يمكن بها عند ترميس اللغات الأمات التنبؤ بوجود ظاهرة لغوية معينة حين توجد ظاهرة معينة^(٣).

(١) Comrie, B. (1989). P.19.

(٢) Atkinson et al (1988). P.364.

- O'Grady et al (1996). P.374 f.

(٣) Hopper, P.J. (1992). P.137.

ومن الجدير بالذكر أن جرينبرج وصاحبيه انتقوا إلى نوع من الامتزاز غير العالمي، وقد أطلقوا عليه مصطلح "التكاثر المقيد" restricted equivalence، وقصدوا به الامتزاز المتبادل بين خاصيتين غير عالميتين، وقدموا صياغة له على النحو الآتي:

- إذا كان في لغة معينة الخاصية غير العالمية (ج) فإن فيها أيضاً الخاصية غير العالمية (د) والعكس صحيح، ونكروا مثلاً لذلك هو: إذا كان في لغة طقطقة جانبية Internal click فإن فيها أيضاً طقطقة أسنانية dental.

وهذه الخاصية ليست عامة في اللغات، بل هي مستعملة في لغات موجودة في منطقة بعينها من جنوب أفريقيا^(١). وظاهر أن هذا النوع من الامتزاز لا يدخل في العالميات، ولم يلتفت إليه الذي نكروا أنواع العالميات من الباحثين.

٣- العالميات الإحصائية statistical univesals:

وقد حدها جرينبرج وصاحباه بأنها خواص في لغات العالم زلت من الناحية الإحصائية على الخواص التي تعابها زيادة كبيرة تقترب بها من العالمية. ونكروا الصوامت الألفية مثلاً لها فهي موجودة في كل اللغات ما عدا لغات قليلة مثل اللغات السالشية Salishian وبعض اللغات المجاورة لها، لهذا فمن الجائز أن تصاغ عالمية تقول:

- الأغلب في اللغات أن يكون فيها على الأقل صامت أنفي واحد^(٢).

Greenberg et al (1973). P.xx.

(١)

Ibid, P.xx.

(٢)

وقد أكدت بعض الدراسات الإحصائية ما ذهب إليه جرينبرج وزميلاه، إذ أثبتت دراسة فونولوجية لأكثر من ثلاثمائة لغة أن نسبة اللغات التي تخلو من الصوائت الأنفية أقل من ٣٪^(١)، كما ثبت أيضاً أن نحو ٩٩٪ من اللغات التي درس فيها نظام الجملة كان المسند إليه فيها سابقاً على المفعول به^(٢).

ومن للعالميات الإحصائية أيضاً ما يأتي^(٣):

- أغلب اللغات تستعمل الفونيمات الوقفية / p t k /، وقليل من اللغات تخلو من واحد من هذه الثلاثة، لكن ليس هناك لغة تقتصر إلى هذه الصوائت جميعاً. فإذا فقدت اللغة واحداً منها فالأغلب أن يكون / p / كما في النوبية (والعربية)، والفونيم الأكثر استخداماً من هذه الثلاثة هو / t /.
- أكثر الصوائت الاحتكاكية شيوعاً في لغات العالم هو / s /، فإذا كان في لغة من اللغات صوت احتكاكي واحد فالأغلب أن يكون / s / كما في اللغة المسماة ناندى Nandi المستخدمة في كينيا ففيها صوت احتكاكي واحد هو / s /، والصامت الاحتكاكي الذي يليه في الشروع هو / f /.
- إن كان في لغة فونيم أنفي واحد فالأغلب أن يكون / n / فإن كان فيها فونيمان أنفيان متقابلان فهما عادة / m / و / n /.
- الأغلب في اللغات أن يكون فيها فونيم مائع واحد.

Crystal, D. (1989). P.85. (١)

- Comrie, B. (1989). P.19.

Crystal, D. (1989). P.85. (٢)

O'Grady et al (1996). P.377 ff. (٣)

٤ - الارتباطات الإحصائية statistical correlations :

ذكر جرينبيرج وزميلاه أن هذا النوع يختلف عن سابقه لاختلاف الاستنزامات العالمية عن العالميات غير المقيدة، وهم يعنون به أنه إذا كان في لغة خاصة معينة فإن فيها خاصية أخرى يغلب ورودها معها.

والمثال على ذلك: اللغات التي فيها ضمير يدل على جنس المخاطب يغلب أن يكون فيها ضمير يدل على جنس الغائب، ولكن العكس غير صحيح. ولو أن هذه العالمية كانت من دون استثناء لأصبح عندنا استنزامية عالمية تقول: إذا كان في لغة ضمير يدل على جنس المتكلم فإن فيها ضميراً يدل على جنس للغائب، لكن ثمة لغات في وسط نيجيريا فيها ضمائر تميز جنس المخاطب، وليس فيها ضمائر تميز جنس الغائب، فإذا كان هذا الزعم صحيحاً وليس ناتجاً عن سوء وصف لها فمن الممكن أن نصوغ ارتباطاً إحصائياً على النحو الآتي:

- إذا كان في لغة ضمير يميز جنس المخاطب فالأرجح أن يكون فيها ضمير يميز جنس الغائب^(١).

تلك هي العالميات التي يعمل في إطارها جرينبيرج ومن تبعه منذ سنة ١٩٦٣. وقد حاول كورمى من بعد أن يضبط أنواعها ومصطلحاتها، وأن يضيف إليها بعض الأمثلة التوضيحية، فرأى أن العالميات نوعان: مطلقة ونسبية، وأن كلا من المطلقة والنسبية إما استنزامية وإما غير استنزامية، فأطلق على النوع الأول من عالميات جرينبيرج وزمليه مصطلح العالميات

Greenberg et al (1973). P.xx.

(١)

المطلقة غير الاستلزامية absolute non implicational universals مثل: كل اللغات فيها صوائت. وأطلق على النوع الثاني من عالميات جرينبرج وزميليه مصطلح العالميات المطلقة الاستلزامية absolute implicational universals مثل: إذا كان في لغة ضمير منعكس خاص بالمتكلم والمخاطب فلن فيها ضميراً منعكساً خاصاً بالغاتب.

وقد أطلق على النوع الثالث من عالميات جرينبرج وزميليه مصطلح عالميات نسبية غير استلزامية، أو نزعات عالمية غير استلزامية non-implicational universal tendencies مثل: أغلب اللغات فيها صوائت أنفية.

أطلق على النوع الرابع مصطلح نزعات عالمية استلزامية implicational universal tendencies مثل: إذا كان نظام الجملة في لغة هو *postposition* لكن الفارسية تعدّ مثلاً مضاداً لذلك إذ فيها هذا النظام لكن الجار فيها يقع قبل المجرور *preposition*^(١).

وقد كتب لمصطلحات كومري من الشروع ما لم يكتب لمصطلحات جرينبرج وزميليه.

ومما ينبغي للفت إليه أن جرينبرج وزميليه تنبهوا إلى أن كل ما قدموه من بحث في العالميات ينحو منحى تزامنيا synchronic يقوم على رصد السمات المشتركة في لغات العالم وبيان العلاقات بين بعضها وبعض، لكنه لم يعن بالدراسة الزمانية diachronic التي تعنى بالتطور اللغوي عبر المراحل الزمانية المتعاقبة، فلم يقدموا عالميات تكشف عن السمات المشتركة

Comrie, B. (1989). P.19.

(١)

التي تسم اللغات في تطورها أو تغييرها عبر الزمن، وفتوا إلى أن هذا المجال جدير بالبحث^(١) وقد عاد جرينبرج سنة ١٩٧٨ إلى الحديث عن الوجهتين الزمانية والتزامنية في دراسة العالميات^(٢)، ثم على من بعد باحثون كثيرون بهذا النوع من العالميات^(٣)، وهو من غير شك في حاجة إلى أن يفرّد له بحث مستقل في العربية.

هذان إذن هما الاتجاهان السائدان في دراسة العالميات اللغوية، أحدهما ينطلق من الفطرة الإنسانية ليصل إلى العالميات، والثاني ينطلق من دراسة أكبر عدد ممكن من اللغات للوصول إلى العالميات، فهنكها واحد، وإن اختلفت بهما السبل. ومن ثم كان بعض الباحثين على حق حين قال إن الاتجاهين غير متناقضين، بل هما متكاملان وليس أحدهما بقليل وحده على الوصول إلى هذا الهدف^(٤).

ولعل مما يدعو للدهشة أن اللغة العربية لم تأخذ مكانها الجدير بها في التصنيف النوعي للغات أو العالميات؛ وعدد مستخدميها لغة رسمية يزيد على مائة وخمسين مليوناً، فضلاً عن ملايين أخرى عديدة تستخدمها لغة ثانية، في حين أن لغات لا يتجاوز عدد مستخدميها بضع مئات تخرج بين اللغات التي

(١) Greenberg et al (1973). P.xxii.

(٢) في بحث له عنوانه:

Diachrony, Synchrony and Language Universals, in: Greenberg, J.H. (1978) Vol.1. P.7 ff.

(٣) انظر على سبيل المثال:

Fox, A.: (1995): Linguistic Reconstruction. An Introduction to Theory and Method.

وثبت المراجع الوارد فيه ص ٣٣٠ فما بعدها.

(٤) Hawkins, J.A. (1988). P.4.

- Comrie, B. (1989). P.23.

تكون مادة الدراسة في هذين الجانبين، ولا عذر لمعتز في ذلك، فقد أتىح
لأنظمة العربية الصوتية، والصرفية والنحوية، والدلالية وصف دقيق قنمه
علماء العربية منذ قرون، وتوفر على درسها علماء أوروبيون كثيرون فتنموا
في ظواهرها المختلفة بحثاً لا تحصى كثرة مكتوبة بأكثر اللغات الحية
شيوفاً وأوسعها انتشاراً: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وبالرغم من ذلك
تجدهم يحيدون عنها ويؤثرون عليها العبرية، وقد اضطرت في مواضع من
البحث أن أنكر بالعربية فكنت أضعها بين هالين حتى يأتي وقت أستطيع فيه
أن أفرد بحثاً لموقع العربية من التصنيف النوعي، وما يكون من ظواهرها
داخلاً في العالميات، وما يكون منها أمثلة مضادة، وأرجو أن أتمكن من
إنجازه في أقرب وقت إن شاء الله. والله الموفق والمستعان.

**النهج الاستبدادي
في كتاب سيبويه**

لكتاب سيويوه مكانة غير منكرة في تاريخ الدرس اللغوى عند العرب فهو أول كتاب نحوى وصل إلينا، استطاع فيه صاحبه أن يقدم وصفاً شاملاً دقيقاً للغة العربية في نحو ألفى صفحة^(١) تنظم خمسمائة وثمانية وخمسين باباً، وأربعمائة وعشرين شاهداً قرآنيًا، وثمانية شواهد من الحديث النبوى الشريف وتسعمائة وسبعة وأربعين بيتاً كاملاً من الشعر العربى لم يشك أحد في صحتها، وخمسة من أجزاء أبيات، وواحدًا وأربعين مثلاً عربيًا، وثلاثمائة وست عبارات مسموعة عن العرب، ومائتين وستة وتسعين شاهداً من الأرجاز، وثمانمائة وخمسين رأياً لأئمة النحاة السابقين عليه^(٢). وعدداً لا يكاد يحصى كثرة من الأمثلة التى صاغها سيويوه قياساً على ما هو مستعمل من لغة للعرب.

وليس بين أيدينا ما يدل على أن سيويوه بنى كتابه على كتاب قبله توسعة له أو تطويراً، أو أفاد منه فى تصنيف مادته اللغوية وتبويبها، أو أخذ عنه منهجه فى العرض والتحليل.

ولست أشك فى أن سيويوه صدر فى وصفه للنظام اللغوى فى العربية، وبيان القوانين التى تحكم الاستعمال الصحيح للغة، عن أسس منهجية

(١) طبعة عبد السلام هارون، (القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٧).

(٢) قمت بهذا الإحصاء من خلال الفهرس التى أعدها الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب سيويوه فى الجزء الخامس (القاهرة ١٩٧٧)، وهو مخالف للإحصاء الذى نقله د. حسن عون عن الطبعة الأوروبية إلا فيما يتصل براء النحاة، انظر: د. حسن عون، أول كتاب فى نحو العربية فى مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية م ١١ سنة ١٩٥٧، ص ٣٩ وما بعدها.

كانت قائمة في ذهنه لم يعن ببيضاها عنايته بإجراءات التحليل اللغوي، ولا نكاد نجد في التراث النحوي من بعده من حاول استظهار هذه الأسماء، والتأصيل النظري لها، وتحديد دورها في النظرية اللغوية عند سيبويه، على كثرة من عرضوا لكتاب سيبويه شرحاً لمتنه وشواهد، ومناقشة لمشكلاته وقضاياها، واعتراضاً عليه.

على أن بعض الباحثين المحنثين من العرب ومن غير العرب حاولوا أن يستخرجوا بعض هذه الأسماء في ضوء معارف العصر، فظهر لهم أن لبعض ما جاء به سيبويه نظيراً في المدارس اللغوية المعاصرة، فلكتفي بعضهم بالفت إلى ذلك منيهاً إلى أن تأمل المادة اللغوية قد يفضي إلى استنتاجية واحدة أو متقاربة عند باحثين من لغات مختلفة، وإن اختلفت المنطلقات، والغايات، والمصطلحات^(١)، وأثبت بعضهم لسيبويه سبقاً إلى بعض هذه الأسماء بعشرة قرون^(٢)، ووصولاً إلى نماذج من التحليل البنيوي لم يعرفها الغرب حتى القرن العشرين^(٣).

(١) انظر في ذلك:

- Mosel, U.: Die syntaktische Terminologie bei Sibawaih (Diss.) München 1975, S. 13, 73- 4.

- Owens, J.: Early Arabic Grammatical Theory, Amsterdam 1990, p.35.

- Versteegh, C.H.M.: The Arabic Terminology of syntactic Position, in: Arabica Tome XXV 1970, p. 263 f.

وانظر د. نهاد الموسى نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، بيروت ١٩٨٠م، ص ٢٢، ٣٨.

ود. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، بيروت

١٩٨٦م، ص ٥٩، ١٤٥، ١٥٠ فما بعدها.

(٢) د. عبد الرحمن أيوب: التفكير اللغوي عند العرب: مصادره ومراحلها، في: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٢٤، يناير ١٦٩، ص ١٢٧.

(٣) Carter, M.: An Arabic Grammarian of the Eighth Century A.H. JAOS. 93, p. 157.

ولا ريب في أن قراءة سيبيويه في ضوء النظريات اللغوية المعاصرة تعين على استخراج بعض هذه الأمس المنهجية، وتحديد مكان هذا الكتاب ومكانته في الدرس اللغوي العالمي، وهذا البحث محاولة لاستخراج واحد من أهم الأمس المنهجية، التي اعتمد عليها سيبيويه، من كتبه ذاته، أصطلح عليه بـ "النهج الاستبدالي" ولما كان سيبيويه يلتقى في هذا النهج مع مدرسة لغوية حديثة هي "التوزيعية" Distributionalism فقد رأيت أن أوجز تصورها لهذا الأسس، ثم أعرض لتصور سيبيويه له، وتقنيات استخدامه، وأهدافه منه، ثم أقرن في النهاية بين التصورين.

(٢)

التوزيعية هي المرحلة الثانية في تطور علم اللغة الوصفي في أمريكا، أو ما يطلقون عليه "البنوية الأمريكية"^(١)، وضع أسسها هاريس في الخمسينيات من هذا القرن^(٢)، ويعد كتبه: "مناهج في علم اللغة البنوي Methods in Structural Linguistics الذي صدر في شيكاغو سنة ١٩٥١ إنجيل هذه المرحلة، وقد بين فيه منهج البحث وإجراءات التحليل"^(٣).

لقد حاول هاريس أن يقدم نموذجًا للتحليل اللغوي بمنهج العلوم المضبوطة، فأتجه إلى تطوير تحليل يقوم على أسس شكلية بعيدة عن الأمس

Helbig, G.: Geschichte der neueren Sprachwissenschaft, Opladen 1981, (١) S.80.

Stammerjohann, H. (Hrsg.): Handbuch der Linguistik, München, 1975, (٢) S.97.

Helbig; (1981) S.81. (٣)

العقلية أو الدلالية^(١). فالتحليل للغوى عنده يقوم على أن العلاقة بين العنصر اللغوية في الأداء الكلامي ليست اعتباطية أو تعسفية، فكل عنصر يقع مواقع معينة بالقياس إلى العناصر الأخرى^(٢). وثمة قيود تركيبية تحكم وروده مع عناصر أخرى، أو بعبارة اصطلاحية: تُحدد توزيع عنصر* بالقياس إلى العناصر الأخرى، ويحدد هاريس مفهوم التوزيع بقوله: «أى توزيع لغوى هو مجموع كل السياقات environments التي يرد فيها، أى مجموع المواقع positions التي يقع فيها العنصر اللغوى بالقياس إلى العناصر الأخرى»^(٣).

ولكى نصل إلى تحديد العنصر اللغوى أو 'اكتشافه' ثم معرفة توزيعه* ينبغي أن نقوم بإجراءين يعتمدان على أساس منهجى هو الاستبدال
:Substitution

أحدهما: تقطيع الكلام المتصل فى المادة اللغوية إلى الوحدات الصغرى التي تسمى المورفات morphs.

الثانى: تصنيف المورفات وتجميعها فى مورفيمات Morphemes.

ولما كانت المورفيمات عندهم وحدات مجردة تنتمى إلى النظام اللغوى Langue والمورفات هى الوحدات الصغرى للكلام الفعلى المحقق Parole كان لابد أن تصنف المورفات وتجمع فى مورفيمات، وتلك هى الخطوة الأولى، ثم الخطوة الثانية تكون بتصنيف المورفيمات بناءً على تماثلها فى العلاقات التوزيعية إلى أنواع مورفيمية، وتوسيع الأنواع لتشمل

Brinker, K.: Modelle Und Methoden der Strukturalistischen Syntax, (١)
Köln, 1977, S.35.

Harris, Z.S.: Papers in Structural and Transformational Linguistics, (٢)
Holland, 1970, p. 775.

Ibid. (٣)

ضمائم من المورفيمات ذات توزيع متماثل، ثم تجميعها في أقسام مورفيمية كبرى تسمى الأقسام الموقعية، والخطوة الثالثة تكون بوصف إمكانات الربط بين الأقسام الموقعية المختلفة لتصل بها إلى وصف تركيب الجملة، لإجراءات التحليل أو خطواته تتجه من أسفل إلى أعلى بتجميع المورفات في مورفيمات، والمورفيمات في ضمائم مورفيمية، والضمائم المورفيمية في أقسام مورفيمية كبرى أو في أقسام موقعية، وتحدد بعد ذلك العلاقات بين الأقسام الموقعية، فيتحقق بذلك وصف بناء الجملة وصفاً شديداً البساطة والاقتصاد^(١).

وقد شرح هاريس إجراءات التحليل على النحو الآتي:

إذا وردت صيغة مثل (أ) في سياق مثل (ج - د) ثم استبدلنا بـ (أ) صيغة أخرى هي (ب) أي وضعناها مكان (أ)، فإذا كانت العبارة الناتجة عن الاستبدال لا تزال مستخدمة في اللغة، بمعنى أن اللغة لا تستخدم (ج - أ د) فحسب، بل تستخدم أيضاً (ج - ب د) فإتينا نقول: إن (أ) و(ب) تنتميان إلى قسم استبدالي واحد Substitution Class أو أن كلا من (أ) و(ب) يصح أن يشغل الموقع (ج - د)^(٢).

وهكذا نرى أن للاستبدال دوراً أساسياً في "اكتشاف" العناصر اللغوية التي يمكن أن يحل أحدها محل الآخر، وتحديد توزيعها، وقد نص هاريس على ذلك فقال: "الاستبدال نهج أساسي في علم اللغة الوصفي"^(٣).

Brinker, (1977), S. 58 ff. (١)

- Helbig, (1981), S. 80 f.

- Harris, (1970) p. 234.

Brinker, (1977), S. 36. (٢)

Harris, (1970), p. 102. (٣)

ولا يقتصر الاستبدال عندهم على استبدال مفرد بمفرد، بل يتعدى ذلك إلى الضمائم أو العبارات^(١)، وقد حددوا للتوزيع أملاً ثلاثاً^(٢).

١- التوزيع الحر Frei:

ويتحقق حين تتطابق السياقات التي ترد فيها وحدتان لغويتان (أ) و(ب) مثلاً تطابقاً تاماً، ويجوز استبدال إحداها بالأخرى في أى سياق لغوي، ويمكننا أن نقول: إن كلا منهما معادل توزيعي للأخر.

٢- التوزيع التفاضلي: Kontrastiv:

ويتحقق حين تتطابق السياقات التي يرد فيها العنصران اللغويان (أ) و(ب) تطابقاً جزئياً (غير تام)، ويتميز هنا نوعان من العلاقات:

أحدهما: أن تطابق كل السياقات التي ترد فيها (أ) عدداً من السياقات التي ترد فيها (ب)، أى أن (ب) يمكن أن تحل في كل سياق محل (أ)، لكن (أ) لا تحل محل (ب) إلا في بعض السياقات، فيبين التوزيعين علاقة اشتمال.

الثاني: أن تختلف بعض السياقات التي ترد فيها (أ) عن بعض السياقات التي ترد فيها (ب) بمعنى أن (أ) تحل في بعض السياقات محل (ب)، و(ب) تحل في بعض السياقات محل (أ)، ولكل منهما بعد ذلك سياقاته الخاصة به، والعلاقة التي بينهما علاقة توزيع متقاطع.

(١) Lewandowski, Th., Linguistisches Wörterbuch, Heidelberg 1979, 3/946.

(٢) Brinker, (1977), S. 37.

٣- التوزيع التكاملي: Komplementär:

ويتحقق حين لا تتحد السياقات اللغوية التي ترد فيها وحدتان لغويتان فلا تحل إحداها محل الأخرى في أى سياق.

وينبغي، قبل أن أختتم الحديث عن التوزيعية، أن أشير إلى لفرق عندهم بين الاستبدال Substitution والإبدال mutation فالاستبدال إحلال عنصر لغوى محل آخر فى سياق لغوى واحد، أما الإبدال فهو إبدال فونيم مكان آخر أو قلبه إليه بتأثير الأصوات المجاورة^(١).

(٣)

يقوم النهج الاستبدالى فى كتاب سيويه على أساس شكلى بعيد فى الأغلب الأعراف عند الافتراضات العقلية والنواحي الدلالية، فهو يعتمد على مادة لغوية متمثلة فى الأداء الكلامى المحقق، ولا أدل على ذلك من أن القول ومشتقاته فى كتابه أكثر من أن يحصى، أو كما قال تروبو (non dénombré)^(٢) ثم إنه ينتهج نهجاً منضبطاً يقوم على استبدال عنصر لغوى بآخر فى موقع محدد من السياق الكلامى، وقد استطاع به تحديد الأقسام الموقعية الكبرى، ثم عاد إلى كل قسم منها فبين بالاستبدال أيضاً أنواعه، والعلاقات التوزيعية بين كل نوع؛ وصولاً إلى إيضاح الفروق بين الأنواع المختلفة فى إطار القسم الواحد، وتحديداً لوظيفة كل منها فى التركيب، وبيان صحة استخدامها، وأثره

Robins, R.H.: General Linguistics, An Introductory Survey, Hong Kong, 1978, p. 192. (١)

Troupeau, G. Lexique- Index du Kitab de Sibawayhi, Paris, 1976, p. 176. (٢)

في تغيير التركيب الذي يتبعه تغير في التحليل، على نحو منفصل القول فيه من بعد.

على أن سيويه لم يذكر مصطلحاً خاصاً لهذا النهج الاستبدالي، وخلا كتابه من الفعل "استبدل" أو مصدره، أو أى مشتق من مشتقاته، ذلك بأنه - كما أشرنا - غير معنى بالإيضاح النظرى لهذا الأملس في كتابه، بل يتجه مباشرة إلى استخدامه في التحليل اللغوى، لكنه يشير إلى القدرة الاستبدالية لعنصر من العناصر اللغوية باستخدام كلمات وعبارات يروح بينها، وأهمها: بمنزلة^(١)، وقع موقع^(٢)، جرى مجرى^(٣)، كذلك قلت^(٤)، فى معنى^(٥)، فى موضع^(٦)، وتقول... كما تقول^(٧)، يوافق قولك^(٨)، على أننا نلقت إلى أنه يستخدم بعض هذه الألفاظ والعبارات فى غير الدلالة على الاستبدال، وأن قوله فى معنى لا يعنى به فى الأغلب المعنى الدلالى، بل المعنى التركيبى أو الوظيفى.

(١) سيويه، الكتاب، ط. هارون، ج ١، ص ١٦، ١٧، ٤٠، ٤٤، ١٨١، ج ٢، ص ٢٣، ٢٨٣، ٢٩٠، ٣٠٢، ٣١٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ج ٣، ص ٦، ٢٦٨، ج ٤، ص ٢٢١، ٢٢٨، ٢٣٤.

(٢) سيويه: للكتاب، ج ١، ص ١٦، ١٢٢، ٢٢٧، ج ٢، ص ٨٨، ١٢٨، ٣٥١، ج ٣، ص ١٧، ٣٥١، ٣٦٨.

(٣) سيويه: للكتاب ج ١، ص ١٦٤، ١٦٨، ١٨٩، ٢٨٧، ج ٢، ص ٢٤.

(٤) سيويه: للكتاب، ج ١، ص ١٤، ٨٤، ١٠٩، ١٣١، ١٣٦، ج ٢، ص ٣٨٧، ٣٩١، ٢٩٣، ج ٣، ص ٦، ١١، ١١٩، ١٢٠.

(٥) سيويه: للكتاب، ج ١، ص ٢٠، ١٣٠، ١٨١، ٢٧٤، ج ٣، ص ١١، ج ٤، ص ٢٣٥.

(٦) سيويه: للكتاب ج ١، ص ١٦، ٨٤، ١٥٥، ٢٦٩، ٣١٩، ٣٧٠، ج ٢، ص ١٣٢، ٢٧٥، ٢٩٣، ج ٣، ص ٥٥، ١١٩، ١٢٠، ١٨٦، ٢٨٦.

(٧) سيويه: للكتاب، ج ١، ص ٤٥، ٦٠، ١١٠.

(٨) ج، ص ١٤.

وقد استخدم سيويوه "البدل" دالاً على باب نحوي^(١)، واستخدمه دالاً على ظواهر صوتية يوضع فيها صوت لغوي مكان آخر أو يقبض إليه في إطار الكلمة المفردة^(٢)، وعلى ظواهر صرفية توضع فيها صيغة مكان أخرى^(٣)، وقد ورد لفظ (بدل) مرة واحدة دالاً على عنصر لغوي يمكن استبداله بأخر^(٤)، كما استخدم الإبدال مصطلحاً صوتياً وصرفياً^(٥) والمبدل والمبدل منه مصطلحين نحويين^(٦) لكنه لم يستخدم لياً من هذه الألفاظ للدلالة على النهج الاستبدالي.

ولعلنا أتت هنا إلى أن سيويوه استخدم التعاقب/ المعاقبة مصطلحاً دالاً على ما يعنيه المحدثون بالتوزيع التكاملي، بمعنى أن كلا من العنصرين يرد في سياقات لا يرد فيها الآخر، بحيث لا يمكن استبدال أحدهما بالآخر، كالمعاقبة بين "ال" والتتوين^(٧)، وبين أين ومتى^(٨)، وبين أنا وتاء فعلت^(٩)، وبين "ياى" و"ى" فى إياى رأيت ورأيتى^(١٠)، ومعاقبة الجر للتتوين فى اسم الفاعل^(١١)، ومعاقبة الاسم للفظ بالفعل فى نحو: لقائنا وقد قعد للنس^(١٢).

(١) سيويوه: الكتاب ١/ ١٥٠ - ١٥٨، ٢/ ١٤ - ١٧.

(٢) سيويوه: الكتاب ٤/ ١٢٩ - ١٣٠، ٢٣٩، ٢٤٠.

(٣) سيويوه: الكتاب، ج ٣/ ٣٥٧، ج ٤/ ١٩٩.

(٤) سيويوه: الكتاب ١/ ٣١٧.

(٥) سيويوه: الكتاب ٤/ ١٩٩.

(٦) سيويوه: الكتاب ١/ ٤٣٩.

(٧) سيويوه: الكتاب ١/ ١٦٥.

(٨) سيويوه: الكتاب ١/ ٢١٩.

(٩) سيويوه: الكتاب ٢/ ٣٥١.

(١٠) سيويوه: الكتاب ٢/ ٣٦٤.

(١١) سيويوه: الكتاب ١/ ٦٥.

(١٢) سيويوه: الكتاب ١/ ٣٤٣.

ونريد الآن أن نفصل القول في النهج الاستبدالي أساساً منهجياً من
أسس التحليل النحوي عند سيبويه:

لقد كان الاستبدال أساساً منهجياً لتقسيم للكلم عند سيبويه إلى ثلاثة
أقسام؛ فقد نظر فوجد أن ثمة ثلاث طوائف من الكلمات لا يحل أحدها - في
أصل الاستعمال - محل الآخر في أي سياق لغوي صحيح، وبحث عن أصل
نموذجي للطلاقة الأولى فوجده في "اسم الجنس"^(١) فكان مفتاحاً لتقسيم عنده،
إذ عد كل ما يقع موقع اسم الجنس، ولو في سياق لغوي واحد اسماً، فضم
بذلك إلى قسم الأسماء عدداً كبيراً من الأنواع، ثم نظر فوجد أن الفعل لا
يمكن بحال أن يحل محل اسم الجنس في سياق لغوي صحيح، ففصله عن
الاسم وجعله قسماً قائماً برأسه، ولا أدل على ذلك من قوله: «ويبين لك أنها
ليست بأسماء أنك لو وضعتها موضع الأسماء لم يجز لك، ألا ترى أنك لو
قلت: إن يضرب يأتينا ولشبهه هذا لم يكن كلاماً»^(٢) وكذلك فعل مع الحرف،
إذ لا يحل محل فعل ولا اسم جنس في سياق لغوي صحيح، فكانت أقسام
الكلام عنده ثلاثة وهذا أساس منهجي منضبط يقوم على وصف المادة اللغوية
وتصنيفها دون اعتماد على المعنى^(٣).

وسوف نعرض الآن لاستخدام سيبويه النهج الاستبدالي في إطار كل
قسم من هذه الأقسام محددين للعناصر الاستبدالية، ودور الاستبدال في تحديد
استخدامها اللغوي، ثم نتحدث عن تقارض الأقسام في الاستبدال.

(١) Mosel, Die Syntaktische, Teriminologie, S. 12.

(٢) سيبويه: الكتاب ١/١٤.

(٣) راجع في تفصيل ذلك كتابي: الاسم والصفة في النحو العربي والدراسات الأوروبية
(الإسكندرية ١٩٩٢) ص ١٤ وما بعدها.

أولاً: الاسم:

استخدم سيبويه النهج الاستبدالي في إطار قسم الاسم تحقيقاً لما يأتي:

١- تحديد الأنواع التي تنتمي إلى قسم الاسم، فعد كلمات الإثارة كلها والضمائر كلها أسماء لأن كلا منها يقع موقع الاسم الأصلي، ويقوم بوظيفته، وأمثالته شاهدة على ذلك^(١).

- أخوك عبد الله معروفاً.

- هذا عبد الله معروفاً.

- هو زيد معروفاً.

وعد اسم الفاعل في الأسماء لأنه يقع موقع الاسم الأصلي أيضاً،

يقول:

«ولو قال: أأدار أنت نازل فيها فجعل نازلاً اسماً رفع كأنه قال:

أأدار أنت رجل فيها

«ولو قال: أزيد أنت ضاربه فجعله بمنزلة قولك:

أزيد أنت أخوه، جزاء»^(٢).

وعدّ «الفاعل» في الأسماء أيضاً؛ لأنها تقع موقع الاسم الأصلي، وهذا واضح

في قوله: «ومما لا يكون في الاستفهام إلا رفعاً قولك:

أعبد الله أنت أكرم عليه أم زيد.

(١) سيبويه: للكتاب ٧٨/٢، ٨٠.

(٢) سيبويه: للكتاب ١/١٠٩.

أعبد الله أنت له أصدق لم بشر كلك قلت:

أعبد الله أنت أخوه لم عمرو^(١).

وعدّ عدداً آخر من للكلمات الجامدة في الأسماء لوقوعها موقع الاسم الأصلي أو لكونها تتم مع عنصر آخر كلاماً يحسن السكوت عليه، فقال في الإشارة إلى اسمية المصدر: «وتقول: زيد أنت له لئد ضرباً لم عمرو؟... فالصدر ههنا كغيره من الأسماء كقولك: زيد أنت له أطلق وجهاً لم فلان؟»^(٢) وقال في الإشارة إلى اسمية الموصول وصلته: «كما أن الذين فعلوا مع صلته بمنزلة اسم»^(٣)، وقال أيضاً: «والذي يأتي بمنزلة عبد الله»^(٤)، وقال في الإشارة إلى اسمية مغط: «لو لم تكن اسماً لم تقل: قطك درهمان فيكون مبيئاً عليه»^(٥)، وقال في الإشارة إلى اسمية حسب: «واعلم أنهم إما قالوا: حسبك درهم وقطك درهم فأعربوا حسب لأنها لئد تمكناً»^(٦)، وقال في الإشارة إلى اسمية أن وصلتها: «إذا قلت: أخشى أن تفعل فكأنك قلت: أخشى فعلك، فلا ترى أن * أن تفعل* بمنزل الفعل»^(٧)، وقال: «وتقول: انكر أن تاد نقتك أحب إليك أم أنثى كأنه قال: انكر نتاجها أحب إليك أم أنثى»^(٨)، وقال في الإشارة إلى اسمية أن ومعمولها: «وتقول: بلغنى أنك

(١) السابق ١/١٣٢.

(٢) السابق ١/١٣٢.

(٣) السابق ١/١٨٦.

(٤) السابق ٣/١٠٢.

(٥) السابق ٣/٢٦٨.

(٦) السابق ٣/٢٦٨، ونظر ١/٦٧.

(٧) سيويه: الكتاب ٣/٦.

(٨) السابق: ١/١٣١.

منطلق كأنك قلت: 'بلغنى ذلك' (١)، وقال: «ألا ترى أنك تقول: بلغنى أن زيدًا جاء، فلن زيدًا جاء كله اسم» (٢).

٢- تحديد المواقع التي تتوارد عليها العناصر الاستبدالية في سياقات محددة وهذه العناصر قد تكون مفردات أو عبارات أو جملًا.

- فمن ذلك قوله: «هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه حل وقع فيه الأمر فانتصب لأنه موقوف فيه الأمر، وذلك قوله: قتلته صيرًا، ولقيته فجاءة، ومفاجأة، وكفلاً ومكفحة... وليس كل مصدر وإن كان في القيس مثل ما مضى من هذا الباب يوضع هذا الموضع؛ لأن المصدر ههنا في موضع فاعل إذا كان حالاً، ألا ترى أنه لا يحسن أننا سرعة، ولا أننا رجلة، كما أنه ليس كل مصدر يستعمل في باب سقيا وحما» (٣).

- وقوله: «ومثل ذلك قولك للرجل: أجننتا بغير شيء، أى: رائقاً» (٤).

- وقوله: «هذا باب ما ينتصب من الأسماء التي ليست بصفة ولا مصادر لأنه حل يقع فيه الأمر، وذلك قولك: كلمته فاه إلى في، ويابعته يدًا بيد كأنه قال: كلمته مشافهة ويابعته نغذاً، أى: كلمته في هذه الحال» (٥).

- وقوله: «وتقول: لأضربنه ذهب أو مكث كأنه قال: لأضربنه ذاهبًا أو ماکثًا» (٦).

(١) السابق ١١٩/٣.

(٢) السابق ١١/٣.

(٣) السابق ٣٧٠/١.

(٤) السابق: ٢٠٢/٢.

(٥) سيبويه: الكتف ٣٩١/١.

(٦) السابق ١٨٥ /٣.

- وقوله: «ألا ترى أنك تقول: أنت الرجل إن تزلزل أو إن تخلصم كذلك قلت: نزلاً وخصومة»^(١).

وقوله: «واعلم أن لا^(٢) وما عملت فيه في موضع ابتداء، كما أنك إذا قلت: هل من رجل فالكلام بمنزلة اسم مرفوع مبتدأ، وكذلك ما من رجل، وما من شيء، والنليل على أن "لا رجل" في موضع اسم مبتدأ، و«ما من رجل» في موضع اسم مبتدأ في لغة تميم قول للعرب من أهل الحجاز: لا رجل أفضل منك، وأخبرنا يونس أن من العرب من يقول: ما من رجل أفضل منك، وهل من رجل خير منك»^(٣)، ويقول: «وقال الخليل رحمه الله: يدلك على أن "لا رجل" في موضع اسم مبتدأ مرفوع قولك: لا رجل أفضل منك كأنك قلت: زيد أفضل منك»^(٤).

- وقوله: «وتقول هذا رجل ضربنا فتصف بها النكرة وتكون في موضع ضارب إذا قلت هذا رجل ضارب»^(٥).

- وقوله: «وتقول: كل رجل يأتيك فاضرب، نصب لأن يأتيك ههنا صفة فكأنك قلت: كل رجل صالح اضرب»^(٦).

- وقوله: «لأنك إذا قلت: سواء على أذهبت أم مكثت فهذا الكلام في موضع سواء على هذان»^(٧).

(١) السابق ٣٩٠/١.
(٢) يقصد لا النافية للجنس.
(٣) سيبويه: الكتاب ٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦.
(٤) السابق ٢٩٢/٢، وانظر ٣١٧/٢.
(٥) السابق ١٦/١.
(٦) السابق ١٣٦/١.
(٧) سيبويه: الكتاب ٢٨٦/٣.

- وقوله: «... وذلك قولك: يوم الجمعة أتتك فيه، وأنت يوم لا أتتك فيه، وأنت يوم لا أصوم فيه، وخطيئة يوم لا أصيد فيه، ومكانك قمت فيه، فصارت هذه الأحرف ترتفع بالابتداء كارتقاء عبد الله، وصل ما بعدها مبنياً عليها كبناء الفعل على الاسم الأول، فكأنك قلت: يوم الجمعة مبارك، ومكانك حسن»^(١).

- وقوله: «ونقول: قد جرتك فوجدتك أنت أنت، فأنت الأولى مبتدأً والثانية مبنية عليها كأنك قلت: فوجدتك وجهك طليق»^(٢).

٣- بين أثر استبدال علامة إعرابية بأخرى في تغيير التركيب واختلاف تحليله:

- يقول: «ونقول: هذا من أعرف منطلق فتجعل أعرف صفة، ونقول: هذا من أعرف منطلقاً، تجعل أعرف صلة، وقد يجوز 'منطلق' على حد قولك: هذا عبد الله منطلق»^(٣).

- ويقول: «هذا باب يختار فيه الرفع، وذلك قولك: له علم علم الفقهاء، وله رأى رأى الأصلاء، وإنما كان الرفع في هذا الوجه لأن هذه خصال تذكرها في الرجل كالحلم والعلم والفضل، ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل في حال تعلم ولا تفهم، ولكنك أردت أن تذكر الرجل بفضل فيه وأن تجعل ذلك خصلة قد استكملها كقولك: له حسب حسب الصالحين، وإن شئت نصبت فقلت: له علم علم الفقهاء كأنك مررت به في حال تعلم

(١) السابق ١/٨٤.

(٢) السابق ٢/٢٥٩.

(٣) السابق ٢/١٠٧.

وتفقه»^(١).

- ويقول: «وتقول: أما العلمُ فعالم بالعلم، وأما العلمُ فعالم بالعلم فالنصب على أنك لم تجعل العلم الثاني العلم الأول الذي لفظت به قبله كأنك قلت: أما العلم فعالم بالأشياء، وأما الرفع فعلى أنه جعل العلم الآخر هو العلم الأول، فصارت كقولك: أما العلم فأنا عالم به، وأما العلم فما أعلمني به، فهذا رفع لأن المضمَر هو العلم فصار كقولك: أما العلم فصن»^(٢).

- ويقول: «... وهو قولك: دخلوا الأول فالأول على قولك: واحدًا فواحدًا، ودخلوا رجلًا رجلًا، وإن شئت رفعت فقلت: دخلوا الأول فالأول جعله بدلًا وحمله على الفعل كأنه قال: دخل الأول فالأول»^(٣).

- ويقول: «وتقول إن قريبًا منك زيدًا إذا جعلت قريبًا منك موضعًا، وإذا جعلت الأول هو الآخر قلت: إن قريبًا منك زيد»^(٤).

٤- بيان العناصر التي يمتنع استبدال بعضها ببعض في سياق محدد:

- يقول: «ولا يكون أين إلا للأمكن كما لا يكون متى إلا للأيام والليالي.. وأجر أين في الأمكن مجرى متى في الأيام»^(٥).

- ويقول مبيِّنًا أن الاستبدال الصحيح لا يكون إلا في إطار استبدالي صحيح: «هذا باب منه استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا للكلام فيه على

(١) سيويه: الكتاب ١ / ٣٦١.

(٢) السابق ١ / ٣٨٥.

(٣) السابق ١ / ٣٩٨.

(٤) السابق: ١٤٢ / ٢.

(٥) السابق: ٢١٩ / ١ - ٢٢٠.

غير ما وضعت العرب، وذلك قولك: ويح له وتب، وتبًا لك وويحًا، فجعلوا اللب بمنزلة الويح؛ وجعلوا ويح بمنزلة اللب فوضعوا كل واحد منهما على غير موضعه الذي وضعته العرب، ولا بد لويح مع فيحها أن تحمل على تب، فأما اللحيون فيجعلونها بمنزلة ويح، ولا يشبهها، لأن تبًا تستغنى عن لك، ولا تستغنى ويح عنها»^(١).

- ويقول: «والأسماء»^(٢) لا تجرى مجرى المصادر، ألا ترى أنك تقول: «هو الرجل علمًا وفقهاً ولا تقول هو الرجل خيلًا وإيلًا»^(٣).

- ويقول: «لو قلت لتنتى بهارد كان فيحًا، ولو قلت: انتنى بتمر كان حسنًا ألا ترى كيف فيح أن يضع الصفة موضع الاسم»^(٤).

- ويقول: «ألا ترى أنك لو قلت: مررت بهو الرجل لم يجز ولم يحسن ولو قلت: مررت بهذا الرجل كان حسنًا جميلًا»^(٥).

ثانيًا: الفعل:

قبل أن نعرض للنهج الاستبدالي في إطار قسم الفعل نود أن نشير إلى أن سيوييه حدد الإطار التوزيعي للأفعال بلزوم وقوعها بعد واحد من الحروف الأتية: إن، لو، قد، سوف، أما، لم، هلاً، لولا، لوما، ألا، وحروف الاستفهام في أصل الاستخدام فإن استخدام اسم بعدها كان على إضمار فعل،

(١) سيوييه: الكتاب ١/٣٢٤.

(٢) يقصد بالأسماء هنا أسماء الأجناس، والمصادر عنده أسماء.

(٣) سيوييه: الكتاب ١/٣٨٧.

(٤) السابق ١/٢٦٩، والصفة عنده نوع من الأسماء، انظر كتابي: الاسم والصفة في

التحو العربي والدراسات الأوروبية، ص ٣٩.

(٥) سيوييه: الكتاب ٢/٨٨.

يقول سيبويه: «ولو بمنزلة إن، لا يكون بعدها إلا الأفعال، فإن سقط بعدها اسم فقيه فعل مضمر في هذا الموضع تبنى عليه الأسماء، ومن تلك قول العرب: نفع الشر ولو إصبعا، كأنه قال: لو دفعته إصبعا، ولو كان إصبعا»^(١)، ويقول: «وذلك أن من الحروف حروفاً لا ينكر بعدها إلا الفعل، ولا يكون الذي يابها غيره مظهراً أو مضمرًا، فما لا يليه الفعل إلا مظهراً: قد، وسوف، ولما، ونحوهن، فإن اضطر شاعر فقم الاسم وقد أوقع الفعل على شيء من سببه لم يكن حد الإعراب إلا النصب، وذلك نحو: لم زيدًا اضربه، لأنه يضمّر الفعل إذا كان ليس مما يليه الاسم... ولما ما يجوز فيه الفعل مظهرًا ومضمرًا، مقدمًا ومؤخرًا ولا يستقيم أن تبدأ بعده الأسماء: فهلا ولولا، ولوما وألا... وحروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل، إلا أنهم توسعوا فيها فابتدعوا بعدها الأسماء، والأصل غير ذلك، ألا تراهم يقولون: هل زيد منطلق؟... فإن قلت هل زيدًا رأيت وهل زيد ذهب قببح، ولم يجز إلا في الشعر؛ لأنه لما اجتمع الاسم والفعل حملوه على الأصل»^(٢).

ولقد كان استخدام سيبويه النهج الاستبدالي في إطار قسم الفعل تحقيرًا

لما يأتي:

١- بعد أن بين سيبويه أنواع الفعل الثلاثة: الماضي والمضارع والأمر ينكر الصيغ الأصلية التي يرد عليها كل نوع منها ولا يرد عليها الآخر^(٣) بين أن الأمر منها لا يقع موقع الماضي، وأن الماضي منها لا يقع موقع المضارع في أصل الاستخدام، يقول: «والوقف قولهم: "اضرب" في

(١) سيبويه: الكتاب ٢٦٩/١ - ٢٧٠.

(٢) السابق ٩٨/١ - ٩٩.

(٣) السابق ١٢/١.

الأمر، لم يحركوها لأنها لا يوصف بها، ولا تقع موقع المضارعة»^(١)، ويقول: «ولا يجوز فعلت في موضع لُعل إلا في مجازاة»^(٢)، ويقول في موضع آخر: «وتقول: إن فعل فعلت فيكون في معنى: إن يفعل لُعل»^(٣)، لكن سيبويه ينتبه إلى أن الماضي يستخدم استخدام المضارع خروجاً على الأصل لغرض أسلوبى فيقول: «... كما تقول: والله لا فعلت ذلك أبداً تريد معنى لا لُعل»^(٤).

٢- لبيان أن للأفعال الناقصة القيمة التركيبية التي للأفعال التامة في سياقات محددة، مع التنبه إلى الفرق بينهما، يقول: «... وإن شئت قلت: كان أخاك عبد الله، فقدمت وأخرت كما فعلت ذلك في ضرب لأنه فعل مثله، وحال التقديم والتأخير فيه كحاله في ضرب إلا أن اسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد، وتقول: كُتِّبَ كما تقول: ضربناهم، وتقول: إذا لم نكنهم فمن ذا يكونهم كما تقول إذا لم نضربهم فمن يضربهم»^(٥)، ويقول: «وتقول: من كان أخاك ومن كان أخوك، كما تقول: من ضرب أبك إذا جعلت من الفاعل ومن ضرب أبوك إذا جعلت الأب الفاعل، وتقول ما كان أخاك إلا زيد كقولك: ما ضرب أخاك إلا زيد»^(٦).

٣- لبيان أن ثمة أفعالاً تقع في سياقات محددة ولا تقع في سياقات أخرى، يقول: «... وذلك أنه لا يجوز لك أن تقول للمخاطب اضربك، ولا

(١) سيبويه: للكتاب ١٧/١.

(٢) السابق ٥٥/٣.

(٣) السابق ١٦/١.

(٤) السابق ١٠٨/٣.

(٥) السابق ٤٥/١ - ٤٦.

(٦) السابق ٥٠/١.

لقتلك، ولا ضربتك، لما كان المخاطب فاعلاً وجعلت مفعوله نفسه قبح ذلك؛ لأنهم استغنوا بقولهم لقتل نفسك وأهلكت نفسك عن الكلف ههنا وعن إليك^(١)، ويقول: «... لو قلت: يظن نفسه فاعلة وأنظن نفسي فاعلة، على حد يظنه وأنظني ليجزئ هذا من ذا لم يجزئ كما أجزأ أهلكت نفسك عن أهلكتك فاستغنى به عنه»^(٢)، ويقول وإذا أردت برأيت رؤية العين لم يجز رأيتسى لأنها حينئذ بمنزلة ضرب»^(٣).

٤- لاختبار تعدى الفعل إلى مفعولين أو إلى مفعول واحد، ولكى يصل إلى حكم صحيح استبدل بالفعل فعلاً لازماً نصب اسماً بعد استيفاء فاعله فانتهى إلى الحكم بنفى مفعوليته يقول: «... وذلك قولك: ضربت عبد الله قائماً، وذهب زيد ركباً، فلو كان بمنزلة المفعول الذى يتعدى إليه فعل الفاعل نحو عبد الله وزيد ما جاز فى ذهبت»^(٤).

٥- للنظر فى علاقة الحالة الإعرابية بالمعنى فى سياق محدد، ولكى يصل إلى تحديد هذه العلاقة استبدل حالة الجزم فى الفعل فى سياق محدد بحالة النصب، ثم بحالة الرفع، يقول: «وتقول: كتبت إليه أن لا نقل ذلك، وكتبت إليه أن لا يقول ذلك، وكتبت إليه أن لا تقول ذلك، فأما الجزم فعلى الأمر، وأما النصب فعلى قولك: لئلا يقول ذلك، وأما الرفع فعلى معنى قولك: لألك لا تقول ذلك، أو بلك لا تقول ذلك، تخبره بأن ذا قد وقع من أمره»^(٥).

(١) سيبويه: الكتاب ٣٦٦/٢.

(٢) السابق ٣٦٧/٢.

(٣) السابق ٣٦٨/٢.

(٤) السابق ٤٤/١.

(٥) سيبويه: الكتاب ١٦٦/٣.

ثالثًا: الحرف:

والحرف المقصود هنا قسمًا من أقسام الكلم ليس حرف مبنى، بل هو حرف معنى، فالاستبدال يجرى على حروف المعاني، أما الإبدال فعلى حروف المبنى وقد استخدم سيبويه النهج الاستبدالي في إطار هذا القسم تحقيقًا لما يأتي:

١- لبيان الاختلاف في التحليل النحوي إذا وقعت "إن" موقع "إما" في سياق محدد، يقول: «وما يجرى ما بعدها ههنا على الابتداء وعلى الكلام الأول، ألا ترى أنك تقول قد كان ذلك إما صلاحًا وإما فسادًا كذلك قلت: قد كان ذلك صلاحًا أو فسادًا ولو قلت: قد كان ذلك إن صلاحًا وإن فسادًا كان للنصب على كان أخرى»^(١).

٢- لبيان أن استبدال الفاء بالواو في سياق محدد يفسد المعنى، يقول: «وتقول لا تأكل السمك وتشرب اللبن، فلو أخذت الفاء ههنا فسد المعنى، وتقول: لا يسعني شيء ويعجز عنك فانتصاب الفعل ههنا من الوجه الذي انتصب به في الفاء إلا أن الواو لا يكون موضعها في الكلام موضع الفاء»^(٢).

٣- لبيان أن حرفًا ما يستخدم في سياق محدد لا يستبدل به غيره وإن كان من نوعه يقول: «وقالوا يا للعجب ويا للماء... وكل هذا في معنى التعجب والاستغائة، ولم يلزم في هذا الباب إلا "يا" للتثنية... ولا يكون مكان "يا" سواها من حروف التثنية نحو أي، وهيا، وأيا لأنهم أرادوا أن يميزوا هذا من

(١) السابق ١/٢٦٨.

(٢) السابق ٣/٤٢ - ٤٣.

ذلك الباب الذى ليس فيه معنى استغاثة ولا تعجب»^(١).

تقارض الأقسام فى الاستبدال:

ونعنى به استبدال عنصر لغوى ينتمى إلى قسم من أقسام الكلم بعنصر لغوى ينتمى إلى قسم غيره فى سياق لغوى صحيح، وذلك على النحو الآتى:

١- استبدال المضارع باسم الفاعل، ويعال سيبويه صحة هذا الاستبدال فى سياق محدد بقوله: «وإنما ضارعت أسماء الفاعلين أنك تقول: إن عبد الله ليفعل فيوافق قولك: لفاعل، حتى كأنك قلت: إن زيدًا لفاعل فيما تريد من المعنى، وتلحقه هذه اللام، ولا تلحق فعل اللام»^(٢)، وينبه سيبويه إلى أن وقوع المضارع موقع اسم الفاعل لا يعنى أنه أصبح اسمًا بقوله: «ويبين لك أنها ليست أسماء أنك لو وضعتها موضع الأسماء لم يجز ذلك، ألا ترى أنك لو قلت: إن يضرب يأتينا وأشباه هذا لم يكن كلامًا»^(٣).

٢- استبدال المضارع فى سياق محدد بالمصدر، واستبدال المصدر به يقول سيبويه: «كأنه إذا قال: هنيئًا له الظفر فقد قال: ليهنئ له الظفر وإذا قال: ليهنئ له الظفر فقد قال: هنيئًا له الظفر، فكل واحد منهما بدل من صاحبه»^(٤).

ولعل هذا هو الموضع الوحيد الذى استخدم فيه سيبويه لفظ 'بدل' فى

(١) سيبويه: الكتاب ٢/٢١٧ - ٢١٨.

(٢) السابق ١٤/١.

(٣) السابق ١٤/١ - ١٥، وانظر ٢٠/١، ١٣٠، ١٦٤، ج ٢، ص ١٣٢.

(٤) سيبويه: الكتاب ١/٣١٧.

الدلالة على استبدال عنصر لغوي بآخر^(١).

٣- استبدال اسم الفاعل بالماضي في سياق محدد، يقول سيبويه: «... وهذا تشبيه في النصب لا في المعنى بقوله تبارك وتعالى: جاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، لأنه حين قال: جاعل الليل فقد علم القارئ أنه على معنى جعل، فصار كأنه قال: وجعل الليل سكناً، وحصل اللثام على المعنى»^(٢).

٤- استبدال الاسم بالحرف في سياق محدد: يقول: وكل موضع جاز فيه الاستثناء بـ «إلا» جاز بغير، وجرى مجرى الاسم الذي بعد إلا لأنه اسم بمنزلة وفيه معنى «إلا»^(٣).

٥- استبدال الحرف بالاسم في سياق محدد، يقول: «واعلم أن «لا» قد تكون في بعض المواضع بمنزلة اسم واحد هي والمضاف إليه ليس معه شيء، وذلك نحو قولك: أخذته بلا ذنب، وأخذته بلا شيء، وعضبت من لا شيء، وذهبت بلا عتاد، والمعنى ذهبت بغير عتاد، وأخذته بغير ذنب»^(٤).

٦- استبدال الحرف بالفعل في سياق محدد: يقول سيبويه: «وذلك قولك: ليس زيد ذاهباً، ولا أخوك منطلقاً، وكذلك ما زيد ذاهباً ولا معن خارجاً»^(٥)، وقد نبه سيبويه إلى أن «ما» لا تقع في كل سياق ترد فيه ليس

(١) قرن هذا بـ 37 p. Troupeau.

(٢) سيبويه: الكتاب ١ / ٣٥٦.

(٣) السابق ٢ / ٣٤٣.

(٤) السابق: ٢ / ٣٠٢.

(٥) السابق ١ / ٦٠.

فقال: «كما أن ما لم تقو قوة ليس، ولم تقع في كل مواضعها»^(١).

(٤)

ظاهر مما قلنا أن النهج الاستبدالي عند سيويوه أسس منهجى منضبط فى التحليل النحوى استطاع به أن يحدد الأقسام الموقعية الكبرى بتقسيمه للكلم إلى ثلاثة أقسام، ثم عاد إلى كل قسم فبيّن بهذا النهج أنواعه، والعلاقات الاستبدالية بين كل نوع، والإطار التوزيى له، وصولاً إلى تحديد العناصر الاستبدالية التى يمكن أن يحل أحدها محل الآخر فى سياق كلامى محدد، والعناصر غير الاستبدالية التى لا يمكن لأحدها أن يحل محل الآخر، ولم تكن العناصر الاستبدالية عنده مقتصرة على العناصر المفردة، بل امتدت لتشمل أنواعاً من الضمائم والجمل.

وقد استطاع بالاستبدال أيضاً أن يحدد المواقع الوظيفية التى تشغلها هذه العناصر الاستبدالية، ولم يغفل العلامة الإعرابية ولا للحالة الإعرابية، بوصفهما عنصرين قلابين للاستبدال فى لغة معربة وبيان أثر استبدال علامة إعرابية بأخرى، أو حالة إعرابية بأخرى، فى تغير التركيب مع صحته أو فساده، ثم تغير التحليل النحوى تبعاً لذلك، وقد عنى سيويوه أيضاً بما اصطالحنا عليه بتقارض الأقسام فى الاستبدال فبين أن نوعاً من الأفعال قد يستبدل بنوع من الأسماء، وأن اسماً قد يستبدل بحرف، وأن حرفاً قد يستبدل باسم، وأن حرفاً قد يستبدل بفعل فى سياقات لغوية محددة، ولكنه نبه إلى أن ذلك لا يعنى انتقال العنصر اللغوى من القسم الذى ينتمى إليه إلى القسم الذى وقع معه فى علاقة استبدالية، فذلك أمر مشروط بسياق محدد ورد به

(١) السابق ١٢٢/١ - ١٢٣.

الاستعمال لا يجوز في غيره.

ولا يظنُّ ظنًّا أننا نحمل على سيبويه تصورًا حديثًا لم يحظر له
ببإل، فما عرضنا شيئًا من هذا النهج إلا موثقًا بنصوص سيبويه، ومن البدهي
أن سيبويه لم يعرض جوائب هذا النهج، على النحو الذي فصلناه في موضع
واحد من كتابه، ولم يستخدم ما استخمناه من مصطلحات، ذلك بأنه - كما
قلنا - لم يعن ببيان الأسس المنهجية التي يصدر عنها، فلم يضطر إلى وضع
مصطلحات لها، بل عمد إلى الاستخدام العملي المباشر لهذه الأسس مرارًا
بينها في كثير من الأحيان، ويمكننا أن نقول: إن ما قتمناه في هذا البحث هو
'إعادة تركيب' لهذا النهج الشائع في كتابه في مواضع متناثرة متباعدة بعد أن
قرأنا كتابه كله قراءة مستأنية متأملة ولعل من المفيد الآن أن نقارن بين
تصور التوزيعيين لهذا النهج وتصور سيبويه له مبينين أوجه الالتقاء وأوجه
الاختراق:

أولاً: أوجه الالتقاء:

١- يلتقى التوزيعيون وسيبويه في الاعتماد على الأساس الشكلي البعيد عن
الأسس العقلية المفترضة والنواحي الدلالية، وكثيراً ما ترد كلمة المعنى
عند سيبويه دالة على المعنى التركيبي لا الدلالي، والمعنى التركيبي
structural meaning مصطلح معروف عند الوصفيين من علماء
اللغة^(١).

٢- الاستبدال عند كل منهما نهج أساسي للوصول إلى تحديد للعناصر
اللغوية وبيان توزيعها ومواقع استبدالها.

(١) Fries, C.C.: The structure of English, New York, 1952, p. 106, 173 ff.

٣- يلتقى كل منهما في أن العناصر الاستبدالية هي العناصر الموقعية التي تتوارد على موقع وظيفي واحد في سياق كلامي محدد.

٤- من اليسير أن نجد للأسماط التوزيعية الثلاثة نظائر في كتاب سيبويه فكل فرد من أفراد اسم الجنس عنده مثلاً معادل توزيعي للآخر، وبين اسم الجنس أو علم الشخص عند سيبويه مثلاً والضمير علاقة اشتمال إذ يقع كل منهما في كل المواقع التي يقع فيها الضمير، ولا يقع الضمير في كل المواقع التي يقع فيها اسم الجنس أو علم الشخص، فهما مثلاً بوصفان ولا بوصف الضمير، وبين اسم الجنس واسم الفاعل مثلاً توزيع متقاطع، إذ يمكن أن يقع في سياق لغوي واحد حيناً، ولا يمكن ذلك في حين آخر، وبين أين مثلاً ومتى توزيع متكامل حين يكون الأول استقهاً عن المكان والثاني استقهاً عن الزمان ولا يقع أي منهما في سياق يقع فيه الآخر^(١).

٥- يظهر الفرق بين الاستبدال عند سيبويه أساساً منهجياً، والإبدال أو البديل عنده ظاهرة صوتية أو صرفية، أو صوتية صرفية، وبعض هذا الفرق ملحوظ عندهم بين المصطلحين substitution و mutation.

ثانياً: أوجه الاقتراق:

١- التوزيعية مذهب متكامل له أصوله النظرية وإجراءاته العملية ومصطلحاته المحددة، والاستبدال فيه يقوم بدور أساسي في تقطيع الكلام إلى morfemes، وهي الوحدات الصغرى للكلام عندهم، وتصنيفها وتجميعها في

(١) انظر كتابي: الاسم والصفة في النحو العربي والدراسات الأوروبية من ٢٤ وما بعدها.

مورفيمات، وتصنيف المورفيمات وتجميعها في أنواع، ثم تجميع أنواع المورفيمات في أقسام موقعية، أما الاستبدال في كتاب سيوييه فهو أساس من أسس منهجية تعمل معاً جنباً إلى جنب، وهو يبدأ مباشرة بالأقسام الموقعية دون نظر إلى المراحل التي قبلها من التقطيع والتصنيف والتجميع، والحق أن ما قام به التوزيعيون أمر يقتضيه إحكام المنهج وتحليل الجملة إلى أصغر عناصرها، لكن ليس له أثر يذكر في صحة الاستبدال إذا وصلنا إلى الأقسام الموقعية الصحيحة دون شرح للمراحل التي تسبقها فقد وصل سيوييه إلى الأقسام الموقعية دون مرور بالوحدات الصغرى ولم يؤد ذلك إلى خطأ في النهج الاستبدالي عنده.

٢- استخدم التوزيعيون مصطلحات محددة لهذا النهج، أهمها:

Substitution	- الاستبدال
Substitute	- البديل
Substitution Class	- المجموعة الاستبدالية
Substitution Frame	- الإطار الاستبدالي
Substitution table	- الجدول الاستبدالي
Substitution test	- الاختبار الاستبدالي

... إلخ كما استخدموا مصطلحات لبيان أنماط التوزيع هي:

Distributional equivalent	- المعادل التوزيعي
Contrastive	- توزيع التقابلي
Inclusive	- توزيع الاشتمالي
Complementary	- التوزيع للتكاملي

أما سيبويه فلا نكاد نظفر عنده من بين كلمات كثيرة غير محددة إلا بمصطلحين اثنين أحدهما الموقع وهو يقابل position أو الوظيفة function، والآخر للتعاقب/ المعاقبة، وهو يوافق التوزيع التكاملي complementary. من هنا مكان لزاماً عليه ونحن نعرض للنهج الاستبدالي عنده أن نستخدم مصطلحات التوزيعيين إذا تطبقت على ما يقدمه سيبويه من وصف للمادة اللغوية وتحليل لها.

٣- الغاية من النهج الاستبدالي في إطاره التوزيعي واضحة عند التوزيعيين وتتمثل في الوصول إلى تحليل دقيق للجملة يحقق مبدئين أساسيين هما: بساطة الوصف والتحليل والاقتصاد فيه.

ولا يظهر من استخدام سيبويه لهذا النهج أن تلك غايته بل تنحصر غايته في حل مشكلات جزئية كثيرة تعرض لأجزاء التركيب لا تبلغ أن تكون منهجاً واضحاً متكاملاً في تحليل الجملة.

ويعد، فالنظر في الأوجه التي التقى فيها سيبويه بالفكر اللغوي المعاصر يدل دلالة قاطعة على أن سيبويه سبق عصره بقرون عديدة، وأنه يتبوأ مكانة مرموقة في تاريخه الفكر اللغوي العالمي.

**الضمائر المنعكسة
في اللغة العربية**

لا يزال الدرس النحوي العربي القديم في حاجة إلى قراءة معاصرة تقيّد من اتجاهات الدرس الحديث، ومناهجه، وطرقه في رصد الظواهر اللغوية، ومعالجتها عن نحو مضبوط، ويمكن الكشف بها عن ظواهر لم يعرض لها النحاة القدماء ومن صدر عن منهجهم من المحدثين، أو عرضوا لها ولكن لم يوفوها حقها من البحث للكثف لها والمحيط بها. وليس من شك في أن أجيالاً من الباحثين - وبخاصة من اتصل منهم بعلم اللغة الحديث دراسة وفهماً - حاولوا، ويحاولون الآن الإفادة من جهود علماء اللغة المحدثين في أوروبا وأمريكا في تجديد نظرتهم لتراثنا النحويّ كله، والكشف عن كنوزه المخبوءة، وإثرائه، والإضافة إليه، وإبراز عناصر القوة فيه، وإصلاح ما قد يكون فيه من جوانب النقص والقصور.

والنحاة العرب لم يعرفوا مصطلح "الضمائر المنعكسة" reflexive pronouns وإن عرفوا بعض ما يدخل فيه، ويندرج تحته، وعرفه نحاة بعض اللغات الأخرى، واستخدموا لما يدل عليه مصطلحاً بديلاً هو "الأفعال المنعكسة reflexive verben"^(١) وهم يرون أن الضمير يكون منعكساً إذا كان مفعولاً للفعل، متحدّاً coreferential مع الفاعل أو عائداً إليه^(٢)، والأفعال المنعكسة عندئذ هي الأفعال التي يكون معها الفاعل والمفعول به متطابقين أو عائدين إلى شخص واحد^(٣).

وقد عرف نحاة العربية هذه الظاهرة من خلال درسم لما أسماه

(١) Gerbe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartsprache Duden 4 (1) (Mannheim 1973) S. 75.

(٢) Perlmutter, D. & Soames, S. Syntactic Argumentation and the Structure of English (U.S.A. 1979) p. 9.

(٣) Helbig, G. & Deutsche Grammatik (Leipzig 1980) S. 65.

«أفعال القلوب» وهي عند بعضهم سبعة أفعال: ظن، وحب، وخال، وزعم، وعلم (إذا لم تكن بمعنى عرف)، ورأى (إذا لم ترد رؤية العين)، ووجد (إذا لم ترد وجدان الضالة)^(١). وأضاف إليها بعضهم «عدم»، و«فقد» إذا كانتا للدعاء، و«تب» (بمعنى احصب)^(٢) ونكروا أن من خصائصها أنك تجمع فيها بين ضميرى الفاعل والمفعول فتقول: علمتني منطلقاً ووجدتك فعلت كذا، ورأه عظيمًا، وقد أجزت للعرب عمت وفقدت مجراها، فقالوا: «عدمتي وفقدتني»^(٣). ولما كان هذا من خصائص «أفعال القلوب» فقد نصوا على أن ذلك لا يجوز في غيرها، بل يتوصل إلى التعبير عن هذا المعنى في غير لفعال القلوب بطريقة أخرى منعرض لها.

ونود قبل الخوض في وصف هذه الظاهرة تركيبياً ودلاليًا أن نعرض لما جاء عنها في كتب النحو العربي، لنقف على ما وصلوا إليه فيها، ونعرف أى مدى بلغوه في الكشف عنها والإحاطة بها:

جاء في كتاب سيبويه: «هذا باب لا تجوز فيه علامة المضمر المخاطب، ولا علامة المضمر المتكلم، ولا علامة المضمر المحدث عنه الغائب، وذلك أنه لا يجوز لك أن تقول للمخاطب: اضربك، ولا لتلك، ولا ضربتك، لما كان المخاطب فاعلاً وجعلت مفعوله نفسه فيجوز ذلك، لأنه استغنوا بقولهم قتل نفسك وأهلك نفسك، عن الكاف ها هنا وعن إياك.

-
- (١) سيبويه: الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٨٧) ٣٦٧/٢،
الزمخشري: المفصل في علم العربية (بيروت د. ت) ص ٢٥٩.
(٢) الزمخشري: المفصل ص ٢٦٢، الرضى: شرح الكافية لابن الحاجب (القاهرة ١٣٦٠هـ) ٢٨٥/٢.
(٣) الزمخشري: المفصل ص ٢٦٢.

وكنك المتكلم، لا يجوز له أن يقول أهلكنى ولا أهكنى لأنه جعل نفسه مفعوله ففبح، وذلك لأنهم استغنوا بقولهم أنفع نفسى عن نى، وعن إياى.

وكنك الغائب لا يجوز لك أن تقول ضربه إذا كان فاعلاً وكان مفعوله نفسه، لأنهم استغنوا عن الهاء وعن إيا بقولهم ظلم نفسه وأهلك نفسه، ولكنه قد يجوز ما فتح ها هنا فى حسبت وظننت وخلصت، وأرى وزعمت، ورأيت إذا لم تكن رؤية العين، ووجدت إذا لم ترد وجدان الضلالة، وجميع حروف الشك، وذلك قولك حسبتى وأرأى ووجدتى فعلت كذا وكذا، ورأيتى لا يستقيم لى هذا، وكنك ما أشبه هذه الأفعال، تكون حال علامات المضمرين المنصوبين فيها إذا جعلت فاعليهم أنفسهم كحالها إذا كان الفاعل غير المنصوب.

ومما يثبت علامة المضمرين المنصوبين هنا هنا أنه لا يحسن إدخال النفس ها هنا، لو قلت يظن نفسه فاعلة وأظن نفسى فاعلة على حد يظنه وأظنتى ليجزى هذا من ذا لم يجزى كما لجزأ أهلكت نفسك عن أهلكتك، فاستغنى به عنه..... وإذا أردت برأيت رؤية العين لم يجز رأيتى، لأنه حينئذ بمنزلة ضربت^(١).

وجاء فيه أيضاً: «ولا يجوز أن تقول ضربتى، ولا ضربت إياى، لا يجوز واحد منها لأنهم استغنوا عن ذلك بضربت نفسى، وإياى ضربت»^(٢).

هذان التصان النفيان من كتاب سيبويه تردد صداهما من بعد فى

(١) سيبويه: لكتاب ٣٦٦/٢ - ٣٦٨.

(٢) السابق ٣٦٦/٢.

كتب النحاة الخالفين، وأضاف بعضهم إلى ما جاء فيهما تفصيلات من الأهمية
بمكان، متعرض لها إن شاء الله.

ويمكننا أن نلاحظ في كلام سيبويه ما يأتي:

١- فهم سيبويه ظاهرة "الانعكاس" كما فهمها نحاة الغرب، دون أن يضع
لها مصطلحاً خاصاً كما فعلوا، بل جعلها جزءاً من تعدية الفعل إلى
المفعول، فالرجل يدرك ما حدثوا به معنى "الانعكاس" وهو أن يوقع
الفاعل الفعل بنفسه، فيكون الفاعل مفعولاً به، وعبارته صريحة في
ذلك: «..... لا يجوز له أن يقول أهلكنتي ولا أهلكني لأنه جعل
نفسه مفعوله...».

٢- حدد سيبويه الضمائر التي تحمل هذا المعنى بضمائر للنصب والجر
المتصلة وهي ياء المتكلم وكاف المخاطب، وهاء الغائب، ثم "يا" مقدمة
مضافاً إليها ضمائر التكلم والخطاب والغيبة، واستبعد بذلك أن تحمل
ضمائر الرفع هذا المعنى، ومثل هذا نجد عند نحاة الأمازيغية، إذ ينصون
على أن الضمائر المنعكسة لا تستخدم إلا في حالتى النصب والجر، ولا
يمكن أن تستخدم في حالة الرفع^(١).

٣- ذكر سيبويه أن هذه الضمائر ترد مباشرة مع بعض الأفعال، وقد ترد
مسيبوقة بكلمة نفس* أو "يا"، وواضح أن سيبويه يسموئ بين قولك،
ضربت نفسي، وإياي ضربت، ومع أنه يمنع: ضربت إياي، فقد أورد في
موضعين من كتابه شاهداً يدل على استخدامه، وهو قول ذى الإصبع
العدواني:

(١) Grebe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartssprache, Duden 45. 276.

كَلَّمَا يَوْمَ قُرَىٰ ۚ نَمَا نَقْتُلُ ۙ إِنَّا^(١)

أى: نقلت أنفسنا، وقد حمل سيبويه هذا الشاهد على الضرورة.

٤- ما ذكره سيبويه يدل على أن الأفعال مع الضمائر المنعكسة تتصرف تصرفها مع غيرها فتُرد ماضية، ومضارعة، وأفعال أمر، وقريب من ذلك موجود في غير العربية أيضاً كاللغة الألمانية، فإن الأفعال المنعكسة فيها تستخدم من حيث الزمن Tempus ودلالة الصيغة Mudus استخدم الأفعال غير المنعكسة^(٢).

٥- عرض سيبويه لتوزيع^(٣) هذه الضمائر محدداً استخدامها الصحيح والمواضع التي تخرج فيها على الصحة النحوية، ويمكننا أن نوضح ذلك على النحو الآتي:

(١) أ - (أنا) ضربتني.

ب - (أنت) ضربتكَ.

ج - (هو) ضربته.

(٢) أ - (أنا) ضربتُ نفسي (إياي ضربتُ).

ب - (أنت) ضربتُ نفسك (إياك ضربتُ).

ج - (هو) ضربتُ نفسه (إياه ضربتُ).

(١) سيبويه: الكتاب ١١١/٣، ٣٦٢، والرخصي: شرح الكافية ١٤/٢.

(٢) Helbig & Buscha: Deutsche Grammatik, S. 176.

(٣) انظر في توزيع الضمائر المنعكسة وغير المنعكسة في اللغة الإنجليزية: Perlmutter & Soames: Syntactic Argumentation, p. 8.

(٣) أ - (أنا) ظننتُ نفسي مجتهدًا.

ب - (أنت) ظننتَ نفسك مجتهدًا.

ج - (هو) ظنَّ نفسه مجتهدًا.

(٤) أ - (أنا) ظننتُني مجتهدًا.

ب - (أنت) ظننتَكَ مجتهدًا.

ج - (هو) ظنَّه مجتهدًا.

بمقارنة هذه المجموعات يتضح أن الضمائر المتصلة التي تتحد مع الفاعل أو تعود إليه نوعان: ضمائر مسبوقه بكلمة نفس، وضمائر غير مسبوقه بها، وحيث تجوز هذه لا تجوز تلك، وهي في الحالة الثانية مفعول مباشر للفعل، وفي الحالة الأولى تنتقل حكم الضمير إلى كلمة نفس، فوَقعت مفعولاً به، ولضيف الضمير إليها، والأفعال التي يرد معها ضمير المفعول عائداً على ضمير الفاعل غير مسبوق بكلمة "نفس" أفعال محدودة، تكون مجموعة "مغلقة" من الأفعال حدها للنهاة بعشرة أفعال، أما الأفعال التي يرد ضمير المفعول معها عائداً على ضمير الفاعل مسبوقاً بكلمة "نفس" فهي مجموعة مفتوحة" تشمل سائر الأفعال.

وإذا جاز لنا أن نعد الأمثلة التي وردت في رقم (١) بنية باطنية. عيقة deep structure تحولت" في الأمثلة التي وردت في رقم (٢) إلى بنية سطحية ظاهرة surface structure جاز لنا أن نعد الأمثلة التي وردت في رقم (٣) بنية باطنية تحولت" في الأمثلة التي وردت في رقم (٤) إلى بنية سطحية ظاهرة، وإذا جاز أن يكون الضمير المنعكس مسبوقاً بـ "نفس" أو

"يا" في رقم (٢)، فإنه لا يجوز أن يكون كذلك في رقم (٤)، ويجوز لنا بعد ذلك أن نضع قاعدتين إجباريتين تتولد بهما الضمائر المنعكسة، وتشملان المادة اللغوية السابقة الواردة في كتاب سيويه.

القاعدة الأولى:

إذا كان الضمير مفعولاً أول لفعل من أفعال القلوب عائداً على الفاعل كان ضميراً منعكساً.

القاعدة الثانية:

إذا كان الضمير عائداً على الفاعل في غير أفعال القلوب مسميوقاً بكلمة نفس أو يا كان ضميراً منعكساً.

وعلى أساس من هاتين القاعدتين يمكن استبعاد أن تكون الضمائر في الأمثلة الآتية ضمائر منعكسة:

(٥) أ - (أنا) ضربتك.

ب - (أنا) ضربته.

(٦) أ - (أنت) ضربتني.

ب - (أنت) ضربته.

(٧) أ - (هو) ضربني.

ب - (هو) ضربك.

(٨) أ - (أنا) ظننتك...

ب - (أنا) ظننته...

(٩) أ - (أنت) ظننتي...

ب - (أنت) ظننته...

(١٠) أ - (هو) ظنني...

ب - (هو) ظنك...

كذلك لا يمكن أن تتولد* بهما للتركيب المسطحة الآتية:

(١١) أ - (أنا) ضربتُ نفسك.

ب - (أنا) ضربتُ نفسه.

(١٢) أ - (أنت) ضربتَ نفسي.

ب - (أنت) ضربتَ نفسه.

(١٣) أ - (هو) ضربَ نفسي.

ب - (هو) ضربَ نفسك.

(١٤) أ - (أنا) ضربتُني.

ب - (أنت) ضربتَكَ.

ج - (هو) ضربَه.

(١٥) أ - (أنا) ظننتُ نفسي...

ب - (أنا) ظننتُ نفسك...

ج - (أنا) ظننتُ نفسه...

(١٦) أ - (أنت) ظننتَ نفسك...

ب - (أنت) ظننتَ نفسي...

ج - (أنت) ظننتَ نفسه...

(١٧) أ - (هو) ظن نفسه...

ب - (هو) ظن نفسي...

ج - (هو) ظن نفسك...

ولا يمكن بهما أيضًا إنتاج جمل "نحوية" في البنية المسطحة مثل:

(١٨) أ - نفسي ضربتني.

ب - نفسك ضربتك.

ج - نفسه ضربته.

ولنشر الآن إلى ملحظ نراه ضروريًا في المادة اللغوية السابقة، فقد حكمنا على (٤ج): هو ضربه بأنها غير صحيحة نحويًا، بناء على القاعدة الثالثة على أساس أن الضارب هو المضروب كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية:

هو	ضربه
أ	أ

لكن هذه الجملة تحتمل أن يكون الضارب فيها غير المضروب، فلا يعود فيها ضمير المفعول على ضمير الفاعل، كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية:

هو	ضربه
أ	ب

ولذلك لابد من العودة إلى البنية الباطنة التي تحسوى على الخبر المراد، فإذا كان الضارب فيها هو المضروب انطبقت عليها القاعدة الثانية فولدت منها الجملة الصحيحة نحويًا وهي: هو ضارب نفسه، وإن كان الضارب فيها غير المضروب تولدت هذه البنية: هو ضربه الصحيحة نحويًا، وبهذا نعلم أن من التراكيب السطحية الظاهرة ما لا يمكن الحكم عليه بالصحة النحوية لو انتفأنا عنه إلا بعد العودة إلى البنية الباطنة العميقة، وهذا الأمر غير متحقق في المادة اللغوية السابقة إلا في ضمير الغائب.

ولعل من اللازم الآن أن نختبر انطباق القاعدتين اللتين وضعناهما بناء على ما ورد من أمثلة في كتاب سيبويه على مادة لغوية مستعملة في أوثق نص عربي وأجدره بالاعتماد عليه، وهو القرآن الكريم، والأمر في القاعدة الأولى هين ميسور، إذ الضمائر المنعكمة تولد بها مع مجموعة "مغلقة" من الأفعال محددة كما ذكرنا بعشرة أفعال، فإذا ذهبنا نلتزم لها دليلاً من القرآن الكريم وجدنا أنه لم يرد من أفعال القلوب التي يعود مفعولها الأول على فاعلها غير الفعل المضارع يُرى مسندًا إلى ضمير المتكلم، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ الشَّجَرَنَ فَتَبَيَّنَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ كَمْزًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُخْمِلُ فَوْقَ رَبِّي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ (يوسف: ٣٦)

وغير الفعل "رأى" ماضيًا مسندًا إلى ضمير الغائب كما في قوله تعالى:

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ (العلق: ٧)

والقاعدة منطبقة عليهما، فالضمير مفعول أول لفعل من أفعال القلوب
عائد على الفاعل، فهو إذن ضمير منعكس.

فإذا تتبعنا استخدام القرآن الكريم لأفعال القلوب التي وردت فيه
استخدامًا انعكاسيًا وهي: ظن، وحسب، ورأى، وعلم، تبين لنا أن القرآن
الكريم يدخل في عدد من المواضع "أن" على الضمير المنعكس على الفاعل،
وأكثر ما يكون مع الغائب منعًا للبس الذي أشرنا إليه في المثال (٤١ج)،
وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَابِعْثُهُمْ خُصُوهُنَّ مِنِ اللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢)
- ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ (يونس: ٢٢)
- ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ (يوسف: ١١٠)
- ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاعِقُهَا ﴾ (الكهف: ٥٣)
- ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَآئِقُ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٤٦)
- ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَآئِقُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)
- ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٠)
- ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّجْسِبُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف: ١٠٤)
- ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ (المجادلة: ١٨)
- ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صُفُّوا ﴾ (الأعراف: ١٤٩)

وظاهر أن الضمير إذا اتصل بالضمير دون أن تفصل بينهما "أن"
فقيل: فظنلوه، أو يحسبونهم، أو: رأوهم، أدى ذلك إلى اللبس في البنية
السطحية للظاهرة فالضمير عندئذ يحتمل العودة على الفاعل فيكون ضميرًا
منعكسًا، والعودة على غير الفاعل فيكون غير منعكس.

والقرآن الكريم يلجأ إلى ذلك أيضاً إذا كان الفاعل مفصلاً عن ضمير النصب المنعكس عليه، إذ لا يمكن عندئذ اتصال الضمير بالفاعل، فوسطت "أن" بينهما، كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ (يونس: ٢٤)
- ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ (المطففين: ٤)
- ﴿ إِنْ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ (الصافات: ١٠٢)

وقد فصلت "إن" المكسورة للهمزة بين الفاعل الظاهر والضمير المنعكس عليه في موضع واحد في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْإِنْتِ إِتْمَ لُحْضَرُونَ ﴾ (الصافات: ١٥٨)

وعلى أساس مما عرضناه من مادة لغوية ينبغي أن نعود إلى القاعدة الأولى التي وضعناها بناء على ما ورد في كلام سيبويه والنحاة من بعده، فنجرى عليها التعديل الآتي:

القاعدة الأولى:

إذا كان مع أفعال القلوب ضمير عائد على الفاعل كان ضميراً منعكساً.

وننتقل الآن للنظر فيما تنطبق عليه القاعدة الثانية من القرآن الكريم، فقد ورد فيه قوله عز وجل:

- ﴿ إِيَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ (البقرة: ١٣٠)
- ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (البقرة: ٢٣١)
- ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ (النمل: ٤٤)

- ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤)
 - ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلسَّيِّئِ﴾ (الأحزاب: ٥٠)
 - ﴿تَنْتَهُم أَنْفُسَكُمْ﴾ (الحديد: ١٤)
 - ﴿خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ (الأعراف: ٩)
 - ﴿وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي﴾ (يوسف: ٥٣)
 - ﴿مَنْ يَنْفِرْ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ٢٠٧)
 - ﴿يُظَلِّم نَفْسَهُ﴾ (النساء: ١١٠)
 - ﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ (المائدة: ٢٥)
 - ﴿وَتَنْسُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤)
 - ﴿كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧)
 - ﴿فَلَا تَقْلُبُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦)
 - ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النجم: ٣٢)
 - ﴿يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ (النساء: ٤٩)
 - ﴿يَخْتَاوْنَ أَنْفُسَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٧)
 - ﴿وَمَا يُبَيِّلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ (النساء: ١١٣)
 - ﴿وَإِنْ يَبْلُغُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ (الأعمال: ٢٦)
 - ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٢)
 - ﴿وَاصِرٍ نَفْسِكَ﴾ (الكهف: ٢٨)
 - ﴿وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (إبراهيم: ٢٢)

وواضح أن القاعدة الثانية تنطبق انطباقاً تاماً على العبارات القرآنية

السابقة مع تعديل طفيف فيها على النحو الآتي:

القاعدة الثانية:

إذا كان الضمير عائداً على الفاعل في غير أفعال القلوب مسبوقاً بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) كان ضميراً منعكساً.

وواضح أيضاً أن الضمير في النصوص السابقة لم يرد مسبوقاً — (إيا)، لكن ورد في كلام سيبويه ما يجيز نحو (إياى ضربت).

فوجب أن يضاف إلى القاعدة فتصبح:

القاعدة الثانية:

إذا كان الضمير عائداً على الفاعل في غير أفعال القلوب مسبوقاً بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيا) كان ضميراً منعكساً.

على أننا قد وجدنا في القرآن الكريم شاهداً بنى فيه الفعل للمجهول، فلم ينعكس الضمير على الفاعل، بل انعكس على نائب الفاعل، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء: ٨٤)

من ثم وجب أن تعدل القاعدة مرة أخرى لتصبح:

القاعدة الثانية:

إذا كان الضمير عائداً على الفاعل أو نائبه في غير أفعال القلوب مسبوقاً بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيا) كان ضميراً منعكساً.

ولما كانت كلمة (نفس) أو جمعها، وكلمة (إيا) ترد كل منهما ملازمة

للضمير المنعكس لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها أو يذهب عن الضمير معنسى
 الاتعكاس، وتصبح الجملة التي يرد فيها "غير نحوية"، فإننا نبيح لأنفسنا أن
 نطلق على الضمير المسبوق بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو المسبوق
 بكلمة (إيا) مصطلح "ضميمة منعكسة" ليتيسر لنا الوصف التركيبي والدلالي
 لها.

أولاً: الوصف التركيبي:

أ - مع أفعال القلوب:

١- الضمائر المنعكسة مع أفعال القلوب لا تكون إلا ضمائر تكلم أو خطاب
 أو غيبة في محل نصب وتعكس على الفاعل ضميراً أو اسماً ظاهراً، غير
 مفصولة عنه، أو مفصولة عنه — (أَنْ) أو (إِنَّ)، والنحاة يجعلون من
 خصائص هذه الأفعال أن ضمير الفاعل فيها يتعدى إلى ضمير المفعول، ولا
 يلتفتون إلى فاعلها الظاهر، ولا إلى توسط (أَنْ) أو (إِنَّ) بين الفاعل والضمير
 المنعكس عليه، لأن شأنها في ذلك شأن سائر الأفعال غير المنعكسة المتعدية
 إلى مفعولين، يقول ابن السراج: «ويجوز في باب ظننت وحببت أن يتعدى
 المضمر إلى المضمر»^(١).

ويقول الزمخشري: «ومنها (أى من خصائصها) أنك تجمع فيها بين
 ضميرى الفاعل والمفعول فتقول: علمتني منطلقاً، ووجدتك فعلت كذا، ورأه
 عظيماً»^(٢). وقال ابن يعيش في شرحه لعبارة الزمخشري: «ولما أفعال

(١) ابن السراج: الأصول في النحو، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلى (بيروت
 ١٩٨٧) ٢/١٢١.

(٢) الزمخشري: المفصل، ص ٢٦٢.

القلوب التي هي ظننت وأخواتها فإنه يجوز ذلك فيها ويحسن، فيتعدى ضمير الفاعل فيها إلى ضمير المفعول الأول دون الثاني فنقول: ظننتني غنياً، وحسبتك غنياً، وذلك لأن تأثير هذه الأفعال إنما هو في المفعول الثاني، ألا ترى أن الظن والعمل إنما يتعلقان بالثاني، لأن الشك وقع فيه، والأول كان معروفاً عنده، فصار ذكره كاللغو لذلك جاز أن يتعدى ضمير الأول إلى الثاني، لأن الأول كالمعنوم، والتعدى في الحقيقة إلى الثاني، وقوله: «رأه عظيماً» في المثال، يريد: إذا كان المفعول الأول هو الفاعل المضمر في رأى فاعرفه»^(١).

ويقول الرضى في شرح الكافية: «هذه الأفعال المذكورة في متن الكافية، ولفظة «هب» بمعنى احصب، ورأى» اللطمية يجوز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متصلين متحدى المعنى نحو: علمتني قائماً، وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتِ أَغْوَيْتِ كَرِيماً﴾^(٢) وقال السيوطي: «لا يجوز أن يكون الفاعل والمفعول ضميرين متصلين لشيء واحد في فعل من الأفعال إلا في ظننت وأخواتها، وفي ففنت وصدمت، قاله البهاء النحلس في تعليقه على المقرب»^(٣).

٢- جوز بعض النحاة ورود الفاعل مع هذه الأفعال لسماً ظاهراً نحو: ظنه زيد قائماً، فإذا كان الفاعل ضميراً مستتراً يعود على المفعول الظاهر لم يجز نحو: زيداً ظن منطلقاً^(٤) وقال الرضى: «والقياس جوز: ظن

(١) ابن يعيش: شرح المفصل (المنيرية، القاهرة د. ت) ٨٨/٧.

(٢) الرضى: شرح الكافية في النحو ٢٨٥/٢.

(٣) السيوطي: الأشباه والنظائر في النحو (بيروت ١٩٨٤) ٥١/٢.

(٤) الرضى: شرح الكافية في النحو ٢٨٦/٢.

زيدٌ زيدًا قائمًا، أى نفسه»^(١).

والأصوليون من النحاة على أنه إن وجب القياس لشيء حكمًا، وجاز أن يأتي السماع بضده فالرأى الأخذ بالقياس حتى يرد ما يبين ذلك^(٢).

٣- يمكن أن يحل اسم آخر محل الضمير المنعكس، من ثم فالضمير المنعكس عنصر من العناصر المكملة للجملة، على أن هذا العنصر مطلوب من الفعل على وجه اللزوم، فلا يجوز حذفه، يقول ابن السراج: «... وإنما حقه أن يتعدى فعل المضممر إلى المضممر، وتكون أيضًا قد جعلت المفعول الذى هو فضلة فى الكلام لا بد منه وإلا بطل الكلام»^(٣).

ولا يقتصر استعمال أفعال القلوب على الضمائر المنعكسة، بل كما تستعمل هذه الأفعال منعكسة تستعمل غير منعكسة فنقول مثلاً: ظننت زيدًا قائمًا، أو: ظننتك قائمًا، أو: ظن زيدٌ عمرًا قائمًا.

٤- لا يمكن أن ينعكس الضمير مع أفعال القلوب على نائب الفاعل، ولا أن تبني هذه الأفعال للمجهول إذا اتصل بها ضمير منعكس، مع أنها أفعال متعدية إلى مفعولين، ومن ثم نعدها حالة خاصة من حالات التعدى، وتتفق هذه الأفعال من هذه الناحية مع الأفعال المنعكسة فى اللغة الألمانية^(٤).

٥- يطابق الضمير المنعكس مع هذه الأفعال الفاعل فى الشخص والنوع والعدد.

(١) السابق نفسه.

(٢) انظر: ابن جنى، الخصائص، تحقيق محمد على التاجر (القاهرة ١٩٥٢) ١/١٢٥.

(٣) ابن السراج: الأصول ٢/١٢١.

(٤) Grebe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartssprache, Duden 4. (٤) S. 75.

٦- يجوز أن يتقدم الضمير المنعكس مع هذه الأفعال على الفاعل، كما اتضح ذلك في المثال الذي أوردته الرضى، وهو: ظنه زيدًا قائمًا^(١)، فقد تقدم الضمير المنعكس، وفصل الفاعل بين المفعولين.

ب - مع غير أفعال القلوب:

١- للضمائر المنعكسة مع هذه الأفعال ضمائر تكلم وخطاب وغيبة، مسبوقة بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو بكلمة (يَا)، ويرى رابت أن الضمير قد يرد مسبوقًا بكلمة نفس، أو عين، أو وجه، (وفى العريبة المتأخرة: روح، ذات، حال) مثل قتل نفسه، عزّ به نفسك، أهلكت روحي، أسلمتُ وجْهِي لله^(٢)، وقد رأينا أن نطلق على الضمير المنعكس المسبوق بكلمة نفس أو ما يشبهها مصطلح "ضميمة منعكسة"^(٣).

٢- ترد الضميمة المعكسة في القرآن الكريم في موقع المفعول به لفعل ماضٍ، أو مضارع، أو أمر كما ظهر في الشواهد للقرآنية التي ذكرناها. وقد ترد مفعولًا ثانيًا لفعل متعدٍ إلى مفعولين من غير أفعال القلوب، وفي هذه الحالة يفصل الفاعل بين المفعولين كما في قوله تعالى:

﴿ وَيَحْمِلُكُمْ اللَّهُ تَسْفُتًا ﴾ (آل عمران: ٢٨)

وترد مفعولًا به للمصدر كما في قوله تعالى:

(١) الرضى: شرح الكافية ٢/٢٨٦.

(٢) Wright, W.: A Grammar of the Arabic Language (Beirut 1974) II, p. 272.

(٣) يطلق نحاة الإنجليزية على myself ect وأمثالها مصطلح "الضمير المنعكس" ويطلق عليه بعضهم "الضمير المركب" (compound pronoun) راجع: Thomson & Martinet: A Practical English Grammar, Oxford 1980, p. 41, Zandvoort: A Handbook of English Grammar, London, 1975, p. 144.

﴿ تَخَافُوهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (الروم: ٢٨)

وقوله عز و علا:

﴿ لَقَدْ أَتَىٰ اللَّهُ أَكْثَرَكُمْ مِنْ مَفَاتِحِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (الشورى: ١٠)

وترد مفعولاً به لاسم الفاعل كما فى قوله جل وعز:

﴿ فَلَمَّا لَكَ بِأَيْمِئِكَ عَلَىٰ أَنَارِهِمْ ﴾ (الكهف: ٦)

وترد مفعولاً به لاسم الفعل كما فى قوله سبحانه:

﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٥)

وترد الضميمة المنعكسة فى موقع المجرور بحرف جر أصلى كما نجد ذلك فى الشواهد القرآنية الآتية:

﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ (آل عمران: ٩٣)

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (الأعراف: ١٢)

﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ (يوسف: ٧٧)

﴿ فَلَاؤِجَسَّ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ ﴾ (طه: ٦٧)

﴿ وَاضْطَلَمْتُمْ لِنَفْسِكُمْ ﴾ (طه: ٤١)

﴿ أَوْ أَكْتَسِمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٣٥)

﴿ عَدَا مَا كَتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ (التوبة: ٣٥)

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ (الإسراء: ٧)

﴿ سَهَلْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ﴾ (الأعراف: ١٣٠)

﴿ أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ (المائدة: ٥٢)

﴿ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (الأعراف: ٢٤)

- ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ (النساء: ٦٥)
 - ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأعراف: ١٢٣)
 - ﴿أَوَلَمْ يَتَذَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (الروم: ٨)
 - ﴿فَلَا تُفْسِدُوا بِمَنُحَدِّثٍ﴾ (الروم: ٤٤)
 - ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ (المجادلة: ٨)
 - ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ (البقرة: ٢٣٤)
 - ﴿وَقَدَّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣)
 - ﴿فَأَذَرُوهُمَا عَن أُنفُسِكُمْ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٦٨)
 - ﴿يَلِ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ﴾ (القيامة: ١٤)
 - ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٠٤)
 - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ (فصلت: ٤٦)

وترد الضميمة المنعكسة مع اسم الفاعل دون فاصل مجرورة بحرف

جر أصلى كما فى قوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (الكهف: ٣٥)
 - ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ (التوبة: ١٧)

وترد مفصولة بـ (ولو)، كما فى قوله جل شأنه:

- ﴿شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ (النساء: ١٣٥)

وظاهر أن الضميمة المعكسة المجرورة بحرف جر أصلى غير محفوظة الرتب، كما هو شأنها إذا كانت غير منعكسة، فهى ترد بعد الفاعل، وبعد المفعول، ومقدمة على الخبر، ومقدمة على الفعل والفاعل، ومحصورة

بـ (إلا) وخيراً لمبتدأ محذوف.

وترد الضميمة المنعكسة في موقع الجر بإضافة المصدر إليها كما في قوله جل شأنه:

- ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ (الحشر: ٩)

- ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَلَهُ مِنْ يُلْقَاهُ نَفْسِي﴾ (يونس: ١٥)

- ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الكهف: ٥١)

- ﴿لَا يَسْتَلِيمُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٤٣)

وترد في موقع المجرور بحرف جر زائد في محل رفع فاعلاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿كَمْ لِي بِتُغْيِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ (الإسراء: ١٤)

٣- تعود الضميمة المنعكسة على ضمير بارز متصل، أو على ضمير مستتر، أو على اسم ظاهر كما ظهر في الشواهد السابقة.

٤- تطابق الضميمة المنعكسة ما تعود إليه في الشخص والنوع والعدد.

٥- من الممكن أن يحل محل الضميمة المنعكسة عنصر لغوي آخر، وليس في اللغة العربية لفعالاً لا تستخدم إلا منعكسة، على نحو ما نجد ذلك مستخدماً في اللغة الألمانية^(١).

٦- يجوز أن تبنى الأفعال للمجهول مع الضميمة المنعكسة، على ألا

(١) Grebe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartssprache, Duden 4. (١) S. 76.

تكون الضميمة المنعكسة نائب فاعل، بل يظل لها موقع للنصب، كما في قوله تعالى:

- ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء: ٨٤)

٧- تستخدم الأفعال المنعكسة من حيث دلالة الصيغة والزمن تستخدم الأفعال غير المنعكسة.

٨ - يجوز أن ينحصر الضمير المنعكس عليه، أى: ضمير الفاعل، بـ (إلا) فينصل، ولا تصبح هناك حاجة إلى كلمة "نفس" كما في قولك: ما ضربك إلا أنت وقد أجازته النحاة^(١).

٩ - يجوز أن ترد الضميمة المنعكسة معطوفة على ضميمة غير منعكسة، كما في قوله تعالى:

- ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾

(آل عمران: ٦١)

١٠- ترد الضميمة المنعكسة عائدة على المفعول به، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَأَشْهَتُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢)

إن المفعول به هنا فاعل فى المعنى، فالمعنى - والله أعلم - جعلهم يشهدون على أنفسهم، بدليل قولهم فى الإجابة عن السؤال الذى وجه إليهم: ألمت بربكم؟ قال بلى شهدنا، قال الزمخشري: «أى: على أنفسنا»^(٢) ومثل ذلك

(١) الرضى: شرح الكافية ٢/٢٨٦.

(٢) الزمخشري: للكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأكليل فى وجوه التأويل (القاهرة: ١٩٥٢) ٢/١٣٧.

قوله تعالى:

-﴿فَأَنسَأَلُكُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩)

١١- قد ترد الضميمة المنعكسة مقلوبة، أى: أخذة موقع ما تعود

عليه، تحقيقاً لغرض بلاغى، كما فى قوله تعالى:

-﴿سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ (طه: ٩٦)

بدل سولت لنفسى.

-﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ (يوسف: ١٨)

بدل: سولتم لأنفسكم أمراً.

-﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤)

بدل: أهموا أنفسهم.

-﴿لَيْسَ مَا قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (المائدة: ٨٠)

بدل: قدموا لأنفسهم.

١٢- قد تقوم (ال) متصلة بـ (نفس) بوظيفة الضمير المنعكس كما

فى قوله تعالى:

-﴿وَتَبَى النَّفْسَ مِنَ الْمَوَى﴾ (النازعات: ٤٠)

أى: نفسه^(١).

والآن بعد أن تم لنا الوصف التركيبى للضميمة المنعكسة بجدر بنا أن

نعود إلى القاعدة للثانية التى وضعناها فنجرى عليها التعديل الأخير، حتى

يمكن أن تولد* بها كل الجمل الصحيحة التى ذكرناها، وتكون صالحة لتوليد

(١) الطبرى: جامع البيان عن تأويل آى القرآن (لقاهرة ١٩٥٤) ٤٨/٣٠.

غيرها من الجمل الصحيحة.

القاعدة الثانية:

الضميمة الاسمية التي تطابق ضميمة اسمية أخرى سابقة عليها في جملة واحدة هي ضميمة منعكسة.

ولما كانت هذه القاعدة تشمل الآن القاعدة الأولى، وتغنى عنها، فإننا نختصر القاعدتين في قاعدة واحدة إجبارية هي:

القاعدة: (إجبارية):

الضميمة الاسمية التي تطابق ضميمة اسمية أخرى سابقة عليها في جملة واحدة هي ضميمة منعكسة.

ثانياً: الوصف الدلالي:

١- تتحق العلاقة الانعكاسية في الأمثلة والشواهد السابقة بين عنصرين لغويين أحدهما منعكس والآخر منعكس عليه، والمنعكس عليه فيما أوردناه من أمثلة وشواهد يتسم بسمتين مميزتين distinctive features هما: [+حى]، [+بشرى].

٢- وردت العلاقة الانعكاسية في الأمثلة والشواهد السابقة تامة، لكن الرضى في شرح الكافية أشار إلى جواز أن تكون علاقة الانعكاس جزئية، فقد أورد المثال الآتي: رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أى: رأيتنى ومن معى، وأورد أيضاً قولهم: رأيتمك تقول كذا^(١)، فالضمير المنعكس هنا يعود على بعض المنعكس عليه.

(١) الرضى: شرح الكافية في النحو ٢/٢٨٥.

٣- يجوز أن تكون العلاقة الانعكاسية تبادلية reciprocal بصير فيها

فعل الانعكاس متبادلاً بين الفاعلين، وذلك في نحو قوله تعالى:

- ﴿ قَاتِلُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ (النور: ٦١)
- ﴿ تَقَاتِلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة: ٨٥)
- ﴿ وَلَا تَقَاتِلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (النساء: ٢٩)
- ﴿ وَلَا تَحْرِجُوا أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ (البقرة: ٨٤)
- ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (الحجرات: ١١)
- ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة: ٥٤)
- ﴿ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (النساء: ٦٦)
- ﴿ أُخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (الأعراف: ٩٣)

ولكثر ما يكون ذلك إذا كان الفاعل جمعاً.

٤- لا تتحقق العلاقة الانعكاسية - في غير أفعال القلوب - إلا من

خلال حدث يمكن أن ينعكس على الفاعل أو يعود عليه، فإذا لم يكن الحدث صالحاً للانعكاس لم يصح استخدام الضميمة المنعكسة معه، ويتضح ذلك من الأمثلة الآتية:

أ - أتيمت العمل.

ب - أتيمت نفسي.

أ - تسلمت الجلزة.

ب - تسلمت نفسي.

أ - نقت الطعام.

ب - نَفَتْ نَفْسِي.

أ - قَطَفَتِ الثَّمَرُ.

ب - قَطَفَتِ نَفْسِي... إلخ.

٥- يتحقق معنى الانعكاس دون ضميمة منعكسة ببعض صيغ الأفعال

المزيدة التي تعبر عن معنى أفعال مجردة أو مزيدة مستخدمة مع ضميمة منعكسة، ومن ذلك صيغة (القتل)، كما يتضح ذلك فيما يأتي:

- المرأة غسلت ثيابها.

- المرأة غسلت المرأة إذا كانت المرأة في الموضعين شخصاً واحداً).

المرأة غسلت نفسها.

المرأة اغتسلت.

وقد عرض بروكلمان لبعض ذلك، فنذكر أن صيغة (تَغَسَّل) صيغة

انعكاسية لـ (فَعَّل) مثل: تكَبَّرَ (= كَبَّرَ نفسه) sich gross machen، ومثل تنبأ

(= ادعى النبوة لنفسه) sich als propheten stellen، وذكر أن صيغة (تفاعل)

صيغة انعكاسية لـ (فاعل) مثل: نَقَاتَلُوا (= قَاتَلُوا أَنفُسَهُمْ) sich gegenseitig

bekämpfen، وقال: نادراً ما تحمل صيغة (تفاعل) معنى الادعاء مثل: تناوم

(= ادعى النوم لنفسه) sich schlafend stellen، كما ذكر أن كلاً من صيغة

(انفعل) مثل: انهزم، و(استفعل) صيغة انعكاسية لـ (أفعل) مثل: استوحش

sich betrüben، ثم قال: ومن الشائع أن نكل هذه الصيغة على رغبة شخص

في تحقيق شيء لنفسه، مثل: استغفر^(١).

Brockelmann, C.: Arabische Grammatik (Leipzig 1960) S. 38- 40. (١)

على أن لهذه الصيغ معاني أخرى تجدها مبسطة في كتب الصرف، وقد ألفرد لها أحد الباحثين كتاباً^(١).

وقد نتبعت ما ذكره الرضى في شرح الشافية من معاني هذه الصيغ مما قد يدل على الاتعكس، فلم أجده أثبت لـ (تفعل) للمعنى الذى ذكره بروكلمن لها، لكنه قال فى (تفاعل): تغاللت: أظهرت من نفسى الغفلة، ولثبت لـ (تفعل) معنى التكلف، وهو حمل النفس على أمر فيه مشقة، مثل: تحلم، وتمراً، أى: تكلف اللحم والمروعة، وقال فى: (افتعل): والظاهر أنه لا تخاذك الشيء أصله لنفسك، فاشتوى اللحم أى: عمل شواء لنفسه، وامتناء: جعله لنفسه مطية، وكذا: اغذى، وارثى، واعتاد، وقال فى (استفعل): استعجلت زيذاً أى: طلبت عجلته، فإذا كان بمعنى عجلت، فكأنه طلب العجلة من نفسه^(٢).

ثم قال بعد أن سرد معاني الصيغ: «واعلم أن المعاني المذكورة للأبواب المتقدمة هي الغالبة فيها، وما يمكن ضبطه، وقد يجئ كل واحد منها لمعاني أخر كثيرة لا تضبط، كما تكررت الإشارة إليه»^(٣).

٦- ينبغي ألا نلتبس الضميمة المنعكسة (نفسه) وأخواتها بالضميمة المؤكدة التي تتفق معها لفظاً وتختلف معنى، فهي فى الأول عنصر إجبارى دل على انعكس الحدث على الفاعل، ولا يمكن حذفه دون أن تختل الجملة تركيباً ودلالة، وهى فى الثانية عنصر لختيارى يؤكد اسمًا فى الجملة برفع

(١) هشام طه ثلاث: أوزان الفعل ومعانيها (النجف ١٩٨١).

(٢) الرضى: شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزراف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت ١٩٨٢) ١/٩٢ وما بعدها.

(٣) السابق ١١٢/١.

الاحتمال عنه، وحفظه لا يدخل بتركيب الجملة، ولا بمعناها الأصلي، إذا استغنيا عن المعنى الإضلقى الذى يفيد التوكيد.

وأريد أن ألفت فى ختام هذا البحث إلى أن بعض الشعراء المعاصرين أخذوا يستخدمون الضميمة المنعكسة استخدامًا يخرج بها عن القاعدة، لا جهلاً منهم بها، بل اجترأ عليها، ومن هؤلاء الشاعر محمد أبو دومة، إذ قال فى بعض قصائده:

- لكنى لم أعيا بى.

لم أترث.

واصلت لعلى أغفر لى إثمى^(١).

وقال فى موضع آخر:

- بغيبته أسافر فيه، أنخله لأعرفى.

وأومن بى^(٢).

وبعد، فهذا هو الوصف التركيبى والدلالى للضمائر المنعكسة، وما تتصل به من أفعال تسمى أفعالاً منعكسة أيضاً، عرضت له من خلال المادة اللغوية الواردة فى القرآن الكريم، وما ورد فى كتب النحو العربى للتراثى، وألفت فيه من مناهج الدرس اللغوى الحديث والمعاصر عند الغربيين، ومن ناحية بعض اللغات الأخرى فى رصد هذه الظاهرة فى لغتهم، ومن نظرات بعض المستشرقين، ولعلنى أكون بهذا البحث قد جلوت غامضاً، أو استكركت فائتاً، أو أضفت جديداً.

(١) محمد أبو دومة: أتباعكم فأسافر فيكم (القاهرة ١٩٨٨)، ص ٥٤.

(٢) السابق، ص ٨٧.

وظائف اللغة

م. أ. ك. هاليداي

ترجمه عن الإنجليزية ومهد له

أ. د. محمود أحمد نحلة

التمهيد للترجمة:

صاحب هذا البحث علم شامخ عن أعلام مدرسة لندن في علم اللغة هو مايكل ألكسندر كيركوود هاليداي، ولد في لينز - يوركشاير بإنجلترا سنة ١٩٢٥م لأسرة جامعية. كان أبوه ولتريد ج. هاليداي (١٨٨٩ - ١٩٧٥) مديراً لإحدى المدارس، وقام بعد تقاعده بدور أسلمي في جمع المادة اللغوية الخاصة بشمال إنجلترا في كتاب هرولد أورتون: مسح علم اللهجات الإنجليزية Survey of English Dialects.

حصل هاليداي على البكالوريوس في اللغة الصينية وآدابها من جامعة لندن، ودرس بعد تخرجه علم اللغة في جامعة بكين، ثم في كامبردج، حيث حصل على الدكتوراه سنة ١٩٥٥.

بعد أن شغل بعض الوظائف في كامبردج وإينبره انتقل إلى الكلية الجامعية بلندن سنة ١٩٦٣ ليعمل مديراً لمركز أبحاث الاتصال، حيث أدار مشروعين بحثيين مهمين أحدهما عن الخصائص اللغوية للإنجليزية العلمية، والثاني عن علم اللغة وتعليم الإنجليزية، وفي سنة ١٩٦٥م عين أستاذاً لعلم اللغة العام بالكلية الجامعية بلندن، وقد ظل يعمل بها حتى نهاية عام ١٩٧٠م.

في المدة من ٧٢ - ١٩٧٣م كان زميلاً لمركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية في ستانفورد بكاليفورنيا، ثم عمل أستاذاً لعلم اللغة في جامعة إلينوى في المدة من ٧٣ - ١٩٧٥. وفي بداية ١٩٧٦م أصبح رئيساً لقسم جديد لعلم اللغة بجامعة ميندى وظل يشغل هذا المنصب حتى تقاعد سنة ١٩٨٧، وظل يعمل به بعد التقاعد.

درّس في الجمعية اللغوية التابعة للمعاهد الصينية اللغوية الأمريكية:

فى (إنديانا) ١٩٦٤، وفى (أوكلاهوما) ١٩٦٦، وفى (متشجان) ١٩٧٣، ونال
العضوية الشرفية للجمعية سنة ١٩٧٨، كما عمل أستاذًا زائرًا فى جامعات
بيل، وبراون، ونبروي.

فى عام ١٩٦٩ منحه جامعة نانسى بفرنسا سنة ١٩٦٩م الدكتوراه
الفخرية، وفى ١٩٨٦م منحه جامعة سنجاور درجة الأستاذية الفخرية، وفى
عام ١٩٨١م حصل على جائزة دافيد راسل للبحث المتميز فى تعليم
الإنجليزية من المجلس الوطنى لمعلمى الإنجليزية بأمريكا.

ولا يزال للرجل حتى كتابة هذه السطور عطاءه العلمى الوافر، وهو
يهتم فى أبحاثه الحالية بعلم الدلالة، ونحو الإنجليزية المعاصرة، وللتطور
اللغوى فى الطفولة المبكرة، وعلم اللغة النصى، والاستخدام اللغوى،
والتطبيقات التعليمية لعلم اللغة، والذكاء الاصطناعى، كما تشمل اهتماماته
اكتساب اللغتين الأولى والثانية، والشعرية، والاضطرابات اللغوية.

لقد كان هاليداي أبه تلامذه فيرث، وأكثرهم وعيًا بأفكار أستاذه
واستيعابًا لها، وقد استطاع أن يمنح هذه الأفكار الوضوح والتماسك اللذين
كانت تفتقر إليهما، وأن يضع منذ وقت مبكر إطارًا نظريًا محكمًا لنظرية
لسانية تقوم على أفكار فيرث، يشاركه فيها بعض زملائه حتى سموا
(الفيرثيين الجند).

على أن هاليداي لم يكف بما تنطه من أفكار فيرث، بل وسَّع دائرة
معارفه، وأخذ من مصادر أخرى كثيرة فى وضع نظرية محكمة للوصف اللغوى
صالحة للتطبيق على لغات مختلفة، وما زال يطورها ويعملها حتى ظنَّ بعض
الباحثين أنه عدل أخيرًا عن أفكاره المبكرة، واتجه بالنظرية لتجاها آخر جديدًا.

والحق أن نظريته مرت بمراحل ثلاث. بدأت أولاها بالبحث الذي نال به درجة الدكتوراه سنة ١٩٥٥ ونشره سنة ١٩٥٩ بعنوان (لغة الصينيين. التاريخ السرى للمغول).

"The Language of the Chinese. Secret History of the Mongols".

وقد استطاع فيه أن يضع إطاراً نظرياً متماسكاً تعالج من خلاله العلاقات بين الوحدات اللغوية معالجة منهجية، ثم اتضحت معالم النظرية في هذه المرحلة بالبحث الذي اكتمل قبل وفاة أستاذه فيرث ونشره عام ١٩٦١م وعنوان فصائل نظرية النحو Categories of the Theory of Grammar وقد سميت النظرية في هذه المرحلة "نحو المقياس والفصيلة" Scale and Category Grammar.

وقد بدأت معالم التطور في هذه النظرية تظهر منذ منتصف العقد السادس من القرن العشرين، وتتلمس هذا التطور حتى أصبح يعدّ مرحلة ثانية في حياة النظرية. وقد أفضى هذا إلى بزوغ نموذج أُنشئ إحصائياً أطلق عليه علم اللغة النظامي Systemic Linguistics أو النحو النظامي Systemic Grammar؛ لما أصبح لمفهوم النظام System من أهمية بالغة فيه.

وقد حملت ملامح التطور توجهاً وظيفياً جعل بعض الباحثين يطلق على نموذج هاليداي في هذه المرحلة "النحو النظامي الوظيفي". على أن هذا التوجه الوظيفي لم يكن بمعزل عن التوجه الاجتماعي، بل ظهر الميل الواضح إلى مجتمعا معاً مع اهتمام متنام بالظواهر الدلالية.

لما المرحلة الثالثة فيمكن الترخيخ لها بكتاب هاليداي: مدخل إلى النحو الوظيفي (سنة ١٩٨٥) An Introduction of Functional Grammar إذ كان

ثمرة اهتمامه المتزايد بوظائف اللغة في المجتمع وما يعبر عنها من تركيب. وقد وضع به أسس نظرية وظيفية غير منبئة الصلة عن الأسس المنهجية التي قام عليها فكره اللغوي في المراحل الثلاث، بل إن نحوه النظامي يمثل المرتكز الأساسي لنحو الوظيفي؛ ومن هنا تميزت نظريته الوظيفية عن نظريتين وظيفيتين معاصرتين إحداهما نظرية النحو الوظيفي لسايمون ديك Simon Dik والأخرى نظرية النحو الوظيفي التوحيدي عند كاي Kay.

وفي العام نفسه الذي أصدر فيه هذا المدخل إلى النحو الوظيفي ظهر له كتاب شاركته فيه زوجته الهندية الأصل رقية حسن عنوانه:

Language, Context, and text: aspects of language in social- Semiotic Perspective (Oxford University Press, 1985).

والبحث الذي ألقمه اليوم مترجمًا هو الفصل الثاني من هذا الكتاب في طبعته الثانية (١٩٨٩) التي أعيد إصدارها سنة ١٩٩٠ من ص ١٥ - ٢٨. وترجع أهمية هذا الفصل إلى أنه محضه لوظائف اللغة التي أصبحت تمثل محور النظرية. ولم يقتصر الرجل فيه على التنظير بل عمد إلى التطبيق المفصل على نصين أحدهما شعري والأخر نثري وبين على نحو شديد الوضوح والعمق كيف تحققت فيهما وظائف اللغة. وأرجو أن يكون في هذه الترجمة إثراء للدراسة اللغوية العربية المعاصرة بمتابعة الحديث عن نظرية لم يتح لها ما ينبغي من الاهتمام في العالم العربي.

الترجمة (*)

مداخل:

ماذا نفهم من مصطلح "وظائف اللغة"؟ لعل المقصود من كلمة وظيفة في أبسط معانيها أن تكون مرادفة لكلمة "استعمال"؛ لذلك حين نتحدث عن وظائف اللغة فنحن لا نعني إلا الطريقة التي يستعمل بها الناس لغتهم أو لغاتهم إن كان لهم أكثر من لغة. وإذا عبرنا عن ذلك بصورة عامة قلنا إن الناس ينجزون بلغتهم أشياء كثيرة، أي أنهم يتوقعون أن ينجزوا بالكلام والكتابة والاستماع والقراءة عددًا كبيرًا من الأهداف المختلفة والأغراض المتباينة. ومن المستطاع أن نحاول تعداد هذه الأهداف والأغراض وتصنيفها بطريقة أو بأخرى، وقد حاول عدد من العلماء أن يقوموا بذلك أملين أن يجدوا إطارًا علميًا، إلى حد ما، أو نظامًا لتصنيف الأغراض التي من أجلها يستخدم الناس لغتهم.

ثمة عدد من التصنيفات المألوفة لوظائف اللغة، منها مثلاً ذلك للتصنيف الذي قدمه مالبينوسكى وقرن بعمله في السياق situation والمعنى meaning، وقد أشرنا إليه قبلاً. لقد قسم مالبينوسكى (١٩٢٣) وظائف اللغة إلى فئتين واسعتين: مقامية pragmatic وسحرية magical. ولقد كان يحكم كونه متخصصًا في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) مهتمًا بالاستخدامات العملية أو المقامية للغة، (ثم قسمها بعد ذلك إلى فرعين: فاعلة active وروائية narrative) من جهة، ومن جهة أخرى كان مهتمًا بالاستخدامات الطقوسية أو الدينية.

(*) اشكر الدكتورة/ ماجدة السباعي الأستاذ المساعد بقسم اللغة الإنجليزية، بكلية الآداب جامعة الملك سعود مراجعتها الدقيقة لهذه الترجمة.

على أن هناك تصنيفاً مختلفاً جدّاً الاختلاف لقرن بلسم عالم النفس النمساوي كارل بيولر K. Bühler (١٩٣٤) الذي اهتم بوظائف اللغة من وجهة نظر لا تعنى كثيراً بالثقافة culture لكن بالفرد. لقد ميز بيولر بين اللغة التعبيرية expressive، واللغة النزوعية conative، واللغة التمثيلية representational. فاللغة التعبيرية هي التي تتجه إلى النفس، أي إلى المتكلم، واللغة النزوعية هي التي تتجه إلى المخاطب، واللغة التمثيلية هي التي تتجه إلى سائر الموجودات، أي إلى أي شيء غير المتكلم أو المخاطب.

لقد استخدم بيولر الإطار التصوري الموروث عن أفلاطون: للتمييز بين المتكلم والمخاطب والغائب، وهذا بدوره مأخوذ عن النحو (كان مصدره النحو البلاغي الذي جاء قبل أفلاطون) - وهو يقوم على حقيقة أن الأنظمة الكلامية في كثير من اللغات الأوربية (بما فيها اليونانية القديمة) دارت حول فصيلة الشخص، مفرقة بين الشخص الأول وهو المتكلم، والشخص الثاني وهو المخاطب، والشخص الثالث وهو كل ما عداهما. على هذا الأسس اعترف بيولر بثلاث وظائف للغة وفق توجيهها إلى شخص أو آخر من الأشخاص الثلاثة. وقد تبنت مدرسة براغ خطته، ووسعها من بعد رومان ياكوبسون (١٩٦٠) فإضاف ثلاث وظائف أخرى: الوظيفة الشعرية poetic وتوجه إلى الرسالة message، والوظيفة التعاملية transactional وتوجه إلى قناة الاتصال channel، والوظيفة الماورائية أو الواصفة metalinguistic وتوجه إلى الشفرة code.

لقد تبني خطة بيولر وطورها في اتجاهات مختلفة المربي الإنجليزي جيمس برينتون (١٩٧٠) الذي اقترح إطاراً يتألف من الوظائف التعاملية والتعبيرية والشعرية للغة. لقد اهتم برينتون بتطوير (قدرات الكتابة) عند

الأطفال في المدرسة، وتمسك بالرأى القائل إن الكتابة تطورت أول ما تطورت في سياق تعبيرى expressive، ثم اتسعت القدرة "متجهة" إلى الكتابة التعليلية من جهة، والكتابة الشعرية من جهة أخرى. واللغة التعليلية هي تلك التي تؤكد على دور المشارك، على حين أن للتأكيد في اللغة الشعرية يكون على دور الكاتب أكثر منه على دور الملقى.

وقد قدم دزموند موريس (١٩٦٧) في دراسته الشائقة عن الجنس البشرى من وجهة نظر متخصص في السلوك الحيواني تصنيفاً آخر لوظائف اللغة يتمثل في الحديث الإخبارى information talking والحديث المزاجى mood، والحديث الاستكشافي exploratory، والحديث المتلطف grooming، فالأول يقوم على تبادل المعلومات، ويبدو أن موريس كان يعنى ضمناً أنه يأتي أولاً على الرغم من أنه يظهر آخرًا في تاريخ حياة لطفال البشر. والثاني كما هي الحال عند بيولر وبريتون وظيفة تعبيرية، والثالث حدده بأنه حديث للحديث، يؤدي وظائف جمالية، على حين أن الرابع ثرثرة مهذبة لا معنى لها تستخدم في المناسبات الاجتماعية، وهو ما أطلق عليه مالبينوسكى قبل أربعين عامًا "اتصال المجاملة" phatic communication ويعنى به الاتصال الكلامى حين يستخدم الناس تعبيرات مثل "يوم جميل، أليس كذلك؟" وسيلة لتسهيل المهمة الاجتماعية، وتجنب الاحتكاك.

وعلى الرغم من أن التصنيفات تبدو جدّ مختلفة، وأن كلاً منها يستخدم مصطلحات مختلفة عن الأخرى، وعلى الرغم من أن أحداً منهم - باستثناء بريتون - لم يقرأ ما كتبه الآخرون، فهناك تماثل كبير بينهم، وهو ما يمكن أن نوضحه بوضع تصنيفاتهم في جدول واحد يعرضها فى صفوف على النحو الذى يكون فيه التماثل رؤسيًا، فكل مدخل يماثل على نحو أكثر

أو أقل ما فوقه وما تحته. وحين نفعل هذا نستطيع أن نراها جميعاً تسلم بأن اللغة تستعمل للحديث عن أشياء (إخبارية - روائية - تمثيلية)، وهى كلها تسلم بأن اللغة تستخدم لتحقيق أهدافى وأهدافك؛ تعبيراً عن النفس، وتأثيراً فى الآخرين (مزاجية - تعبيرية - نزوعية - فاعلة). وثمة أيضاً وظيفة ثالثة للغة تتمثل فى الجانب الجمالى أو التصوير المجازى.

الجدول رقم (١)

		مقامية		شعرية	
ماليونوسكى (١٩٢٣)	روائية	فاعلة			
بولار (١٩٣٤)	تمثيلية غائب	نزوعية مخاطب		تعبيرية متكلم	
		تبادلية			
بريتون (١٩٧٠)	إخبارية	نزوعية		تعبيرية	
موريس (١٩٦٧)	حديث إخبارى		حديث متلطف	حديث مزاجى	
استخدام		استخدام تبادلى للتأثير			استخدام مجازى
إخبارى موجه إلى المحتوى		سيطرة على الآخر	دعم متبادل	تعبير ذاتى	طقوسى شعرى

ملحوظة: الأجزاء المظللة تمثل الاستخدامات التى لم يوردها المؤلف المذكور أمامها.

الوظيفة خاصة جوهرية للغة:

ما قلم به أمثال هؤلاء العلماء كان في أساسه بناء لإطار تصوري، من نوع ما ، بمصطلحات غير لغوية، نظرين إلى اللغة من الخارج، ومستخدمين هذا الإطار وسيلة لتفسير الطرائق المختلفة التي يستخدم بها الناس اللغة. وعلى أساس من كل هذه التفسيرات لوظائف اللغة يمكننا أن نقول إن الوظيفة تعادل الاستعمال، مفهوم الوظيفة مرادف لمفهوم الاستعمال. بيد أنه كى نواصل أبحاثنا الخاصة بنا علينا أن نخطو خطوة أخرى، خطوة تقسم الاختلاف الوظيفي، لا بوصفه اختلافاً في استخدام اللغة، بل بوصفه بنية ذاتية، أو أساساً محضاً لتكوين اللغة نفسها، ولوضع النظام الدلالي على وجه الخصوص.

بعبارة أخرى سوف نقدر اللغة لا بوصفها مجرد استخدام للغة، بل بوصفها خاصة جوهرية للغة نفسها، وشيئاً أساسياً في تطور النظام الدلالي، فكأنما نقول إن تنظيم أية لغة طبيعية يقدر في ضوء نظرية وظيفية.

ما أحب أن أقوم به هنا هو أن أوضح الأساس الوظيفي للغة من خلال تحليل جملة واحدة، وهو أمر محفوف بالمخاطر؛ لأن ثمة دائماً خطراً يتمثل في أن تعدّ بعض السمات العارضة التي هي خاصة لجمل معينة سمات أساسية للنحو بصفة عامة، فطبعي أن السمات التي تظهر في جملة معينة لا بدّ أن تكون سمات عارضة بالنسبة للنظام اللغوي كله. إنها السمات التي اخترناها في هذا المثال. وعلى ذلك ففي تفسير الجملة نحاول أن نربط ما نقوله بالفصائل العامة general categories الموجودة في نحو اللغة.

دعنا نعمن النظر في الجملة الآتية:

أو اتركى قبلة في الكأس، ولن أطلب نبيذاً.

هذه الجملة من قصيدة إنجليزية مشهورة في أوائل القرن السابع عشر الميلادي (بن جونسون: إلى سيليا) إنها ليست البيت الأول، كما يمكن أن نتصور ذلك بسهولة. إنها في الحقيقة البيت الثاني. وإن أشغل بالبيت الأول الآن، بل أريد أن أقوم بنوع من التعليق التحليلي على هذه الجملة، لا بوصفه - على أية حال - جزءاً من تحليل أدبي، بل بوصفه تدريجياً لسائياً نطاقاً به السمات التي توضح النقطة العامة وهي الأساس الوظيفي للغة.

المعنى التجريبي Experiential Meaning:

دعنا إذن ننظر أولاً إلى هذه الجملة من وجهة نظر تتصل بمعناها بوصفه التعبير عن نوع ما من العمليات: واقعة ما، حدث، حالة، أو أية ناحية أخرى، يمكن إدراكها في عالم الواقع، ترتبط به بعلاقة رمزية من نوع ما. فإذا نحن حملناها على ظاهرها إلى حد ما أمكن تفسيرها على النحو السارد في الجدول الآتي (جدول رقم ٢):

الجدول رقم (٢)

التركيب التباعلي

أنت (أنت)	أتركي	قبلة	في الكأس و	(أنا)	أطلب	نبيذاً
(أنت) فاعل حقيقي فاعل نحوي	أتركي حدث عملية	قبلة شيء هدف	في الكأس موضع ظرف مكان	(أنا) فاعل حقيقي قتل	أطلب عملية منطوقة	نبيذ شيء مجال

ولنتأمل كلمة (أتركي): إذا أخذناها وحدها سوف نفسرها بأنها نوع من العمليات، بتحديد ألق: حدث ما. ثم هناك كلمة (قبلة) والمفروض أنها نوع من الأسماء على الرغم من أنه ليس واضحاً كل الوضوح أي نوع من

الأشياء تكون، وهي بحال الحدث أو نطلق تأثيره. والذي ربط بين هاتين الكلمتين هو (فى + الكس) وهو نوع من العناصر الظرفية، المفروض أنه ظرف مكان، أى موضع. وعلى هذا فإن عندنا تمثيلاً للحدث، وشيئاً يتأثر بالحدث، ومكاناً يقع فيه. وقد نشعر أيضاً أننا مضطرون إلى أن نمدّ حاجتنا إلى شخص يؤدي الحدث. ومن ثم دعنا نصف - لغرض الإيضاح فحسب - شيئاً يمكن أن نسميه فاعلاً، أى شخصاً يفعل الفعل، لأن ذلك لا يتحقق صراحة في اللغة.

كذلك الحال في النصف الثاني من الجملة، ثم كلمة (تبيذ) التي هي نوع معين من الأشياء، وكلمة (أطلب) التي يمكن أن نعتبرها عنصراً مفرداً، وهي عملية، ولكنها مختلفة عن العملية السابقة؛ إذ إنك تطلب شيئاً، وقد تستخدم نوعاً من أنواع الإشارات، ربما كان إشارة لغوية، لتحقيق هذا الغرض، دعنا نسمها عملية شفوية أو لفظية verbal process. وهناك أيضاً فاعل حقيقي doer، لكن الفاعل الحقيقي يتمثل الآن في كلمة (أنا)، وهو مرة أخرى فاعل من نوع مختلف، ليس فاعلاً نحويًا بل هو فاعل يشترك في العملية اللفظية - أو لا يشترك فيها لأنه في الحقيقة منفى - فنسمه "الفاعل" sayer.

من ثم فإن الجملة - على أبسط مستوى - يمكن أن تعد تمثيلاً لظاهرة مركبة في عالم الواقع، فنحن نعلم أن فيه أشياء مثل الكؤوس، والتبيذ، ونحن نعرف أننا حين نتكلم نصيح أشخاصاً: "أنا" و"أنت"، ولدينا تصورات معينة لهذه الأشياء. إننا نعرف أن ثمة عمليات تختص بالطلب والترك، حتى يمكننا أن نفعل شيئاً ينطبق عليه مفهوم "القبلة"، مع أنه شيء مختلف عن التبيذ، لأنه على الرغم من أنه مشفر نحويًا على أنه اسم فهو عادة اسم لحدث وليس اسمًا لشيء. على أية حال إذا كان مما يمكن أن نتركه في كأس فمن

الجانز إن عند مستوى معين من التفسير أن نراه أيضًا شيئًا.

لم نخطُ حتى الآن إلا خطوة واحدة في تفسير هذه الجملة من حيث هي تمثيل لظاهرة يمكن إدراكها، لكننا عزلنا من هذه الجملة سمات معينة يمكن أن نعدَّ ممثلة لعالم الواقع كما هو مدرك في تجربتنا. ويمكن القول إنها تعبر عن المعنى التجريبي لتلك الجملة. ومن الواضح أنه سيكون علينا أن نضيف إلى ذلك مكونًا component آخر يأخذنا إلى عالم التمثيل التخيلي أو غير الصريح للتجربة. وتلك خطوة أخرى في التفسير تسمح لنا أن نوضح هذا للتصور الغريب في قول الشاعر: "تركي قبلة في الكأس".

من الممكن أن نعد هذا تعبيرًا استعاريًا موسعين المصطلح ليشمل أي عنصر من عناصر التمثيل فيه نقل، نقل من نوع ما، كذلك الذي تمثل هنا في النقل المزدوج لمعنى كلمة "قبلة"؛ لأن كلمة قبلة بوصفها اسمًا هي فعلاً كلمة استعارية من حيث إنها اسم لعملية أكثر من كونها اسمًا لشيء، تلك الخطوة الاستعارية الأولى هي خطوة مؤسسة داخلية في تكوين اللغة الإنجليزية. وهنا تأتي على كل حال الخطوة الثانية: استعمال خاص لكلمة قبلة يقتضى عودة - على مستوى أعلى - إلى تصور متمثل في حقيقة أن كلمة "قبلة" اسم؛ فالأسماء - نمطيًا - تنقل على مسميات (أشياء)، والأشياء يمكن أن تترك في أرجاء المكان، ومن ثم نستطيع أن نقول: "تركي قبلة في كأس". لقد تطلب منا هذا خطوتين لكي نصل إلى هذه النقطة، كل خطوة منهما تضمنت نوعًا من النقل الاستعاري.

إذا نحن تابعنا هذا الخط من الاستدلال، خطوة كل مرة، فسوف نكون قادرين على تكوين سلسلة من الإتركات الاستعارية تؤدي بنا إلى تفسير هذه الجملة بوصفها ممثلة لما يمكن أن نشعره على نحو أفضل استعارية وأكثر

مباشرة، كما في نحو: "هبلاتك أشهى من النبيذ". وبطريقة أكثر مباشرة ربما نستطيع أن نفرها فنقول: "احب أن أقبلك أكثر من حبس لشرب النبيذ". وحتى هذا بطبيعة الحال لا يضع نهاية للقصة؛ لأننا من ثم مضطرون إلى السعى وراء صيغ التعبير والأعراف الأدبية التي تقرر أن هذه الصياغة طريقة ملائمة لإبلاغ رسالة مخصوصة؛ لكن لكي نقوم بذلك لا بد أن نعدّل عن صيغة تجريبية للمعنى إلى أخرى، وننظر إلى الجملة نفسها من وجهة نظر أخرى مختلفة.

المعنى التبادلي Interpersonal Meaning:

انظر إلى الجدول رقم (٣)

الجدول رقم (٣)

التركيب التبادلي

لن أطلب نبيذاً			و	أو اتركي قبلة في الكأس	
أفعل هذا	طوعاً	(أنا)		أفعل ذلك	أنت
بقية	محدود	فاعل		بقية	فاعل
عرض: تعهد				طلب: رجاء	

في النصف الأول نميز شيئاً يدل على الرجاء: "أرجوك أن تفعلنى هذا". وهذا بأبسط المصطلحات الدلالية شكل من أشكال وظيفة الطلب في الخطاب العام. فإذا نظرنا الآن إلى النصف الثاني من الجملة فمسوف نميز المعنى: "إن أفعل ذلك" أو بعبارة أخرى "اتعهد بالأفعل ذلك"، وهذا شئ يمكن أن نشغره بأكثر الألفاظ شيوعاً مستخدمين كلمة العرض offer.

إننا ننظر هنا إلى ناحية من معنى الجملة جدّ مختلفة. إننا لا ننظر

إليها الآن من جهة ووظيفتها في تمثيل تجربتنا، بل ننظر إليها من جهة ووظيفتها في عملية التفاعل الاجتماعي، فهي لا تُفسَّر بأنها طريقة في التفكير، بل طريقة في الفعل؛ فالمعنى هو: "أرجوك أن تقطعي شيئاً، وأتعهد بألا أفعل شيئاً آخر" - من هنا شفر نوع آخر من المعنى في الجملة نفسها، نوع من المعنى سوف نطلق عليه "المعنى التبادلي"، فالجملة ليست تمثيلاً للواقع فحسب، بل هي أيضاً قطعة من التفاعل بين المتكلم والسامع، فعلى حين أن اللغة في معناها التجريبي وسيلة عاكسة، فهي في معناها التبادلي وسيلة فاعلة. إننا في الحقيقة نستطيع أن نستخدم هذين المصطلحين فنُتحدث عن اللغة بوصفها انعكاساً reflection، وعن اللغة بوصفها فعلاً acting، من حيث هي طريقة للدلالة على المعنيين التجريبي والتبادلي.

لاحظ أننا في التحليل النحوي نحتاج الآن إلى معرفة مجموعة متميزة أخرى من العناصر. وإن نقوم بالتحليل الآن بمصطلحي "المشاركين participants" والعمليات processes، وفكرة الفاعل (المسند إليه subject) وعناصر أخرى متصلة به لا تظهر هنا، ففي العبارة الثانية عندنا المسند إليه "أنا"، وفي العبارة الأولى عندنا المسند إليه "أنت".

(أنت اتركي قبلة في الكأس و (أنا) لن أطلب نبيذاً

المعنى المنطقي Logical Meaning :

إذا نحن جمعنا بين التفسيرين التجريبي والتبادلي أمكننا أن نضرب كل عبارة على حدة، لكننا لا نزال مضطرين إلى تفسير حرف العطف (الواو). وعبارة أخرى: هذان القسمان من الجملة بينهما علاقة على نحو ما، والأمر يبدو شكل العلاقة نوعاً من الربط co-ordination البسيط بين شئى وأخر:

(أنت) ترمي قبلة "و" (أنا) لن أطلب نببذًا، لو هو على نحو أكثر تحديدًا - رجاء، والآخر عرض offer فما معنى الربط بين رجاء وعرض؟ من الواضح أن هذا شيء يجب أن نعيد تفسيره على أنه شيء آخر غير الربط البسيط بين عناصر متماثلة، فعادة حين نربط (أ) و(ب) فإن (أ) و(ب) ينتميان إلى فئة واحدة. أما هنا فإن (أ) و(ب) لا ينتميان إلى فئة واحدة، إذ إن أحدهما طلب والآخر عرض، فما نتيجة الربط بينهما؟ النتيجة أننا نحتاج إلى إعادة تفسيرهما في ضوء علاقة أخرى لا نعبر عنها في الإنجليزية تعبيرًا إردافيًا paratactically كما هي الحال هنا، بل على نحو اتباعي hypotactically (إذًا). وعلى ذلك فالخطوة التالية التي نحن في حاجة إليها هي أن ندرك أنه ليس ثمة استعارة في المعنى التجريبي فحسب، بل ثمة استعارة أيضًا في المعنى التبادلي؛ لأن الشيء الذي شفر على أنه "التماس مع عرض" سوف يفسر في الحقيقة على أنه عرض مشروط بالموافقة على رجاء. ويمكننا أن نعبر عن هذا بقولنا: "إذا تركت قبلة في الكأس فإن أطلب نببذًا". وعلى ذلك فالمعنى التبادلي هو: إذا أنت (واقفت على) أن تتعلى هذا فلنا (أتعهد بـ) ألا أفعل ذلك.

لكننا لكي نخطو هذه الخطوة اضطررنا إلى أن نستجد بوظيفة ثالثة من وظائف اللغة، أو بجانب ثالث من ترتيب النظام الدلالي هو تعبيره عن العلاقات المنطقية الجوهرية، وهي ليست علاقات المنطق الصوري، بل هي تلك التي أخذت منها في النهاية علاقات المنطق الصوري. أما العلاقات المنطقية التي أنشئت في اللغات الطبيعية فهي العلاقات التي يعبر عنها في النحو بوصفها أشكالاً من الربط أو الإرداف parataxis والتفريع أو الإتياع بالأداة hypotaxis من ثم فالمكون الثالث في مثالنا، الذي ينبغي أن نعتمد به

لتوضيح هذه العلاقة بين الجزأين، هو العنصر المنطقي الذي يمثل معنًى:
"إذا... فـ".

إذا تركت قبلة في الكأس فن أطلب نبيذاً

لقد قمنا بعدد من الخطوات لتفسير هذا البيت في اتجاه إيضاح كيفية دلالاته على ما يفعل. إذا توقفتنا عند هذه النقطة، وعدنا فالتقطنا التفسير الذى ذكرناه من قبل وهو "قبلك أشهى من النبيذ"، وجعلناه الآن يتضمن فى المعنى المكون التبادلى للفعال فإننا نستطيع أن نجعله شخصياً، ونعيد تفسير البيت على نحو أقرب إلى المراد، فنقول: "قبلك عندى أثن من النبيذ" إننا عندئذ نستطيع أن نعد كلمة "قبلة" وكلمة "نبيذ" عمليتين فنقول: "أحب أن أقبلك أكثر مما أحب أن أشرب الخمر". وإعادة التفسير هذه تؤدي إلى الاستعارة النهائية حيث نحل الصياغة على تصريح بالحب".

ثمة فضلاً عن ذلك مثل آخر للعلاقة المنطقية فى البيت، تتمثل فى استخدام "أو" التى تربطه ربطاً إردافياً بما سبقه. ونحن على كل حال لم نمعن النظر بعد فى ليونة النصية الشاملة. إننا لم ننظر إلى هذا البيت من جهة خصائصه بوصفه خطاباً discourse فلكى نقوم بذلك نحتاج إلى سياق. من هنا علينا أن نبداً بما يجب أن نستوفيه فى البيت الأول الذى ورد فى القصيدة قبله، وهو:

أشربى نخبى بعينيك فصصب وسوف أعاهدك بعينى أنا
أو اتركى قبلة فى الكأس ولن أطلب نبيذاً

الآن نلاحظ عدداً من السمات الإضافية فى هذا النص:

١- النمط الخاص بـ (أنت) افعلى كذا و(أنا) سوف أفعل كذا تكرر فى الحقيقة فى الموضعين، أى: (أنا) أطلب منك أن تفعلنى ذلك و(أنا)

سوف "أفعل" هذا، فالمعنى هنا أيضًا على "إذا"، أي: "إذا أنت شربيت نخبي بعينك وسوف أعاهدك بعيني" وهو مماثل لـ "إذا أنت تركت قبلة في الكأس فإن أطلب عندئذ نبيذًا" فهنا نمط واحد: طلب متبوع بعرض، وهو في كلتا الحالتين عرض مشروط بالموافقة على طلب. هذا التكرار هو نفسه جانب من جوانب "النصية" texture.

٢- هناك الترتيب الموضوعي thematic لهذين البيتين، ففى كل منهما حددت الوظيفة الكلامية في صدر العبارة جعلها تمثل الموضوع. إنهما كالإعلان عند البدء "ما أوشك أن أقوله طلب" أو يكون ما يكون. هذه المطابقة بين الموضوع theme والصيغة الفعلية mood ليست غريبة على وجه العموم. إنها في الحقيقة للنموذج النمطي الذي يستخدم لكل عرض offer وطلب command حيث يبدأ المتكلم في الأغلب بالعنصر الذي يعلن عن الصيغة (وكونه نمطيًا لا يقلل من أهميته بالقياس إلى البنية النصية).

٣- ثمة مكون آخر في "النصية" يعتمد على الإيقاع rhythm والتنغيم intonation، وهو ما جعلنا نتبع من أجله طريقة خاصة في قراءة البيتين أود أن أوضحها على النحو الآتي: (الشرطة المائلة أو الشرطتان تكل أو تدلان على نهاية التفعيلة^(*)، والعلامة (∩) التي توضع تحت مستوى المسطر تكل على إيقاعه beat غير منبورة).

// ∩ or / leave a / kiss wi / thin the / cup //

∩ and / i'll not / ask for / wine //

(*) التفعيلة foot في الشعر الإنجليزي تتكون من مقطعين أحدهما منبور والآخر غير منبور (المترجم).

إذا أنت قبلت هذه القراءة فعندنا إذن ثلاث نقاط لعلو الإيقاع أو البروز prominence هي: قبلة، وكس، ونبيذ. هذه التصيدة بطبيعة الحال مألوفة عند أغلب الإنجليز من حيث هي أغنية، منذ أن لحنت، أكثر من كونها كلامًا يقال، لكنها إذا نطقت بطريقة طبيعية دون موسيقا فهذه إذن هي المواضع المحتملة التي يظهر فيها البروز.

هذا النوع من البروز سمة من سمات النظام الفونولوجي في الإنجليزية الحديثة الذي تقسم فيه أية قطعة من خطاب منطوق إلى تتابع من مجموعات نغمية أو وحدات منغمة، لكل منها حد نغمي فاصل (قد بينته الشرحتان المائلتان (/ /) في المثال السابق). وليست المجموعة النغمية مجرد وحدة صوتية، وإنما تعبير عن "وحدة معنى"، عن كتلة واحدة من المعلومات في مجمل الرسالة. وفي كل وحدة معلومات نقطة بروز هي نواة النغم (وقد أظهرت هنا بكتابتها بالخط البارز)، والبروز أيضًا سمة فونولوجية. إنه القطعة التي تحمل أكبر قدر من الحركة المنغمة، لكنه مرة أخرى يعبر عن بروز في المعنى. إنه يشير إلى بؤرة المعلومات في الوحدة، هذه البؤرة تكل على ذروة المعلومات للطائفة (سواء أكانت جديدة أم تقابلية) من ثم فالنمطان كلاهما - التقسيم إلى وحدات من المعلومات، وتحديد موقع البؤرة في كل منها - يكونان معًا عنصرًا جوهريًا في "تصية" اللغة المنطوقة.

٤- للنص في الحقيقة بيت من الشعر، ولذا فإن له إيقاعًا نموذجيًا بسبب انتمائه إلى نوع أدبي مخصوص. بعبارة أخرى إن له بحرًا حددته صيغة شعرية مخصوصة جاء مثالاً لها، وهي هنا البنية العروضية المرتبة في شكل تقليدي:

/ or leave / a kiss / within / the cup /

And I'll / not ask / for wine / ٧ /

باستثناء أنه في علم العروض التقليدي قد يقال إن فسي البيت مسجع
تفعيلات على حين أن فيه في الواقع ثمانى تفعيلات؛ لأن ثمة تفعيلة
صامتة في النهاية. فهو بيت ذو ثمانى تفعيلات، يتكون كل منها من
مقطعين: قصير وطويل (إياميك). وهذا النمط العروضى سمة أخرى
من سمات البنية النصية. والإيقاع الحقيقى للبيت نتاج للتوتر الحاصل
بين بنيته العروضية وإيقاعه الطبيعى الذى يكون له فى حوار
بالإنجليزية المنطوقة.

إننا نستطيع إذا أردنا، أن نمضى إلى مرحلة أبعد، فنحلل البيت
بمصطلحات تتصل بتنظيمه حين ينطق بصوت عالٍ. ومرة أخرى سوف
يكون هناك التوتر الحاصل بين الفواصل للنغمة فى الخطاب الطبيعى،
والخواص التنظيمية للحن الموسيقى.

كل هذه السمات - التوازن الدلالى والنحوى بين البيتين، والبنية
الموضوعية، والإيقاع، والبؤرة الإخبارية، ثم البنية العروضية - تمثل جوانب
مختلفة من نصية البيت. إننا نشير إلى كل هذا على أنه معناه النصى،
والمعنى النصى هو الذى يجعل من البيت نصاً يميزه عن نمط الصياغة
المصطنعة أو المتحجرة.

خلاصة القول أننا ميزنا الآن أربعة جوانب مختلفة لمعنى البيت هى
فى الحقيقة المكونات الأربعة فى علم دلالة لية لغة. ولكى نكون قائلين على
استخدام هذه المفاهيم فإننا فى حاجة إلى أن نكون قائلين على أن نتحدث عنها،
وقائلين على أن نعطيها أسماءها. وسوف نشير إليها على النحو الآتى:

experiential	المعنى التجريبي
interpersonal	المعنى التبادلي
logical	المعنى المنطقي
textual	المعنى النصي

إن خيوط المعنى هذه كلها متداخلة النسيج في تركيب الخطاب. إننا لا نستطيع أن ننتقى كلمة مفردة أو عبارة ونقول: إن لهذه معنى تجريبيًا فحسب، أو إن لتلك معنى تبادليًا فقط. ما كان علينا أن نقوم به في تحليل نصنا هو أن نعود كل حين إلى الجملة كلها، ونفحصها مرة أخرى من وجهة نظر جديدة.

وهذه نقطة مهمة ينبغي الالتفات إليها؛ لأن ثمة قدرًا من سوء الفهم لمفهوم وظائف اللغة، فكثيرًا ما يفترض أن لكل جملة وظيفة واحدة فحسب، فذلك يقتضى أن يكون من الممكن أن نشير إلى كل جزء منفصل من الجملة ونقول: هذا الجزء من الجملة له هذه الوظيفة، وذلك الجزء له تلك الوظيفة، والجزء الآخر له وظيفة أخرى، لكن الحياة على وجه العموم ليست كذلك، ومن المؤكد أن اللغة ليست كذلك، فكل جملة في أي نص متعددة الوظائف، لكن ليس بتلك الطريقة التي تجعلك تشير إلى مكون معين أو قطعة معينة ثم تقول: هذه القطعة ليس لها إلا هذه الوظيفة. إن المعاني تتسع معًا في نسيج كثيف بطريقة - لكي نفهما - ينبغي ألا ننظر إلى أجزائها المختلفة نظرة منفصلة، بل الأخرى أن ننظر إلى الشيء كله، على نحو مترامن، من عدد من الزوايا المختلفة. وكل جهة من جهات النظر تسهم في التفسير الكلي. وتلك هي الطبيعة الأساسية للاتجاه الوظيفي.

العلاقة بين النص ومقامه:

قبل أن نفرغ من هذا البيت دعنا الآن ننظر إليه من وجهة نظر

وظيفة الشيء كله فى سياق أوسع متبنين وجهة النظر التى نالتشناها فى
الفصل الأول حين تكلمنا عن العلاقة بين النص والمقام context of situation
فقد نكون قادرين على قول بعض الأشياء عن هذا البيت، ومن ثم عن
القصيدة كلها ضمناً، وذلك بالمصطلحات الأتية: المجال field ونوع المشاركة
tenor والصيغة mode. فما الذى يمكن أن نقوله تحت تلك العناوين؟

أما فيما يتعلق بمجال الخطاب - وهو الفكرة العامة التى يدور الكلام
حولها - فإننا نستطيع أن نقول بوضوح إنه "قصيدة حب" بأشد الألفاظ
عموماً، فإن مجال الخطاب هو "الحب"، لكنه حب معبر عنه تعبيراً استعارياً
بإستخدام مفاهيم الشراب والنخب.

أما عنواننا الثانى وهو نوع المشاركة فيركز على العلاقات الشخصية
القائمة: من هما المشاركان فى هذا النص؟ بوضوح، وبأشد الألفاظ عموماً:
هما رجل وامرأة، وبالتحديد أكثر هما حبيب وحبيبة. وينبغى أن نضيف، على
أية حال، أن ثمة عنصراً فرعياً هنا هو أن هذه قصيدة، وذلك يعنى أنها نص
عام، ولا نعرف على وجه التحديد فى أية مرحلة من مراحل وجودها
أصبحت نصاً عاماً. لقد كان هذا على أية حال نوعاً معترفاً به وشائعاً فى
بداية القرن السابع عشر. ومن جهة أخرى قد يكون فى المقام الأول قصيدة
حب كتبها شاعر لحبيبهته قبل أن ترى النور، بوصفها نصاً عاماً. أياً ما كان
الأمر، لقد كان فى هذا النص نوع ثانوى من المشاركة يتعلق بشاعر بوجه
الخطاب إلى معاصريه.

وأما الثالث الذى يتعلق بصيغة الخطاب فينبغى القول بأنه الجزء
الخاص الذى تقوم فيه اللغة بدور فى العملية التفاعلية. فى المثال الأول
عاملناه على أنه نص منطوق، وهو أيضاً بطبيعة الحال وثيقة مكتوبة. ولهذا

دعنا نقل إبه منطوق/ مكتوب. ويمكننا أن نحدده على نحو أكثر تفصيلاً بأنه قد يكون كتب ليلقى بصوت عال، لكن علينا أيضاً أن نقول إبه منغم، تمييزاً له عما هو تلقائي. إبه تعبير من نوع لئبى معترف به، يتطلب صديقاً من التعبير، منقنة إلى حد كبير، ومنغلقة على ذاتها إلى حد ما، ويشار إليها غالباً على أنها تصور غريب، أو "استعارات تخيلية" بعضها (وليس كلها) يندفها بخروجه عن المؤلف. وهذا بدوره نتاج مرحلة مخصوصة فى التاريخ الاجتماعى/ الثقافى لإنجلترا فيما بعد العصر الإليزابيثى.

ما الذى يمكننا أن نقوله عن العلاقة بين هذه العنوانات: المجال، ونوع المشاركة، والصيغة، وعن السمات اللغوية الخاصة الموجودة فى القصيدة ؟

يمكننا أن نرى أن المجال - وهو فى الواقع قصيدة حب مع تصور للحب قد تحقق استعارياً على هذا النحو - قد انعكس ببساطة شديدة على المفردات، وعلى تحديد العمليات processes، والمشاركين participants. إبه منعكس فى استعمال الكلمات "شربى"، "شربى وأعاهد" و"كأس"، و"تبيذ"، و"عينى"، و"قبة" وهى تتضمن عنصرين أساسيين: عنصر "الشرب" المتمثل فى الكلمات "شربى، شربى وأعاهد، كأس" من جهة، ومن جهة أخرى "موتيف" الحب المتمثل على وجه الخصوص فى "العنين" و"القبة". وثمة بطبيعة الحال تفاعل معقد بين هذين العنصرين يتمثل فى فكرة الكأس التى مستها الشفتان بما يشبه القبة، وفى العينين اللتين تلتقيان عبر الكأس كما فى الحب.

لكن مجال الخطاب لم ينعكس على المفردات فحسب، بل كان متضمناً أيضاً فى تعدية التركيب فى النحو: فى العمليتين الفعليتين: "أعاهد"، و"أطلب". وفى العمليتين "شربى" و"القبة"، لكن ليس - كما نلاحظ - "شرب" + "تبيذ"

أو 'يقبل' + 'شخصاً'، فهذه أفعال غير متعدية في القصيدة، فليس هناك مفعول به لـ 'يشرب' أو 'يقبل'.

والآن إذا نظرنا إلى هذا النمط بمزيد إمعان أمكننا أن نرى السمات المقامية التي أدخلناها تحت مجال الخطاب قد انعكست انعكاساً كبيراً على واحدة فقط من صيغ المعنى في القصيدة، هي تلك التي أشرنا إليها بالصيغة التجريبية. وعلى هذا هناك نوع من العلاقات النظامية بين الاثنتين يمكننا أن نعبر عنه على النحو الآتي: يعبر عن المجال من خلال الوظيفة التجريبية في علم الدلالة.

ثانياً: إذا نحن تأملنا نوع المشاركة في الخطاب الذي له صلة بعلاقة رجل بامرأة، حبيب وحببية على وجه التحديد، وعلاقة الشاعر بمعاصريه، فكيف كان التعبير عن هذه الناحية من المقام؟ كان من خلال اختيار الشخص بالمعنى النحوي: 'أنا' و'أنت' وكان هذان هما المسند إليهما في هذين البيتين، ومن جهة أخرى كان من خلال اختيار الوظيفة الكلامية 'الطلب' (الرجاء تحديداً) والعرض (التعهد تحديداً). فالطلب قد تحقق نحويًا من حيث هو جملة أمرية: 'شربي نخبي بعينيك فحصب'، 'اتركي قبلة فسي الكأس' وتحقق العرض نحويًا من حيث هو جملة خبرية المسند إليه فيها 'أنا' فضلاً عن أداة الاستقبال 'سوف' 'وسوف أعاهدك بعيني أنا، ولن أطلب نبياً'.

إن هذا يمثل نوع المشاركة، أي العلاقات الشخصية اللازمة بتفسيرها في استعارة بارعة محكمة الصياغة مثل: افعلني هذا، وسوف أفعل ذلك، وهذا بدوره يعد تمثيلاً للعلاقة العرفية التي تظهر دائماً في هذا النوع الأدبي، عرف الحبيبية المتمنعة التي ينبغي أن تحصل على الموافقة والانتفاع. وكما أننا كنا قادرين على أن نقف على سمات معجمية - نحوية lexico-grammatical

معينة، بوصفها عاكسة للمجال خاصة، أى تلك التى حددناها بوصفها حاملة
المعنى التجريبي، فإننا نستطيع كذلك أن نقف على سمات معجمية - نحوية
أخرى بوصفها عاكسة لنوع المشاركة على وجه الخصوص، أى تلك التى
حددناها بوصفها حاملة للمعنى التبادلية. بعبارة أخرى: يعبر عن نوع
المشاركة من خلال الوظيفة التبادلية فى علم الدلالة.

وأخيراً حين نأتى إلى صيغة الخطاب فى الشعر الغنائى فى نوع أدبى
مرتبط بالشعراء المبتليين، فإن ذلك الارتباط يحدد - بالإضافة إلى النمط
العروضى - الموضوع الذى يختار الشاعر الكتابة فيه. إنها سمات عامة فى
الشعر الغنائى أن يوجه موضوعه على نحو قوى إلى شخص، حتى يكون
الشاعر والمخاطب هما الموضوع: فـ "أنا" و"أنت" يأتين أولاً. فضلاً عن
ذلك فالتصيدة بوضوح، نص مكتفٍ بذاته، وقد العكس هذا فى قوة النصية
الداخلية، فى التوازن الذى لاحظناه بين العبارتين الأوليين. وكل هذه السمات
مجتمعة تدل على الصيغة. مرة أخرى لهذا يمكننا أن نسجل ملاحظة عامة
هى أن الصيغة تنعكس نمطياً فى السمات المعجمية للنحوية التى كنا قلنا
على تحديدها بوصفها حاملة للمعنى النصية:

يعبر عن الصيغة من خلال الوظيفة النصية فى علم الدلالة

تلخيصاً لهذه الفقرات القليلة الأخيرة يمكننا أن نصوغ للعلاقة بين
المقام والنص على النحو المذكور فى الجدول رقم (٤):

الجدول رقم (٤)

علاقة النص بالمقام (= سياق الحال)

النص	يتحقق بـ	المقام سمات السياق
المكون الوظيفي في النظام الدلالي		مجال الخطاب ما يدور حوله
المعاني التجريبية التعدية، التسمية... إلخ		نوع المشاركة في الخطاب من يشترك في الحديث
المعاني التبادلية الصيغة، الصيغة، الشخص... إلخ		صيغة الخطاب الدور المخصص للغة
المعاني النصية الموضوع - المعلومات - علاقات متناسكة		

الوظائف والمعاني في النص:

نوع النمط الذي وجدناه في بيت الشعر السابق - حيث استطعنا على نحو منظم أن نربط عناصر المقام بمكونات المعنى في النص - ليس شيئاً مصنوعاً لهذا النص المخصوص، بل هو في الحقيقة سمة عامة في كل النصوص، دعنا ننظر مرة أخرى في مقتطف من حديث إذاعي قمته أسقف وولويتش^(*) من حيث هو مثال لنص من نوع مختلف جدّاً الاختلاف عن

(*) ذكر هالداي هذا المقتطف في الفصل الأول من الكتاب ص ١٣ - ١٤. ولم نجد ذكره هنا، وسوف أوردته مترجماً ليستطيع القارئ متابعة المناقشة:
(من حديث إذاعي لأسقف وولويتش:

.... لذلك ينبغي أن يأخذ المسيحي الإلحاد مأخذ الجد لا لكي يكون قادراً على الرد عليه فحسب، بل لأنه هو نفسه ينبغي أن يظل مؤمناً في منتصف القرن العشرين.. أخذين ذلك في الحسبان فإني أسألك أن تتعرض لمطاعن الإلحاد الثلاثة الجديدة، فهي ليست مجرد ثلاثة أمثلة من الإلحاد كل منها موجود بدرجات متفاوتة في أي نمط يمثلها، بل هي ثلاثة بواعث دفعت للناس أن يتساءلوا أو يشكوا في الإله الذي نشأوا ونشأنا في ظله، وهي متمثلة في عبارات ثلاث موجزة:

النص السابق. وقد كان هذا الحديث مناقشة عن طبيعة العقيدة المسيحية، ونباعاً عن العقيدة في مواجهة إلحاد القرن العشرين. وقد حددنا مجاله، ونوع المشاركة فيه، وصيغته على النحو الآتي:

المجال: المحافظة على نظام من العقائد تقوم عليه مؤسسة دينية، الديانة المسيحية، موقف الأعضاء منها، نصف اصطلاحى.

طبيعة المشاركة: ساطلة (بكلا معنييها: أى شخص بيده سلطة، وشخص متخصص بوجه خطابه إلى الجمهور)، جمهور غير مرئى وغير معروف (كجمهور القراء) لكن العلاقة نظامية (من قس إلى جمهور).

الصيغة: مكتوب ليقرأ بصوت عالٍ، فعل عام (وسيلة الإعلام: الراديو) حديث من طرف واحد (مونولوج). نص هو كل النشاط المتعلق بالموضوع، مقتنع، مع استخدام الاستدلال المنطقى.

ولننظر ما فى هذا النص الذى يكشف عن السمات المتعددة لسياقه:

فيما يتصل بالمجال عندنا مرة أخرى بوضوح شديد المفردات - كلمات وظيقتها أنها أسماء، فئمة وحدات معجمية تعبر عن معنى المسيحية، والمحافظة على المعتقدات، وهى لا تقتصر على لفظتى "إله" و"مسيحى"، بل تشمل أيضاً "الإلحاد" و"المؤمن"، وتعبيرات من نحو "البواعث التى تدفع المرء إلى الشرك" وفيه أيضاً كلمات تستخدم فى الهجوم، ومقاومة الهجوم، الاستعارة العسكرية فى المقدمة، كما كانت دائماً فى الكتابات المسيحية، حيث

" - الإله عقلاً غير ضرورى.
- الإله عاطفة يمكن الاستغناء عنه.
- الإله أخلاقاً لا يطاق).

ينبغي أن يكون مفهوم المسيحي المحصن في المقدمة. وثمة أيضًا كلمة 'مطاعن'. فإذا أضفنا إلى الجملتين التاليتين المقتطف التالي، سوف نجد كلمة 'دفاع' و'تقدم' و'استلام'.

لكن مرة أخرى ينبغي ألا يعني هذا ضمناً أن المفردات هي التي حملت المعنى التجريبي منفردة، فالكلمات في وظيفتها بوصفها أسماء هي حقاً جالب من أنماط التعدية في النحو، ولماط العملية التي تحدثنا عنها، وهي تلك التي تحمل حقاً المعنى التجريبي. في هذا النص، كما هو المتوقع من النظر إلى مجال الخطاب، نجد بصفة أساسية نوعين من العمليات:

١- من ناحية هناك العمليات العقلية mental التي تعكس ما يمثل قطعة من الخطاب ذات ارتباط وثيق بالفكر، عمليات يعبر عنها بالكلمات مثل: 'أخذه مأخذ الجد'، 'أجاب'، 'يتعرض لـ'، 'ثلك'، 'تهرير'. وأهمية هذه ليست في الكلمات المخصوصة بقدر ما تتمثل في حقيقة أنها جميعاً تعبيرات لنوع واحد من العمليات في اللغة، ذلك النمط من العمليات العقلية الذي يمكن ضمناً أن نعبر عنه تعبيراً لفظياً. إنها أفكار يمكن أن تقال بصوت عالٍ. إن هذه هي وظيفتها في النظام الدلالي في الإنجليزية الذي هو محور اهتمامنا هنا.

٢- النوع الثاني من العمليات الموجودة في هذا النص، مرة أخرى كما هو متوقع، هو العملية العقلانية، حيث يتركز النقاش حول مشكلات الوجود والمرجعية. وهذه يعبر عنها من خلال عمليات علاقية بأفعال من نحو: 'يمثل'، 'يكون'... وهكذا، فجال الخطاب ملحوظ بوضوح في أنماط التعدية التي هي التعبيرات اللغوية الأولية عن الوظيفة التجريبية.

وطبيعة المشاركة، كما رأينا، هي التي تصدر من القس إلى الجمهور، وقد انعكس هذا منطقيًا في السلسلة: أطلب منك (أن تفعل شيئًا) ثم دعنا (نفعل شيئًا معًا) بعبارة أخرى يكون التفاعل بعبارة هأنذا القس وهأنتم أولاء الجمهور، وأنا أدعوكم إلى فعل شيء، ولكنني أريدكم أن تنظروا إلى هذا على أنه شيء نشترك فيه معًا، فدعونا... (تأمل هذه عودة على بدء). وقد استمرت الفكرة المتكررة (الموتيف) نفسها في المقطوعات التالية حيث يشير المتكلم إلى "تشتنهم" و"تشتنتنا"، و(نا) هنا تعنى المخاطبين والمتكلم، و(نحن) التي يرد بها الشمول مقصودة هنا.

ثم هناك صيغة الفعل، وهي التعبير عن وظيفة الكلام في النحو التي تعرض منطقيًا شائعًا، فالأسقف يتكلم بوصفه سلطة، وهي - كما نُشرت - سلطة فعلاً بالمعنيين اللذين يدل عليهما اللفظ، فهو متخصص، أي أنه سلطة أكاديمية بوصفه عالم لاهوت، وهو أيضًا راعي أبرشية، أي سلطة كنسية، وقد شفر دوره بوصفه متخصصًا في عبارات إخبارية، حيث يكون المعنى: 'هذه هي الكيفية التي تكون عليها الأشياء'، وهذا هو التفسير، وشفر دوره بوصفه راعيًا في عبارات أمرية حيث يكون المعنى: هذا ما ينبغي عليكم (على) فعله. وأمره غير مباشرة من أنواع مختلفة (مثلًا: على المسيحي أن يأخذ الإلهاد مأخذ الجد)، وعلى هذا فالتأثير العام مضاعف. هذا هو المقام: أنا أحدك حديث التخصص: هذا ينبغي أن يفعل، كما أحدك بوصفي راعي أبرشية. ثم مرة أخرى نوع المشاركة أي العلاقة بين المتكلم وجمهوره منعكسة في الأنماط النحوية التي تعبر عما نسميه المعاني التبادلية.

وأخيرًا الصيغة فهي خاصة بنص مكتوب ليلقى بصوت عالٍ، لكنه مكتوب بحرص شديد. إنه بسيط نحويًا إلى أقصى حد، ومكثف معجميًا إلى

أقصى حد. والجمع بينهما سمة من سمات اللغة الرسمية المكتوبة، إنه على النقيض من اللغة التخاطبية المتكلمة التي تميل إلى أن تكون معقدة.

لقد ميزت هذا النص تراكيب نحوية بسيطة، مع قدر ضخم من العادة المعجمية الممزوجة بها. هذا النص أيضًا استدلال منطقي، وهو بذلك يتتبع من خلال روابط مثل "لهذا"، "أخذين في الحسبان"، "بدوره"، "أولاً"، "التالي" وهلم جرا. إنه مصوغ صياغة نصية عالية، لكن، بصفة أساسية، من خلال نوع من التماسك خالص به.

حيث تكون إحالة إلى سابق، كما هي الحال دائمًا في أية مادة نصية، يحال دائمًا إلى نص. بعبارة أخرى حين تستخدم كلمات مثل: "هذه"، "هي"، "هم" فهي لا تحيل إلى أنس أو إلى أشياء، لكن إلى قطعة من الاستدلال السابق. وتلك خصيصة للخطاب المنطقي الاستدلالي الدقيق. مرة أخرى الصيغة، وهي الجزء الخاص الذي تقوم فيه اللغة بدور في الحدث الكلي - طبيعة الوسيلة والوظيفة الخطابية - منعكسة فيما أسميناه المعاني النصية شاملة الأنماط المتماسكة.

أعتقد أن هذا ذكرناه بأبسط الألفاظ هو الطريقة التي يقوم بها المتكلمون بتنبؤات عن المعاني التي ينبغي أن تتبادل، وقد كانت هذه هي النقطة التي بدأت منها في الفصل الأول. تخيل أنك دخلت، كما نفعل كثيرًا في الحياة الواقعية، إلى موقف كلامي كان قد بدأ فعلاً، لا يهم أي موقف يكون؛ فقد يكون جماعة من الناس يشتركون في أي نوع من النشاط، وقد دخلت أنت فردًا على الجماعة. إنك سوف تكون قادرًا بسرعة شديدة على أن تشترك معهم في الحوار المتبادل. كيف تفعل ذلك؟ إنك تفعله فيما أرى بيناتك في ذهنك نموذجًا للمقام: وأنت تفعل ذلك بالطريقة الآتية: إنك تحدد له "مجالاً"

بملاحظة ما يجرى، ثم تحدد نوع المشاركة بالوقوف على العلاقات الشخصية للقائمة، وتحدد للصيغة بملاحظة ما يمكن تحقيقه باللغة. إنك تقوم بتنبؤات عن أنواع المعاني التي من المتوقع أن تكون محور الاهتمام في هذا الموقف الكلامي الخالص. فأنت تكفي وذهنك متيقظ، ومعك بعض جوانب لغتك معدة من قبل لتستخدم في الحديث المتبادل. شيء مثل هذا فيما أعتقد هو الذي يحدث، وإلا فمن المستحيل أن نفسر كيف يمكننا في الحياة الواقعية أن نشترك بهذه السرعة في موقف ما لم نكن نعلم عنه من قبل شيئاً.

**الاتجاه التواصلي
في تعليم العربية
لغير الناطقين بها**

لا خلاف في أن اللغة أهم أنظمة التواصل بين البشر، وأكملها، وأثملها، وأوسعها انتشاراً، وأكثرها مرونة وانتظاماً، وأقربها على تخطي حواجز الزمان والمكان. بها تقضى الحاجات، وتتحقق المطالب، وتتلافى المشكلات، وتحلّ المعضلات، وتنقل المعلومات، وتتبادل الخبرات، وتحصل العلوم والمعارف، وتنمو الثقافات، وتزداد الخبرات بالحياة والناس، ويعبر عن المشاعر في الرضا والغضب، والسعادة والتعاسة، وبها تؤثر في غيرنا وتتأثر بهم، وهي مستودع تراث الأمة ثقافة وحضارة، ومخزن تجربتها مع العالم ومع غيرها من الأمم. من ثم تتأصت الأمم في التمكن للغة، ونشرها خارج حدود وطنها لاستعماراً للأذهان قبل الأوطان.

وإذا كان لكل أمة لغتها فإنها لا تستطيع أن تعيش بمعزل عن أصحاب اللغات الأخرى سعياً إلى تحقيق المصالح المشتركة، ودرءاً للضرر والاعتداء، وتنمية للموارد، وفهماً للأخر، ونقلاً للخبرات والمعارف والثقافات، وما يجد به العصر من مستحدثات. من ثم كانت الحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية وتعلمها.

وقد تعددت الاتجاهات في تعليم اللغات وتعلمها وكان من أهمها ما يأتي:

١- اتجاه تقليدي لا يحفل إلا باللغة المكتوبة، ويتخذ من نماذج القواعد النحوية التي وضعت في الأصل للغات أخرى نموذجاً يحتذى، فلا يكاد الدارس يخرج منه إلا بقدره منقوصة على فهم بعض النصوص وترجمتها بالاستعانة بالمعجمات وكتب النحو والصرف، من دون قدرة على استعمال اللغة في تجلياتها الحية حديثاً واستماعاً.

٢- اتجاه بنوي سلوكي عنى بظاهر اللغة ونظامها التركيبي، فجعل اللغة المنطوقة كغيره، وندم وصفاً علمياً دقيقاً لبنية اللغة معتمداً على معايير لغوية مستنبطة من اللغة ذاتها كما يستخدمها أصحابها بعيداً عن الأنماط المعيارية التي تفرض على اللغة من خارجها، مع التسليم بما بين اللغات من فروق ومالها من خصائص. وقد انتقل هذا التصور إلى تعليم اللغات الأجنبية فيما عرف بالطريقة السمعية الشفوية، أو السمعية/البصرية الشفوية التي ظلت مهيمنة على تعليم اللغات الأجنبية في معظم بلدان العالم لأكثر من أربعين عاماً. وكان أهم ما عنيت به حصر النماذج التركيبية وتكرار التدريب عليها ومحاكاة نظامها الصوتي وطرائق التركيب فيها لتكوين عادات لغوية ثابتة أشبه ما تكون بالعادات اللغوية التي يكتسب بها لطفل لغة أهله. على أن التطبيق العملي كشف عما في هذه الطريقة من عيوب أهمها الإقراط في التدريب الألي على الجمل والعبارات من دون اهتمام بالمواقف الاجتماعية والثقافية التي تستخدم فيها، والعجز عن تنمية المهارات الإبداعية لدى الطلاب، والعناية باللغة المنطوقة على حساب اللغة المكتوبة. وقد استطاع تشومسكي أن يدلل على أن من المستحيل أن يكتسب الناس اللغة بالتكرار والتعزيز، وقال إن الأطفال لا يتعلمون اللغة بهذه الطريقة، فهم لا يكررون ما يقوله الكبار لكنهم يبدعون جملهم الخاصة والعبارات التي لم يسمعوها من قبل، وهم يقعون في أخطاء منتظمة ولا يجدى معهم تصويب الأخطاء ولا ما يقال أمامهم من كلام صحيح حتى يتخلصوا هم بأنفسهم منها، وهم لا يتعلمون نحو اللغة بل يستنبطون لأنفسهم القواعد التي يجرى عليها الاستعمال.

٣- اتجاه تواصلى يعنى بتنمية القدرة التواصلية للطلاب من خلال تعلم اللغة فى إطارها الاجتماعى والثقافى، والاهتمام بتعليم اللغة لتحقيق التواصل المباشر حديثاً ولستماعاً والتواصل غير المباشر قراءة وكتابة، من خلال مواد تعليمية أصيلة مؤسمة على استعمال اللغة فى مواقف اجتماعية وثقافية حية تنجز من خلالها وظائف عملية فى واقع الحياة بعد تحليل لحاجات الدارسين والوقوف على أهدافهم من تعلم اللغة.

وهذا الاتجاه هو الذى نخصه بحديث مفصل فى هذا البحث محددين مفهومه ونشأته وتطوره ومنطلقاته المنهجية وغاياته وأهدافه، ثم نرصد محاولات تطبيقه على تعلم اللغة العربية لغير الناطقين بها وما واجهها من تحديات، ثم نرى رأياً فى أيها أولى بالقبول.

أولاً: يقوم الاتجاه التواصلى على أن اللغة وسيلة تواصل بين البشر وليست مجرد ألفاظ وتركيب مقطوعة من سياقاتها، وهذا للتواصل يقتضى مرسلًا ومستقبلًا ورسالة يراد إيلاؤها وقناة تحمل هذه الرسالة، وهى هنا قناة لغوية، فى إطار موقف تواصلى لإنجاز وظيفة بعينها أو جملة من الوظائف.

ثانياً: نشأ الاتجاه التواصلى من أعمال اللغوى الأثنروبولوجى ديل هايمز ١٩٧٢ وللغويين الفيرثيين الجند مثل هاليداي الذين درسوا اللغة بوصفها نظامًا تواصلياً فى محيط اجتماعى. وكان ديل هايمز قد تصدى لنظرية تشومسكى مبيناً قصورها، لأنها تعزل اللغة عن محيطها الاجتماعى وتوجه اهتمامها إلى النظام اللغوى المخبوء داخل الذهن البشرى الذى يسمى القدرة اللغوية competence، دون الأداء performance ومن ثم لم يستطع تشومسكى أن يأتى بشيء يذكر فى تعلم اللغات. وقد رأى هايمز أن هذه القدرة اللغوية التى يولد بها عدد لا يحصى من الجمل الصحيحة ينبغى أن

تكون جزءاً من القدرة التواصلية communicative competence التي تتجاوز القدرة اللغوية إلى الأعراف الاجتماعية التي تحكم استعمال اللغة في مواقف اجتماعية.

هذه القدرة التواصلية هي لغاية المبتغاة من تعلم اللغة، إذ اكتسابها يعنى القدرة على استعمال اللغة استعمالاً صحيحاً على نحو ملائم للموقف الذي تستخدم فيه لإنتاج الغايات أو الأهداف الاتصالية. وهي تتألف من أربعة مكونات أساسية:

أولها: المكون النحوي grammatical، ويتمثل في القدرة على التزام قواعد النحو والصرف والمفردات في اللغة الهدف، وهو يقوم على الإجابة عن أسئلة يمكن أن يلقها الدارس على نفسه من نحو: أى كلمات أختار؟ كيف أضعها في عبارات وجمل؟

ثانيها: المكون اللغوي الاجتماعي sociolinguistic، ويتمثل في القدرة على استخدام اللغة على نحو ملائم للموقف الاجتماعي، والاستجابة للغوية الملائمة لما يقال، ويدخل فيها كيفية لختيار موضوع الحديث والمشاركة فيه والانتهاه منه. وهو يقوم على أسئلة يمكن أن يلقها الدارس على نفسه من نحو: أى العبارات والجمل تناسب هذا الموقف؟ كيف أعبر عما أريد من دون أن أصدم السامع بمخالفة الأعراف الاجتماعية والقيم الخلقية والدينية السائدة في هذا المجتمع؟

ثالثها: المكون الخطابى discourse، ويتمثل في القدرة على الربط بين الجمل ربطاً نحوياً ودلالياً ومنطقياً بحيث يؤدي إلى تماسك الخطاب سبكاً وحبكاً. وإذا كانت القدرة اللغوية تعنى بالجملة ومكوناتها فإن الخطاب يعنى

بما بين الجمل من روابط وعلاقات. وهو يقوم على أسئلة من نحو: كيف أعبّر عن فكرة تامة بكلام متصل متماسك مفهوم؟ ما هي الوسائل النحوية والدلالية التي تجعل الكلام مترابطاً مرتباً ترتيباً منطقيّاً؟

رابعاً: المكون الاستراتيجي strategic: ويتمثل في القدرة على تعويض النقص الذي ينشأ من متغيرات الأداء، وملء فجوات المعرفة الناقصة بالاستخدام اللغوي، فيحرص الدارس على ألا يصل إلى مرحلة انهيار الاتصال، وذلك من خلال شرح العبارات أو الدوران حول المعنى، أو التكرار أو التردد أو التخمين أو تغيير الأسلوب... وهو يقوم على أسئلة يمكن أن يلقبها الدارس على نفسه من نحو: كيف أعرف أن كلامي غير مفهوم؟ وماذا أقول عندئذ؟! وكيف أعبّر عن فكري إذا لم أتذكر الكلمة المناسبة أو العبارة الدقيقة، أو اختلط على الأمر؟

ثالثاً: تعلم اللغة لا يعني العلم بنظامها اللغوي، بل بتحقيق وظائفها التواصلية، إذ إن النظام اللغوي لا يعني للمتعلم شيئاً إذا لم يستطع استخدامه في التواصل مع أبناء اللغة. وقد استطاع هاليداي أن يحصر وظائف اللغة في سبع وظائف أساسية هي:

١- الوظيفة النفعية أو الوظيفية instrumental function: وتتمثل في استخدام اللغة وسيلة لطلب الأثنياء المادية التي نريدها كالطعام والشراب ونحوه، ويلخصها هاليداي في عبارة "أنا أريد I want".

٢- الوظيفة التوجيهية Regulatory Function: ويتمثل في استخدام اللغة للتحكم في سلوك الآخرين وتصرفاتهم كتوجيه الأوامر والنواهي وأنواع النصح والإرشاد. ويلخصها هاليداي في عبارة: "نفذ ما أطلبه منك Do as I tell you".

٣- الوظيفة التفاعلية **Interactional Function**: وتتمثل في استخدام اللغة للتفاعل مع الآخرين أو التواصل معهم لتبادل الخبرات والأفكار والمشاعر وتقوية الروابط الاجتماعية. ويلخصها هاليداي في عبارة "أنا وأنت وme and you".

٤- الوظيفة الشخصية **Personal Function**: وتتمثل في استخدام اللغة للتعبير عن الذات، ويلخصها هاليداي في عبارة "إني قادم here I come".

٥- الوظيفة الاستكشافية **Heuristic Function**: وتتمثل في استخدام اللغة لاستكشاف الحقائق والأشياء من خلال الاستعلام عنها. ويلخصها هاليداي في عبارة "قل لي لماذا tell me why".

٦- الوظيفة التخيلية **Imaginative Function**: وتتمثل في استخدام اللغة في تخيل عالم خاص من إبداع المرء وإن لم يطابق الواقع كالحدث عن مجتمع مثالي، أو أحلام يتمنى أن تتحقق، أو رواية القصص والنوادر والحكايات، ويلخصها هاليداي في عبارة "دعنا نزعم let us pretend".

٧- الوظيفة التمثيلية أو السرديّة **Representational Function**: وتتمثل في استخدام اللغة في تصوير حدث أو موقف أو نقل الأخبار والحقائق والمعلومات. ويلخصها هاليداي في عبارة: "لدي شيء أريد أن أخبرك به I have got something to tell you".

وظاهر أن هذه الوظائف تمتاز بالبساطة والتنوع والشمول والإيجاز، وأن كل وظيفة من هذه الوظائف لا تكف وحدها. بل تتكامل جميعاً لتحقيق الهدف، ولا بد من التنبه إلى أن الوظيفة الواحدة من الممكن أن يعبر عنها بتركيب لغوية مختلفة، كما أن التركيب اللغوي الواحد قد يستخدم في التعبير

عن عدة وظائف لغوية، والذي يحكم استخدام تركيب لغوي معين في وظيفة لغوية محددة هو العلاقة الاجتماعية بين المشاركين في الحدث الكلامي في موقف بعينه. وهذه العلاقة يمكن تلخيصها في العبارة الآتية: من يتحدث مع من؟ ومتى؟ وأين؟ وما دور كل من المتحدثين، فلا مفر في التواصل بين الناس من مراعاة القواعد الاجتماعية كما تراعى القواعد اللغوية.

رابعاً: ثمة خصائص للاستخدام اللغوي يحددها موضوع الحديث ومناسبته والمشاركون فيه والموقف الاجتماعي، فما يقال في التسوق مثلاً يختلف عما يقال في المطار أو في مكتب البريد أو عند الطبيب أو في وصف رحلة. وما يقال للتحية يختلف عما يقال للسخرية أو التهديد أو الشكوى أو الإقناع أو الاستفسار أو الاعتذار أو النصيح أو التعاطف. وما يقال في خطاب رسمي موجه لجمهور غير ما يقال في المعاملات التجارية... وهذه الخصائص يعنى بها الاتجاه التواصلى عناية كبرى لأنها تمثل مشكلة لمتعلم اللغة الأجنبية؛ لما يكمن وراءها من اختلاف ثقافى، ومعرفة ما يلائم السياق وما لا يلائمه، فهذه الخصائص لغوية وثقافية واجتماعية في وقت واحد.

خامساً: ثمة تواصل غير لغوي تؤديه لغة الجسد بالإيماءات وحركات الأيدي والرموس والأزرع والعيون، وهذه الإيماءات والحركات تختلف من ثقافة إلى ثقافة ومن مجتمع إلى آخر، وما يدل على التهذيب والتكديب في مجتمع قد يدل على إهانة أو خروج على القسيم الأخلاقية والمواضعات الاجتماعية في مجتمع آخر. ومن اللازم أن تتضمن برامج تعليم اللغات الأجنبية هذا النوع من التواصل تمكينا للفترة للتواصلية العامة عند متعلم اللغة.

سادساً: يهتم الاتجاه التواصلى باللغة الطبيعية منطوقة ومكتوبة لى ارتباطها بالمواقف الاجتماعية الواقعية لا بمواقف مصطنعة أو مواقف يتخيل مؤلفو الكتب التعليمية أن الدارس بحاجة إليها أو يجعلونها وسيلة لاستظهار القواعد وحفظ الكلمات من ثم كان حرص الاتجاه التواصلى على أصالة المادة التعليمية؛ إذ تؤخذ من مصادر أصيلة فى العالم الواقعى تعبيراً عن مواقف وتحقيقاً لوظائف، وما يجرى فى الصفوف الدراسية من تريب على التواصل أشبه بما يجرى فى حمام السباحة من تريب تهيئة لخوض لجج البحار. ومعروف أن اللغة أكبر من معجمها، وأكبر من طاقات الفرد ولذلك يصحح ضرورياً أن يختار منها القدر الذى يحتاج إليه الدارسون لتحقيق التواصل اللغوى الذى يحقق أهدافهم ويشبع رغباتهم ويمد حاجاتهم. ومن هنا كان تحليل حاجات الطلاب وأهدافهم من تعلم اللغة، دون إغفال لما لديهم من خبرات وتجارب، أمراً لا مفر منه.

ويعتمد التعلم التواصلى على الأنشطة اللغوية داخل الصف وخارجه بحيث يستطيع الطالب أن يفيد مما تعلمه داخل الصف فى نشاطه الحيوى خارجه وأن يفيد مما تعلمه خارج الصف فيما يدور داخله من خلال تقسيم الطلاب إلى مجموعات أو ثنائيات تتواصل فيما بينها داخل الصف وخارجه تبادلاً للأدوار والمعلومات، وتعيضاً للنقص فى الخبرات، ومسدداً للفجوات المعرفية عند كل منهم من خلال التفاعل المستمر بينهم وتشجيعهم على الاستعمال المتفقى للغة الذى يمكنهم من الطلاقة اللغوية من بعد، وعلى ذلك فإن دور المدرس يقتصر على إدارة دفة التواصل بين الطلاب وتيسيره لهم، وحفزهم على المشاركة فيه وبث الثقة فيهم مع إشاعة جو من المرح والإثارة والتشويق، دون مقاطعة أو تصويب لأخطاء الاستعمال وقت الحديث، وتأجيل

ذلك لما بعد الفراغ منه؛ فالخطأ لا يعدّ عجزاً، بل هو ملازم للتعليم لا ينجو منه أحد وبهذا يصبح الطلاب في بؤرة الاهتمام بدلاً من الانتقال من المدرس إلى الطالب ومن الطالب إلى المدرس، واعتبار المدرس هو الذي يملك كل الحكمة والعلم وعلى الطالب أن يأخذها عنه.

والنحو في التعليم التواصلي لا يخصص له وقت، بل يدرس من خلال المواقف اللغوية وما يتطلبه من صيغ وتركيب، فالنحو وثيق الارتباط بالموقف لا بالنظام اللغوي المجرد.

ومن أهم ما يجب الانتفات إليه أن هذا النوع من التعليم لا يؤتى ثماره الحقة إلا إذا تلقى الطالب تعليمه في بلد اللغة حيث يستطيع الطالب أن يخرج من قاعات الدرس ليتواصل مع أهل اللغة، فإذا تعلم في قاعات الدرس كيف يطلب طبقاً من الكشرى مثلاً فسوف يشعر بالشوق إلى الذهاب إلى المطعم المجاور وطلب طبق من الكشرى أما إذا تعلم ذلك في بلده فسوف تخمد شهيته أولاً يستطيع أن يتصور هذا النوع من الطعام.

فإذا لم يكن ذلك ميسوراً فلا بدّ من وضع المتعلم في بيئة لغوية تشبه قدر الإمكان البيئة الطبيعية للغة المتكلمة وهو ما يعرف بالغمر في اللغة Language immersion. وبهذا يستطيع المتعلم أن يحقق قدرًا من التعلم بسرعة فائقة.

ولمهارات التواصل الأربع في هذا الاتجاه شأن يختلف عنها في غيره فالمهارات اللغوية هنا متضلفة ومتزلزلة ومواتمة لأشكال التواصل فلا تقدم إحداها على الأخرى إلا إذا اقتضى الموقف التواصلي ذلك، وقد تجتمع جميعاً في موقف واحد. خذ مثلاً موقف الحوار مع موظف الاستقبال في فندق، فهو

يبدأ بإظهار الرغبة فى الحصول على غرفة (حديث) ثم إجابة الموظف (استماع) ثم ملء الخانات الخالية فى استمارة التسجيل (كتابة) بعد (قراءتها)، من ثم فإن الفصل بين المهارات فى هذا الاتجاه مرفوض، وكذلك التدريبات التى تقوم على جمل منفصلة استماعاً أو حديثاً أو قراءة أو كتابة، وإنما يقدم للدارس موقف من المواقف التى يتعرض لها فى الحياة اليومية، ثم يطلب منه تنفيذ مهام تتناسب مع الموقف، فإذا استمع إلى النشرة الجوية مثلاً طلب منه التخطيط للقيام برحلة فى ضوء ما سمع فى النشرة الجوية.

وينبغى الالتفات إلى ما بين المهارات من علاقات متبادلة فالاستماع والحديث يجمعهما الصوت، وتبادل الأدوار فى الحوار الحى، فى حين تجمع الصفحة المكتوبة بين القراءة والكتابة. والمرء فى مهارتى الحديث والكتابة يركب الشفرة وينتج الرسالة، لكنه فى مهارتى الاستماع والقراءة يفك الشفرة ويستقبل الرسالة، وهو فى المهارتين الأوليين مؤثر فى غيره، لكنه فى المهارتين الأخرين متأثر بغيره. ويلاحظ أن الرصيد اللغوى الذى يستخدمه المرء فى الحديث والكتابة يكون عادة أقل منه فى الاستماع والقراءة، لأن منطقة الفهم أوسع من منطقة الاستخدام.

كذلك فإن للاختبارات فى التعليم التواصلى شأنًا يختلف عن الاختبارات فى غيره إذ ينبغى أن تتوفر فيها معايير صارمة تقيس القدرة التواصلية قياساً دقيقاً بما تشتمل عليه من مكونات نحوية ولغوية اجتماعية وخطابية واستراتيجية، وأن تعنى بالجوانب التداولية فى استعمال اللغة استعمالاً طبيعياً فى تواصل حقيقى توظف فيه اللغة فى سياقات مناسبة تعكس الإدراك الصحيح لخصائص اللغة وثقافتها وأعرافها الاجتماعية.

وبعد، فلعل فيما قمناه من حديث عن الاتجاه التواصلى قد ألقى

الضوء على منطلقاته وأسمه المنهجية بوصفه أهم اتجاه في تعليم اللغات الأجنبية وأكثرها نجاحًا في تزويد الطلاب بالقدرة التواصلية على أن يكونوا مفهمين باللغة التي يتعلمونها ومفهومين في أقصر وقت ممكن وبرصيد أصيل من الاستخدام اللغوي يمكنهم من الطلاقة اللغوية واستعمال اللغة على نحو مماثل لاستعمال أبنائها. وبنا الآن أن ننظر في مكانة اللغة العربية بين لغات العالم، ثم ننظر في تطبيق هذا الاتجاه على اللغة العربية.

مكانة اللغة العربية بين لغات العالم:

تنتمي اللغة العربية إلى الفرع العمامى من مجموعة اللغات الأفروآسيوية، وهي تعدّ واحدة من اللغات العظمى في العالم قديمًا وحديثًا لما يأتى:

١- اللغة العربية أهم اللغات المسلمية الحية وأشهرها وأوسعها انتشارًا، وأندها تأثيرًا في نفوس أصحابها ومشاعرهم، وأحفظها لخصائص المسلمية الأم، ومن ثم لا غنى عنها في مجال المقارنة بين اللغات، وحينما حاول الباحثون ترسيم reconstruction اللغة السامية الأم انطلقوا من العربية وانتهوا إلى لغة سامية أم شديدة الشبه باللغة العربية.

٢- كانت العربية ولا تزال واحدة من لغات الحضارات الكبرى في العالم فقد تبوّأت في القرن الثامن الميلادى مكانتها بجانب اليونانية واللاتينية معبرة عن الحضارة الازاهرة في العصور الوسطى، واستطاعت بعد ما يزيد قليلاً على مائة عام أن تتجاوز العالم الناطق بها لتخلف آثارًا عميقة لا فى آسيا وأفريقيا فحسب، بل فى أوروبا أيضًا.

وقد ظلت اللغة العربية طوال العصر الذهبى للإسلام لغة رفيعة

تستخدم في كل المجالات الدينية، والثقافية، والإدارية، والعلمية حتى لقد بدت في القرنين التسع والعاشر الميلاديين كأنها هي اللغة الوحيدة للتقافة في العالم، فقد استطاعت أن تقصى لغات كل الحضارات الأخرى كاليونانية والأرامية والفارسية والقبطية واللاتينية ثم البربرية في شمال أفريقيا. ونقل التراث الثقافي والعلمي لهذه الشعوب إلى اللغة العربية من خلال حركة ترجمة كبرى شجعها مياسة الخلفاء الراشدة إلى التكامل مع غير العرب، حتى أصبح هذا التراث على مذ اليد مترجماً إلى اللغة العربية ومضافاً إليه ما قام به العلماء المسلمون من شروح قيمة.

وأصبحت اللغة العربية لغة عالمية يسعى إلى تعلمها أبناء الشعوب الأخرى. ولم تكم للغات الأخرى حياة إلا في العبادة؛ فاضطر الباحثون من كل أوروبا إلى السفر إلى الأندلس الإسلامية للتعلم في جامعات قرطبة وغرناطة. وبعد سقوط طليطلة ١٠٨٥م ترجمت نصوص عربية كثيرة في الفلك والكيمياء والطب والفيزياء والرياضيات إلى اللاتينية فانتقلت مصطلحات عربية كثيرة إلى تلك اللغة، ومنها إلى اللغات الأوروبية. لقد أسهم العرب في بناء صرح الحضارة العالمية، وكانت الأندلس وصقلية العربيتين سبيل الأوروبيين إلى وضع أسس النهضة الأوروبية الحديثة.

٣- ارتبط الإسلام منذ ظهوره باللغة العربية فقد نزل القرآن الكريم "بلسان عربي مبين" والقرآن الكريم عند كل المسلمين معجزة لغوية تتلأبى على الترجمة. فكان على أبناء الشعوب الإسلامية أن يتعلموا العربية ليتمكنوا من قراءة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وإقامة شعائر الدين، وقد حال ذلك دون أن تلقى العربية مصير اللاتينية، وظلت ذات تاريخ متصل يمتد من العصر الجاهلي حتى العصر الحاضر، وظل الوعي بها والحفاظ

عليها أمراً لا يمكن التفريط فيه عند العرب والمسلمين جميعاً.

وقد أثرت اللغة العربية تأثيراً عميقاً في لغات كل الشعوب التي اعتنقت الإسلام؛ فقد كان لها تأثير كبير في الفارسية والتركية والأردية والمالية والبنغالية، ومن اللغات الأخرى الهوسا والسواحلية. وقد أدخل الناطقون بهذه اللغات كلمات كثيرة وتركيب مستعارة من اللغة العربية لا تقتصر على الجوانب الدينية أو ما يتصل بالحضارة الإسلامية، بل تمتد لتشمل المجالات السياسية والقانونية والاقتصادية والتجارية والإدارية والعلمية والتعليمية. ولا تزال بعض هذه اللغات تكتب بحروف عربية، ولا تزال العربية لغة للأقليات في بلاد كثيرة تشمل نيجيريا والنيجر وتشاد وتركيا وإيران وقبرص ومالطة والأناضول، وفي بعض الجمهوريات الإسلامية التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق، فضلاً عن أعداد كبيرة من الناطقين بالعربية الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وغرب أوروبا كبريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا.

ومعرفة العربية لازمة لقراء نصوص اللغة التركية العثمانية، والفارسية، والأردية، فالكتاب في هذه اللغات يستخدمون المفردات العربية استخداماً واسعاً، ويستخدمون الصيغ العربية كما يستخدمها أبناء العربية على أساس من قواعد النحو العربي.

٤- اللغة العربية الآن هي الخامسة في ترتيب لغات العالم بالقياس إلى الناطقين بها من أبنائها، بعد الصينية والإنجليزية والهندية والإسبانية، وهي السابعة بوصفها لغة رسمية بعد الإنجليزية والصينية والهندية والإسبانية والروسية والفرنسية.

والعرب يدعون العربية الفصحى رابطة قومية تجمع بينهم؛ إذ يفهمها كل أبناء الشعوب العربية حتى الأميون منهم، وهي لغة دينية مقننة عند المسلمين جميعاً. ويعيش غير العرب منهم في دول إسلامية أهمها تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان وإندونيسيا وماليزيا وكازاخستان وكرجستان وطاجكستان وتركمانستان وأوزبكستان.

واللغة العربية من أكثر اللغات انتشاراً في القارة الأفريقية وفي غرب آسيا. وقد اتخذتها الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤م واحدة من ست لغات رسمية، فضلاً عن أن العالم العربي هو مكان نزول الأديان الثلاثة، ويحتوى على ثلثي احتياطي البترول في العالم، وبه أشهر الأثار الحضارية والمزارات الدينية. وقد جعل كل ذلك للناطقين بالعربية تأثيراً في الأحداث العالمية لما لهم من وزن ثقافي وحضاري وديني وسياسي واقتصادي واستراتيجي. وقد كانت اللغة العربية من المرونة بحيث استوعبت منجزات العلم والتكنولوجيا في القديم والحديث.

٥- على الرغم مما يشاع من صعوبة تعلم اللغة العربية فإنها لغة قياسية على نحو فريد، لا يكاد يمثل نظامها اللغوي صعوبة تذكر في تعليمها وتعلمها بشهادة من درسها وتعلمها من الأجانب، بل تأتي هذه الصعوبة من خارج النظام اللغوي متصلة بالجوانب التاريخية والأسلوبية والاجتماعية.

٦- توفر إجادة اللغة العربية لغير الناطقين بها فرص عمل كثيرة في الشركات التي تعمل في الشرق الأوسط، أو الترجمة، أو مكاتب الأجانب في الحكومات المختلفة، أو خدمات الجيش، أو المؤسسات الثقافية، أو القنصليات، أو وسائل الإعلام المسموعة والمقروعة، أو المراكز الإسلامية، أو منظمة حقوق الإنسان، أو منظمة العفو الدولية، أو تعليم اللغة العربية في الجامعات

والمدارس، أو التخصص الأكاديمي، فضلاً عن أنها نافذة يطل منها المرء على ثقافة أخرى وحضارة عريقة.

لكل هذه الأسباب أُقبل غير الناطقين بالعربية على تعلمها، وقد أضيفت إليها أسباب أخرى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر جعلت إقبال الناس على تعلمها يتضاعف على نحو مدهل، وقد بلغ عدد الطلاب الذين يدرسون العربية في الولايات المتحدة وحدها عشرين ألف طالب، وقد بلغ عدد الراغبين في تعلم اللغة العربية في بيئتها الطبيعية في العالم العربي هذا العام ألف طالب في جامعة كاليفورنيا وحدها، وينفون في ذلك مبالغ باهظة تصل إلى ستة عشر ألف دولار للطالب الواحد في العالم الواحد.

محاولات التطبيق:

١- برامج تعليم العربية لغير الناطقين بها نوعان: برامج تعليم اللغة العربية للحياة، وهي التي تهدف إلى لتواصل العلم بالعربية في المواقع الاجتماعية والثقافية، وبرامج تعليم العربية لأغراض خاصة وهي برامج موجهة لجمهور خاص يتعلمها لتحقيق أغراض خاصة به بعضها أكاديمي، وبعضها مهني، وبعضها ديني، وبعضها اقتصادي، وبعضها دبلوماسي... الخ.

وبنا الآن أن نعرض لتطبيقات الاتجاه التوصل على هذين النوعين من البرامج:

أولاً: اللغة العربية للحياة:

سوف نقصر في الحديث عن تطبيقات الاتجاه التوصل في تعليم العربية لغير الناطقين بها على هذا النوع من البرامج على برنامجين جامعيين

اثنين أحدهما من داخل البلاد العربية والثاني من خارجها. أما الأول فهو برنامج مركز تعليم اللغة العربية للأجانب التابع لكلية الآداب - جامعة الإسكندرية والثاني البرنامج الصيفي لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بجامعة منيابري بولاية فيرمونت الأمريكية.

أولاً: برنامج جامعة الإسكندرية:

تقوم السياسة التعليمية بمركز تعليم اللغة العربية للأجانب بجامعة الإسكندرية على خلق بيئة لغوية مماثلة للبيئة الطبيعية التي يعيش فيها أبناء اللغة العربية خارج المراكز، ليستطيع الطالب أن يستصحب معه ما تعلمه داخل الفصل إلى خارجه مشاركاً في التفاعل الاجتماعي والثقافي من خلال ما تعلمه، ومفيداً مما اكتسبه من البيئة اللغوية الطبيعية فيما يتعلم من دروس اللغة. وهذا التفاعل الحي بين ما يدور داخل قاعات الدرس وخارجها هو ما يفتقده الأجنبي حين يتعلم اللغة العربية في بلده. من هنا يصبح حرص الجامعات البريطانية على أن يقضى الطالب الذي يتعلم اللغة العربية سنة أو نصفها على الأقل في بلد اللغة التي يسعى إلى تعلمها أمراً له أهمية، بل مثلاً ينبغي أن تحتديه كل الجامعات التي بها أقسام أو معاهد تعلم العربية لغير أبنائها.

ويتعرض الطالب في البيئة اللغوية الطبيعية خارج المركز لمستويين لغويين أساسيين:

أحدهما: اللغة العربية المعاصرة، ويتعرض لها الطالب في وسائل الإعلام مسموعة ومرئية ومقروءة، وفي المحاضرات العامة، والخطب السياسية، والأمسيات الشعرية، والأغنيات الكلاسيكية، وبعض الأعمال

الدرسية في الإذاعة والتلفزيون والمسرح، وكل ما يتصل بالنشاط الثقافي.

وهذا المستوى هو اللغة الرسمية للدول العربية، ويستطيع الإنسان العربي المتعلم فهمه والتعامل معه في مختلف البلاد العربية، وهو الذي يحقق حاجات العدد الأكبر من المتعلمين الأجانب الذين يريدون أن يفهموا على الإنتاج الثقافي والديني والفني للأمة العربية في العصر الحاضر، وهو الذي يبقى مع المتعلم بعد عودته إلى بلده أو سفره إلى أي بلد عربي، وهو وسيط ممكن للمحادثات الشفوية في أي مكان من العالم العربي إذا تعذر التفاهم باللهجات المحلية.

والثاني: العلمية ويتعرض له الطالب في حياته اليومية من خلال حديثه مع الناس سواءً أوجاباً أو استفساراً، أو فيما يحتاج إلى شراثة من الأسواق أو استخدامه في وسائل المواصلات أو الاستماع إلى الأغاني والتمثيلات والإعلانات ومشاهدة الأفلام وحضور اللقاءات والاجتماعات غير الرسمية.

ويفيد الطالب من هذا المستوى مدة إقامته، فيقف على معلومات قيمة بشأن المجتمع الذي يعيش فيه: كيف يعيش الناس، ويتعاملون، وماذا يهمهم وماذا يضحكهم أو يحزنهم أو يفضيهم، فضلاً عن أمثالهم وحكاياتهم ونوايرهم ونظراتهم للعالم من حولهم، بالإضافة إلى ما يحققه الاتصال الشفوي من إمتاع وتشويق.

وكلا المستويين متكاملان، يؤثر أحدهما في الآخر ويتأثر به. ومن ثم فهما ليسا لغتين مستقلتين بل هما مستويان للغة واحدة، بينهما فهم متبادل *mutual intelligibility* ولكن لكل منهما شأناً يستخدم فيه.

وتتضمن السياسة التعليمية بالمركز أن تكون لغة التدريس به أداءً ومقررات هي اللغة العربية بمستوياتها دون الاستعانة بلغة أجنبية إلا عند الضرورة القصوى، ويشجع الطلاب على استخدامها في الاتصال اللغوي داخل المركز في حوارات الطلاب بعضهم مع بعض، وفي المناقشات في قاعات الدرس.

وتتضمن السياسة التعليمية أيضاً بالآ يقتصر نشاط المركز على تعليم الطلاب اللغة العربية في قاعات الدرس، بل ينظم لطلابه ندوات ومحاضرات توضح لهم الجوانب الثقافية والحضارية والاجتماعية في المجتمع العربي الذي يعيشون فيه، وتتيح الكلية لمن شاء منهم أن يحضر دون مقابل مالي محاضرات في أي قسم من أقسام الكلية، وأن يشارك في النشاطات الثقافية والرياضية بالكلية، كما تمكنه من الإطلاع على الكتب والدوريات في مكتبة الكلية ومكتبة المركز المزودة بكثير من الكتب والمراجع والوسائل التعليمية التي تساعد الطلاب على إجادة اللغة، وتبصيرهم بالفروق الحضارية بين مجتمعاتهم والمجتمع الذي يتعلمون فيه اللغة. ويشجع المركز طلابه على كتابة أبحاث باللغة العربية بإشراف أساتذة الكلية في التخصصات المختلفة، وتعكس هذه الأبحاث اهتمام الطلاب بتعرف جوانب المجتمع الحضارية والثقافية والدينية والاقتصادية والأدبية والفنية في القديم والحديث. كما تشجع الطلاب على أن يتوسع في دراسة موضوع بعينه مع واحد من أساتذة الكلية المتخصصين بحيث يقتصر الدرس عليه وحده.

بناءً على هذه السياسة وضعت المقررات التعليمية بالمركز ليستخدم الطلاب مستوى العربية المعاصرة في الشؤون الثقافية والرمسية، ويستخدم العامية في قضاء حوائج اليومية والترفيهية. والمستويان يتفاعلان معاً في

المقررات التعليمية، كما يتفاعلان معاً في حياة الناس خارج الدرس، ويستطيع الطالب بعد أن يتقدم في دراسة هذين المستويين أن يصل من خلالهما إلى مستويات أخرى من الفصحى والعامية.

وتهدف المقررات التعليمية إلى الوصول إلى القدرة على الطلاقة التواصلية في المستويين معاً. وهذه القدرة التواصلية تشمل على ستة جوانب تتكامل جميعاً لتحقيق الطلاقة، لكن كل جانب منها يلقي عناية خاصة تتمثل في تخصيص وقت مستقل له وتصميم مقرر تعليمي خاص به في إطار المهارات الأربع: الاستماع والقراءة والكتابة والحديث. وهذه الجوانب هي:

أ - الجانب اللفظي: الذي يعني بالألفاظ اللغة نطقاً واستماعاً وقراءة وكتابة، مع تنمية مستمرة لثروة الطالب اللفظية بناءً على خطة مدروسة تقوم على التدرج في تقديمها، ومراعاة نسبة شيوعها، وخصائصها الاشتقاقية، وما ينشأ بينها من علاقات دلالية، وملاءمتها للموقف اللغوي.

ب - الجانب النحوي: الذي يعني بنظم هذه الألفاظ في جمل وعبارات، وبيان ما بين هذه الألفاظ من علاقات تركيبية، وما يحكم ترتيبها ومواقعها من قواعد تؤدي إلى إنتاج جمل عربية صحيحة يقبلها أبناء اللغة.

ج - الجانب النصي: الذي يعني بإنشاء خطاب متماسك من جمل يرتبط بعضها ببعض في بناء محكم يحقق وظيفة لغوية محددة.

د - الجانب الاجتماعي: الذي يعني بالقدرة على استخدام اللغة في إطارها الاجتماعي بما يناسب المواقف الاجتماعية المختلفة، ويراعي أعراف الاستخدام وضوابطه.

هـ - الجانب الاستراتيجي: الذي يعنى بتنمية القدرة على استنلاك استراتيجيات إدارة الخطاب، والمشاركة الفعالة فيه.

و - الجانب الثقافى: الذي يعنى بتنمية القدرة المعرفية بالثقافة العربية والحضارة الإسلامية.

وقد ثبت لدى القائمين على شئون التعليم بالمركز بعد تجارب عديدة أن هذه الجوانب لا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد فى إطار المهارات الأربع، لأنها تتنقل كامل للطلاب، وتربك المعلم، وتجعل الدرس طويلاً مملأً، ولا تحقق الهدف المرجو منه. من أجل ذلك روعى أن تتحقق كل هذه الجوانب فى كل مهارة من المهارات الأربع التى يخصص لكل منها مقرر مستقل، فهناك مقرر متكامل للاستماع والفهم، ومقرر متكامل للقراءة بأنواعها المختلفة، ومقرر للكتابة إنشاءً ورسماً، ومقرر للحديث يحقق الوظائف الإخبارية والتعبيرية والتوجيهية واستراتيجيات المقاطعة، ويراعى فيه للنبز والتنظيم وحركات الجسم المصاحبة. وكل مقرر من هذه المقررات يحمل عنوان المهارة التى خصص لها، ويتكون من أجزاء مبنى بعضها على بعض لتتناسب المستويات الدراسية المختلفة. على أن الطلاب يدرسون بالإضافة إلى ذلك مقررات فى الترجمة، والأدب العربى قديمه وحديثه، ولغة ومسائل الإعلام. وكل أولئك من خلال اختيار مواد تعليمية أصيلة من اللغة المكتوبة والمنطوقة جرى تطويرها على أساسين ثابتين هما نسبة شيوخ الألفاظ والتراكيب فى الاستعمال، والتدرج فى تقديمها لتتناسب كل مستوى من المستويات الدراسية. وفكرت فيها جميعاً احتياجات الدارسين. ويقدم المركز أيضاً دروساً اختيارية فى جماليات الخط العربى، والتاريخين المصرى والإسلامى، وتجويد القرآن.

ثانياً: نموذج مدابري:

يعدّ برنامج مدابري الصيفي للغمر اللغوى Language Immersion البرنامج الأول فى الولايات المتحدة الأمريكية. والمقصود بالغمر اللغوى أن يغمر الطلاب فى اللغة التى يريدون تعلمها غمرًا تامًا بحيث تحيط بهم من كل جانب فلا يسمعون غيرها ولا يستعملون غيرها فى كل أمورهم التعليمية وغير التعليمية داخل الصف وخارجه، فتستغرق اللغة الهدف كل وقتهم وتفكيرهم ليلاً ونهاراً، فهم يوضعون فى معسكر مغلق لاستخدام اللغة فى كل الشئون ويؤدون قسمًا pledge ألا يستعملوا غير اللغة التى جاؤوا لتعلمها، وهو قسم لا يجوز الحنث فيه وليس له كفارة، ومن تثبت مخالفته للقسم باستعمال لغته الأم أو لغة غير اللغة التى يدرسها يحرم من الدراسة ويلغى تسجيله ويلتزم بهذا القسم الطلاب جميعاً حتى المبتعثون منهم، مع مراعاة أن قسم المبتعثين لا يسرى إلا بعد نحو أسبوعين من بدء الدراسة.

وتستمر الدراسة فى هذا البرنامج تسعة أسابيع تعادل فى وزنها التعليمى فصلين دراسيين كاملين فى البرامج المعتادة، وينشغل الطلاب فيها طوال الوقت باللغة فى قاعات الدرس وفى الأنشطة الثقافية والاجتماعية المصاحبة لها وهى تشمل الأفلام العربية والمسرحيات والنوادر الثقافية، والبرامج الدينية والرحلات الميدانية، ومهارات الطبخ العربى، والموسيقى العربية، ونماذج من الفولكلور الشعبى العربى، والخط العربى، والرقص الشرقى، والصحافة العربية، فضلاً عن حديث الأربعاء الذى يتحدث فيه ضيف من كبار المتخصصين فى ثقافة الشرق وتاريخه وحضارته بمستقمة البرنامج لهذا الغرض.

ويقدم البرنامج للطلاب والمدرسين الطعام والشراب فى مطعم واحد

يضمهم جميعاً في الوجبات الثلاث ويكلف المدرسون بمشاركة الطلاب في الطعام والشراب والحديث معهم باللغة العربية حديثاً ودياً يناقش فيه الطلاب والمدرسون مشكلاتهم وتطلعاتهم وتقويمهم للأداء في الصفوف الدراسية ويشاركونهم في الأنشطة الرياضية والفنية فتتعقد بينهم جميعاً أو لمر صدقة لا تزول.

والوقت المتاح للدراسة والأنشطة يستغرق ساعات طويلة من النهار وطرفاً من الليل، إذ تبدأ الدراسة في الثامنة صباحاً ولا تنتهي الدراسة والأنشطة إلا في العاشرة مساءً. وتتاح للطلاب ساعات مكتبية في مواعيد محددة يلتقون فيها بمعلميهم ليناقشوا معهم مشكلاتهم الدراسية الخاصة أو يطلبون منهم إيضاح ما غمض عليهم أو التمس أو يدلون بقرائحتهم لتنمية المهارات الدراسية... الخ، ثم لا ينتهي الأمر عند هذا الحد، بل يكلف الطلاب بواجبات منزلية كثيرة ومتنوعة بحيث لا يكاد يجد الطالب وقتاً للنوم. وقد استعار الطلاب عنوان رواية كتبها بالعربية مؤلف سكندري هو إبراهيم عبد المجيد: "لا أحد ينام في الإسكندرية" واستبدلوا بالإسكندرية مدنيرى فكان شعارهم "لا أحد ينام في مدنيرى" ومدنيرى ضاحية صغيرة في ولاية فيرمونت الأمريكية.

وقد أثمر هذا الكم من العمل للدوب مواد تعليمية منطوقة ومكتوبة ونماذج من الاختبارات قل أن توجد في برنامج آخر، ويكفي أن نقول إن أهم كتاب يدرس في أمريكا الآن هو "الكتاب في تعلم العربية" وقد ولدت فكرته وأنجز العمل فيه واستخدم تجريبياً لأول مرة في برنامج مدنيرى الصيفي.

ويقبل الطلاب على هذا البرنامج إقبالاً منقطع النظير من داخل أمريكا وخارجها ولكن القائمين عليه لا يقبلون إلا مائة طالب أو يزيد قليلاً

كل فصل صيفي، يختارون بعناية دقيقة ويقام لهم حفل استقبال مهيب، وحفل توديع رائع يتخللون فيه من قسمهم.

لما المدرسون فيختارون بعناية فائقة من مؤسسات تعليمية جامعية مرموقة من داخل أمريكا وخارجها من نوى الخبرات التعليمية والأكاديمية والخلفيات الثقافية المتنوعة، وهم لا يدرسون اللغة العربية فقط بل يعيشونها مع الطلاب في إطارها التوصلية ثقافياً واجتماعياً، ويقدم البرنامج لهؤلاء المدرسين تدريبات منظمة ترفع كفاءتهم التعليمية بتولاها خبراء مشهورون في تعليم العربية لغير الناطقين بها، وورش عمل يلتقى فيها أعضاء هيئة التدريس لتبادل الخبرات ومناقشة المشكلات وتنمية المهارات. والبرنامج يجعل من "الكتاب في تعلم العربية" الذي صدر بأجزائه الثلاثة عن مطبعة جامعة "جورج تاون"، وهو مؤسس على الاتجاه الاتصالي، معتمده الأساسي ثم يضاف إليه ما يراه المدرسون والطلاب من مواد تعليمية إضافية. وتقوم سياسة التدريس في هذا البرنامج على إطلاق الطاقات الإبداعية عند الطلاب وبتثيق الثقة في نفوسهم عند استعمال اللغة العربية والإفادة من قدراتهم المعرفية وخلفياتهم الثقافية فضلاً عن تعريفهم بثقافة اللغة وحضارتها في ماضيها وحاضرها.

ولعل أهم انتقاد وجه إلى هذا البرنامج إن كان يعدُّ انتقاداً أنه يحرص على أن تكون اللغة المستعملة طوال الوقت هي الفصحى المعاصرة دون عناية باللهجات إلا في أضيق الحدود، إذ لا تدرس إلا في المستويات المتقدمة ولمدة ساعتين اثنتين أسبوعياً، وهو أمر لا يطابق الاستعمال الطبيعي للغة العربية عند أبنائها إذ تستخدم العامية في التواصل الشفوي المباشر، والنصحي في المكتوب والمقروء والمسموع عبر أجهزة الإعلام، والتواصل بها غير مباشر.

ثانياً: العربية لأغراض خاصة:

لقد أدى تزايد الاهتمام بالعالم العربي اقتصادياً وثقافياً وإعلامياً ودينياً وسياسياً إلى الاهتمام بنوع آخر من تعليم العربية، يهدف إلى تمكين الدارس الأجنبي من دراسة متخصصة فى مجالات اهتمامه المهنى أو الثقافى أو السياسى أو الدينى أو الأكاديمى أو غير ذلك من اهتمامات. وبعض هذه البرامج تقدم فى بلاد غير ناطقة بالعربية وبعضها فى بلاد ناطقة بها، فمن النوع الأول برامج اللغة العربية التى تعدُّ للعاملين بالبرامج العربية فى وسائل الإعلام الموجهة إلى العالم العربى من الدول الأوروبية والأفريقية والآسيوية، وبرامج اللغة العربية لطلاب الدراسات العليا فى أقسام الدراسات الشرقية بالجامعات الأجنبية وهى برامج تعدُّ الطالب لتخصصات أكاديمية، وتعليم العربية للدبلوماسيين بمعاهد الدراسات الدبلوماسية فى وزارات الخارجية وبخاصة فى بريطانيا وأمريكا. وتعليم العربية لأغراض دينية فى أقسام الدراسات العربية والإسلامية فى جامعات العالم الإسلامى فى جنوب شرقى آسيا مثل ماليزيا وإندونيسيا وباكستان.

ومن النوع الثانى تعليم العربية لأغراض دينية وأكاديمية بمدينة البعوث بالأزهر الشريف بهدف تمكين الطالب من التخصص فى علوم اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والعقيدة والفقه وأصوله.. وقريب منها ما يدرس فى جامعة الإمام محمد بن سعود، وأم القرى، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والعربية للعاملين فى قطاع البترول مثل البرنامج المتكامل الذى أعدته شركة أرامكو لغير الناطقين بالعربية، ومثل البرنامج الذى أعدته جامعة الإسكندرية للعاملين بإحدى شركات التنقيب عن

الغاز الطبيعي بالقرب من الإسكندرية (شركة بكتال)، وبرنامج تعليم العربية لأغراض التخصص في العلوم والتكنولوجيا الذي يدرس في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في السعودية.

والفرق بين النوعين من تعليم العربية: العربية للحياة والعربية لأغراض خاصة أن النوع الأول يضم طلابًا غير متجانسين تتنوع تخصصاتهم وخصائصهم واهتماماتهم وجمعهم شيء واحد هو الرغبة في تعلم اللغة العربية للتواصل مع أهلها تواصلًا مباشرًا أو غير مباشر في شؤون الحياة العامة. أما الثاني فيضم طلابًا متجانسين بجمعهم تخصص واحد واهتمام مهني واحد وهم يستطيعون فورًا وإن تباعدت الشقة بينهم وبين أهل اللغة الأصليين أن يستخدموا اللغة مع زملائهم من أهل المهنة الواحدة أو العاملين معهم، والحاجات التي يسعون إلى تحقيقها من تعلم اللغة محددة ومحصورة على خلاف الذين يدرسون اللغة للحياة إذ تتنوع حاجاتهم بتنوع أعدادهم في كثير من الأحيان.

وثمة ملحظ ينبغى الإشارة إليه هو أن العربية للحياة تبدأ مع الطالب من البدايات الأولى إلى الدرجة التي يصل بها إلى التمكن اللغوي على نحو يقارب القدرة اللغوية عند أهل اللغة لكن العربية لأغراض خاصة لا تقدم للطلاب إلا في المرحلتين المتوسطة والمتقدمة من الدراسة، وأقصى ما يراد لها هو التمكن من التفاهم مع أهل المهنة والمتعاملين معهم. وقد عمد الدارسون الأجانب إلى تعلم مهارة واحدة في بلدانهم كمهارة القراءة ليتمكنوا من قراءة القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، ولا تحظى المهارات الأخرى عندهم باهتمام يذكر لأنه لا حاجة بهم إلى التواصل اليومي مع أبناء اللغة. من ثم كان من اللازم أن يسبق تعليم العربية لأغراض خاصة مرحلة يتعلمون

فيها اللغة العالمة. والبرامج التي تقدم للوافدين من طلاب الجاليات العربية والإسلامية خير شاهد على ذلك.

وإذا كانت المقررات الدراسية الموضوعية لتعليم اللغة العربية لأغراض خاصة تختلف اختلافاً بيناً عن المقررات الدراسية التي توضع لتعلم العربية للحياة فإن المدرسين الذين يقومون بالتدريس ينبغي أن يجتمع فيهم التمكن من اللغة العربية والإلمام الجيد بالتخصص الذي ينتمون إليه أو المهنة التي يمتنونها.

وقد يميّز إلى الظن أن الدارسين للعربية لأغراض خاصة لا يحتاجون إلا إلى مصطلحات التخصص والمفاهيم المتصلة به، وليس هذا صحيحاً، إذ لا يمكن تقديم محتوى لغوي إلا في إطار ثقافي.

النمط اللغوي وأصالة المادة التعليمية:

إذا كان الاتجاه التواصلي في تعليم اللغات - كما أشرنا - يقوم على إسباب المتعلم القدرة التواصلية التي يتمكن بها من التواصل مع أبناء اللغة تواملاً حياً في مواقف اجتماعية وثقافية حقيقية تمثل ثقافة اللغة وحضارتها وقيمها الخلقية وأعرافها الاجتماعية فإن تعليم العربية تعليمًا تواملاً يثير مشكلة النمط اللغوي الذي يستخدم في تعليم العربية: أهو الفصحى تراثية ومعاصرة أم العامية بمستوياتها المختلفة؟

لقد أثبتت الدراسات المعاصرة أن أكثر الأنماط اللغوية شيوعاً واستعمالاً نمطان اثنان: الفصحى المعاصرة، وعامية المتكلمين، وأن لكل منهما مجالات يستخدم فيها فالفصحى المعاصرة هي لغة الثقافة في المجتمعات العربية، تستعمل في القراءة والكتابة وفي الاستماع الصامت إلى المحاضرات

والندوات والخطب الرسمية وكثير من برامج وسائل الإعلام، وهي تشارك فصحي التراث في أغلب الظواهر اللغوية. لكن فصحي التراث يظل أن تستعمل عند المتخصصين في اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، وفي النصوص الأدبية القديمة وما يحتذيها من نتاج أدبي عند المحذنين أما العلمية فهي وسيلة التواصل الشفوي في الحياة اليومية حديثاً واستماعاً من خلال تفاعل حي، فهما يقومان بوظيفة تكاملية في الاستخدام اللغوي المعاصر، وقد يختلطان معاً في الحديث والاستماع.

وإذا كان ذلك كذلك فهل استطاعت البرامج التعليمية أن تقدم للطلاب مادة تعليمية مأخوذة من مصادر أصيلة authentic تعكس تنوعات العربية كما يستخدمها أبناء العربية في مواقف اجتماعية وثقافية حقيقية؟ هل ما يقدم للطلاب داخل الفصول يعكس ما يدور من استعمال عند أبناء اللغة؟ الجواب أن الغالبية العظمى من المواد التعليمية والكتب الدراسية ظلت تقدم نوعاً واحداً من العربية هو الفصحي المعاصرة، وتمادى بعض واضعي هذه البرامج فجعل الفصحي لغة مستخدمة في الحوار الشفوي في مواقف الحياة اليومية عند التسوق أو الاستعلام أو استخدام وسائل المواصلات أو مكاتب البريد أو حجز الفنادق والطيران... وبعض البرامج فصلت بين الفصحي المعاصرة والعامية وقامت بتعليمها مترادفتين في دروس ومقررات خاصة بكل نوع، وبعضها اقتصر على إحدى العاميات.

وظاهر أن القدرة التواصلية عند أبناء اللغة ذات جانبين فصيح وعامي، والتبادل قد يقع بينهما في الموقف الواحد، ومن ثم فإن النموذج الاتصالي في تعليم العربية لغير الناطقين بها ينبغي أن يكون مطابقاً لهذه

القدرة الاتصالية التي تقوم على استخدام الفصحى والعامية استخدامًا متكاملًا، وتبادليًا أحيانًا.

وقد حاول منذر يونس أن يطور برنامجًا لتعليم العربية في جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية قال إن تطويره استغرق أربع عشرة سنة، يمجع العامية في الفصحى المعاصرة في مقرر واحد بطريقة تعكس الاستخدام الفعلي للغة عند أهل اللغة؛ تلبية لحاجات الدارسين الذين يتعلم أغلبهم العربية، كما يتعلمون الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية، للتواصل مع أهل اللغة.

على أن بعض الباحثين المتخصصين رفض تقسيم اللغة إلى فصحى وعامية وفضل أن يسميها كما لغويًا متصلًا طرفاه الفصحى والعلمية، وتنتقل الفروق بينهما في هذا الكم اللغوي المتصل عند المركز أو نقطة الوسط فتسقط بعض السمات المعجمية والتكنولوجية من الفصحى وتحل محلها سمات فونولوجية ومعجمية من العامية فهما كلتاها تمثلان نظامًا واحدًا من التواصل لا يمكن تقسيمه، أو هما وجهان لعملة واحدة لا يفنى أحدهما عن الآخر، ولا يمكن فصل أحدهما عن نظيره ولا إعطاؤه نصف القيمة.

ويقوم البرنامج الإجماعي عند منذر يونس على الفروق الثلاثة الآتية:
الأول: أن طلاب العربية بوصفها لغة أجنبية يهدفون إلى التمكن من مهارات اللغة كلها.

الثاني: أن الفصحى المعاصرة وعامية المتكلمين تشكلان نظامًا اتصاليًا متكاملًا غير قابل للتقسيم.

الثالث: أن أوجه الاتفاق بين مكونى نظام الاتصال تفوق عددًا لوجه الاختلاف، وباستبعاد عدد محدد من المفردات المختلفة بين الفصحى المعاصرة والعامية فإن أغلب الاختلافات من الممكن التنبؤ بها ويمكن التعبير عنها أو الإشارة إليها بعدد بسيط من القواعد.

وهو يرى أن هذا الإنماج يفضى على الترتيب الطبيعى لوحدة النظام للغوى فإذا أردت أن تقسم هذا الكل فإن الجزء المقسوم يظل منقوصًا، كذلك فإن أى جزء من الكل لا يبنى عنه.

وبعد فلهذا قد وضح الآن مما تقدمناه فى هذا البحث أن الاتجاه للتواصل فى تعليم العربية هو أقربها إلى طبيعة اللغة واستعمالاتها عند أهلها، وهو أكثرها رعاية لحاجات الطلاب وتحقيقاً لأهدافهم، وأوفرها حظًا فى إطلاق طاقاتهم الإبداعية، وأسرعها إنجازًا، وأوفاهها على الغاية من تعلم اللغات، وهو أولها بالقبول.

صفحة

١١٤ - ١٠٢	تمثل الأفعال الكلامية في التراث.....
١٢٢ - ١١٤	إبرك لقضاء لمفهوم الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة..
٢٠٤ - ١٢٣	٣. التصنيف النوعي للغات والعاليات
١٢٧ - ١٢٥	تلازمهما في نظرية اللغة والمراد بكل منهما.....
١٧٣ - ١٢٧	١- التصنيف النوعي للغات
١٣٤ - ١٢٧	عقبات التصنيف.....
١٣١ - ١٢٨	أ - عدد اللغات.....
١٣٣ - ١٣١	ب - قاعدة البيانات.....
١٣٤ - ١٣٣	ج - منهج الوصف.....
١٣٤	د - العلاقات بين اللغات.....
١٤٤ - ١٣٤	- أنواع التصنيف.....
١٤٠ - ١٣٥	١- التصنيف الوراثي.....
١٤٢ - ١٤٠	٢- التصنيف الإقليمي.....
١٤٤ - ١٤٢	٣- التصنيف النوعي.....
١٤٥ - ١٤٤	- كيفية التصنيف.....
١٤٦ - ١٤٥	- الفرق بين المنهج التصنيفي والمنهجين المقارن والتقابلي..
١٧٣ - ١٤٦	- تصنيف اللغات على أساس من أنظمتها اللغوية.....
١٥٧ - ١٤٦	١- النظام الصوتي.....
١٦٥ - ١٥٧	٢- النظام الصرفي.....
١٧٣ - ١٦٥	٣- النظام النحوي.....

صفحة

١٧٣ - ٢٠٤	العالميات:
١٧٣ - ١٧٤	- تاريخ البحث فيها ومنهجه.....
١٧٤ - ١٨٠	- اتجاه تشومسكي وأتباعه.....
١٨٠ - ١٨٥	- مأخذ الباحثين على اتجاه تشومسكي وأتباعه.....
١٨٧ - ١٨٥	- اتجاه جرينبيرج.....
١٨٧ - ١٩٣	- قواعد العالميات.....
١٨٧ - ١٨٨	أ - عالميات النظام الأساسي للجملة.....
١٨٨ - ١٩١	ب - العالميات التركيبية.....
١٩١ - ١٩٣	ج - العالميات المورفولوجية.....
١٩٣	- أنواع العالميات.....
١٩٣ - ١٩٦	١- العالميات غير المقيدة.....
١٩٧ - ١٩٩	٢- الاستنزامات العالمية.....
١٩٩ - ٢٠٠	٣- العالميات الاحصائية.....
٢٠١ - ٢٠٣	٤- الارتباطات الاحصائية.....
٢٠٣ - ٢٠٤	- لا مكان للعربية في التصنيف النوعي للغات ولا في العالميات
٢٠٥ - ٢٣٣	٤- النهج الاستبدالي في كتاب سيوييه
٢٠٧	مكانة كتاب سيوييه.....
٢٠٧ - ٢٠٩	- الأسس المنهجية عند سيوييه.....
٢٠٩ - ٢١١	- التوزيعية.....
٢١١	- إجراءات التحليل التوزيعي.....

صفحة

٢١٢ - ٢١٣ أنماط التوزيع.
٢١٦ - ٢١٣ ملامح النهج الاستبدالي في كتاب سيبويه.
٢٢٨ - ٢١٦ الاستبدال أسس منهجي عند سيبويه.
٢١٦ استخدام سيبويه للنهج الاستبدالي في أقسام الكلم.
٢٢٣ - ٢١٧ أ - الاسم.
٢٢٦ - ٢٢٣ ب - الفعل.
٢٢٨ - ٢٢٧ ج - الحرف.
٢٣٠ - ٢٢٨ تقارض الأقسام في الاستبدال.
٢٣١ - ٢٣٠ للنهج الاستبدالي أسس منهجي منضبط عند سيبويه.
٢٣٢ - ٢٣١ أوجه الالتقاء بين سيبويه والتوزيعيين.
٢٣٤ - ٢٣٢ أوجه الاقتراق.
٢٦٥ - ٢٣٥	٥. الضمائر المنعكسة في اللغة العربية
٢٣٧ حاجة الدرس النحوي القديم إلى قراءة معاصرة.
٢٣٧ مصطلح الضمائر المنعكسة.
٢٤٠ - ٢٣٨ ووقوفهم على الظاهرة من خلال أفعال القلوب.
٢٤٣ - ٢٤٠ ما جاء عنها في كتاب سيبويه.
٢٤٦ - ٢٤٣ توزيع هذه الضمائر عند سيبويه.
٢٤٦ قاعدتان إجباريتان تولدان الضمائر المنعكسة.
٢٤٨ - ٢٤٦ اختبار انطباق القاعدتين على أمثلة سيبويه.
٢٤٨ تعديل القاعدة الأولى.
٢٤٨ تطبيق القاعدة الثانية.

صفحة

٢٥٠ - ٢٥١تعديلات القاعدة الثانية.
٢٥١ - ٢٦٠ الوصف التركيبي للضمائر المنعكسة
٢٥١ - ٢٥٤ أ - مع أفعال القلوب.
٢٥٤ - ٢٦٠ ب - مع غير أفعال القلوب.
٢٦٠ - ٢٦١ تعديل أخير للقاعدة الثانية.
٢٦١ - ٢٦٥ الوصف الدلالي للضمائر المنعكسة.
٢٦٥ خرق بعض الشعراء قواعد استخدام الضمائر المنعكسة.
٢٦٦ - ٢٩٨	٦- وظائف اللغة (ترجمة)
٢٦٨ - ٢٧٢ التمهيد للترجمة:
٢٦٨ - ٢٧١ * التعريف بهاليداي وعطائه العلمي.
٢٧١ - ٢٧٢ * نظريته في النحو النظامي.
٢٧٢ - ٢٩٨ الترجمة.
٢٧٢ - ٢٧٦ مدخل.
٢٧٧ - ٢٧٨ الوظيفة خاصة جوهرية للغة.
٢٧٨ - ٢٨١ المعنى التجريبي.
٢٨١ - ٢٨٢ المعنى التبادلي.
٢٨٢ - ٢٨٤ المعنى المنطقي.
٢٨٤ - ٢٨٨ المعنى النصي.
٢٨٨ - ٢٩٣ العلاقة بين النص ومقامه.
٢٩٣ - ٢٩٨ الوظائف والمعاني في النص.

٢٩٩ - ٣٢٩	٧. الاتجاه التواصلي في تعليم العربية لغير الناطقين بها
٣٠١	- اللغة أهم أنظمة التواصل.....
٣٠٣ - ٣٠١	- أهم الاتجاهات في تعليم اللغات وتعلمها.....
٣٠٤ - ٣٠٣	- نشأة الاتجاه التواصلي.....
٣٠٥ - ٣٠٤	- مكونات القدرة التواصلية.....
٣٠٦ - ٣٠٥	- وظائف اللغة السبع.....
٣٠٧	- خصائص الاستخدام اللغوي.....
٣٠٧	- التواصل غير اللغوي.....
	- اهتمام الاتجاه الاتصالي باستخدام اللغة في ميولاتها
٣٠٨	الاجتماعية والثقافية.....
٣٠٩ - ٣٠٨	- اهتمام الاتجاه التواصلي بالأنشطة اللغوية.....
٣١١ - ٣٠٩	- مهارات التواصل ومعايير الاختبار.....
٣١٥ - ٣١١	- مكانة اللغة العربية بين لغات العالم.....
٣٢٩ - ٣١٥	- تطبيقات الاتجاه التواصلي.....
٣٢٣ - ٣١٥	أولاً: اللغة العربية للحياة
٣٢٠ - ٣١٥	١- برنامج الإسكندرية.....
٣٢٢ - ٣٢١	٢- نموذج منديري.....
٣٢٩ - ٣٢٤	ثانياً: العربية لأغراض الخاصة
٣٢٤	أ - برامج الإعلام.....
٣٢٤	ب - تعليم العربية لأغراض دينية.....
٣٢٦ - ٣٢٥	- مقارنة بين النوعين.....
٣٢٩ - ٣٢٦	- النمط اللغوي وأصالة المادة التعليمية.....

الأستاذ الدكتور
محمود أحمد نخلة

أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر

(مضعة منقحة ومزيدة)

يستشرّف هذا الكتاب أفاقا جديدة في البحث اللغوي المعاصر تتجاوز الأنماط الشائعة منه مجالاً ومنها بحثاً عن أفاق من التنظير أوسع وأرحب، وأكثر قدرة على التجديد والتطوير ومواكبة للعصر الذي نعيش فيه.

وهو فضلاً عن ذلك يقف من التراث اللغوي العربي الأصيل على أرض ثابتة مفضلاً أن يقرأه قرابة معاصرة تفيد من اتجاهات الدرس الحديث ومناهجه وطرائقه في رصد الظواهر اللغوية ومعالجتها على نحو علمي مضبوط، تجديدًا للنظر في هذا التراث اللغوي العظيم، وكشفًا عن كنوزه المخبوءة، وبياناً لعناصر القوة فيه التي تؤكد قدرته على المناقضة والحوار مع النظريات اللغوية المعاصرة نداءً لند، ونظيراً لنظير.

المؤلف الأستاذ الدكتور / محمود أحمد نخلة

- أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب / جامعة الإسكندرية.
- حصل على الدكتوراه على نظام القنوات العلمية والإشراف المشترك بين جامعتي الإسكندرية وفريدريش الكسندر (إرلانجن - نورنبرج) بالمانيا الاتحادية
- محكم في جوائز عالمية ومحلية، وفي بحوث مقدمة للترقية إلى درجة أستاذ أو أستاذ مساعد، وفي بحوث مقدمة للنشر في مجالات علمية متخصصة، داخل مصر وخارجها.
- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية إلى درجة أستاذ أو أستاذ مساعد (الدورة العاشرة)
- شارك في كثير من المؤتمرات العلمية عالمية ومحلية.
- أشرف، ولا يزال، على كثير من الرسائل العلمية لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه، وشارك، ولا يزال، في مناقشة الكثير منها، داخل مصر وخارجها.
- عمل رئيساً لتحرير مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية مئذربعة أعوام.
- عمل معاراً وزائراً لجامعات عريقة عربية وألمانية وأمريكية
- عمل مديراً لمركز تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بكلية الآداب جامعة الإسكندرية مدة ستة أعوام.
- عمل وكيلاً لكلية للدراسات العليا والبحوث مدة أربعة أعوام.
- لا يزال يعمل حتى صدور هذه الطبعة من الكتاب مديراً لمعهد الدراسات اللغوية والدراسات اللغوية والآداب، جامعة الإسكندرية.
- له إنتاج علمي غزير يقوم على علم راسخ بالتراث والنظريات اللغوية الحديثة.

تباع كتبنا لدى المكتبات الكبرى :

دار المعارف - الأهرام - الأخبار - الجمهورية - الهيئة المصرية العامة

روز اليوسف ... ودار الأمل للكتاب ٢٨ شارع الدقي ت ٢٢٢٥٩٧١٩

